

قَالَتِ الْمَنَابِرُ

(المجموعةُ الثالثةُ)

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ - ٢٠١٨م

قَالَتِ الْمَنَابِرُ

مجموعَةٌ مِنْ حُطَبِ الْجُمُعَةِ أُلْقِيَتْ فِي جَامِعِ

الْأَمِيرِ الرَّاحِلِ صَاحِبِ السُّمُو الشَّيْخِ عَيْسَى بْنِ سَلْمَانَ آلِ خَلِيفَةَ

رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى

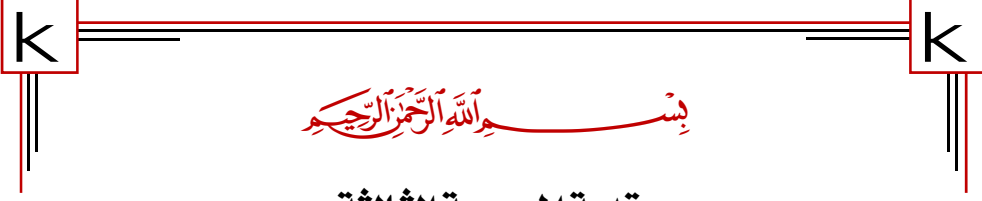
(المجموعةُ الثالثةُ)

أَلْقَاهَا الرَّاجِي عَفْوَ رَبِّهِ

رَاشِدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ فَطِيْسِ الْهَاجِرِيِّ

خَطِيبُ جَامِعِ عَيْسَى بْنِ سَلْمَانَ آلِ خَلِيفَةَ

الرِّفَاعُ الْغَرْبِيُّ - مَمْلَكَةُ الْبَحْرَيْنِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المجموعة الثالثة

•• k ••

الحمدُ لله وَحْدَهُ، والصلاةُ والسَّلامُ على مَنْ لا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
وَمَنْ سارَ على مَنهجِهِ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

راشد بن محمد بن فطيس الهاجري

الرفاع الغربي - مملكة البحرين

**** / ١٤٤٠ هـ / **** ٢٠١٨ م

•• k ••



مقدمة المجموعة الثانية

•• k ••

الحمدُ لله وَحْدَهُ، والصلاةُ والسَّلامُ عَلَى مَنْ لا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
وَمَنْ سارَ عَلَى مَنْهَجِهِ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

فهذه هي المجموعة الثانية من موسوعة خطب الجمعة: **(قالت المتأبر)** والتي
أكرمني الله بإلقائها من على منبر جامع الأمير الراحل صاحب السمو الشيخ عيسى
بن سلمان آل خليفة، بمدينة الرفاع الغربي بمملكة البحرين حرسها الله تعالى .

وقد ذكرت في مقدمة المجموعة الأولى السبب الداعي لجمع هذه الخطب في
هذه الموسوعة مما يُغني عن إعادته هنا، سائلاً المولى **عزَّ وجلَّ** أن يجعلها خالصةً
لوجهه الكريم، وأن يكتب لي ولوالدي بها الأجر والثواب.

والشُّكرُ والتقديرُ لجميع مَنْ قدَّم لي المساعدة في إخراج هذه الموسوعة،
وأخصُّ بالشُّكرِ الشيخَ سلطان بن إبراهيم عاشور مؤذن الجامع والمُشرفَ المُباشرَ
على جمع وأرشفة جميع الخطب، كما أتقدم بالشُّكر الجزيل للأخ الفاضل الشيخ
فواز الرميحي المسؤول عن تفرغ سلسلة الخطب ومتابعة طباعتها، كما أشكر
الأخ عمران إبراهيم على جهده الدؤوب في تسجيل الخطب وترتيبها.

وفي الختام يُخضرنِي قول البيهقي **رحمه الله:** إنِّي رأيتُ أَنَّهُ لا يكتبُ إنسانٌ كتاباً
في يومٍ، إلا قالَ في غَدِهِ: لو غيِّرَ هذا لكانَ أحسنَ، ولو زيدَ هذا لكانَ يُستحسنُ،

ولو قُدِّمَ هذا لكانَ أفضلَ، ولو تُركَ هذا لكانَ أجملَ، وهذا مِن أعظمِ العِبرِ، وهو دليلٌ على استيلاءِ النَّقصِ على جُملةِ البَشَرِ. فأسألُ اللهَ أنْ يَغْفِرَ لي ما في هذهِ المجموعةِ مِن خطأٍ ونقصٍ، وأنْ يتجاوزَ عَن تَقصيري فيها.

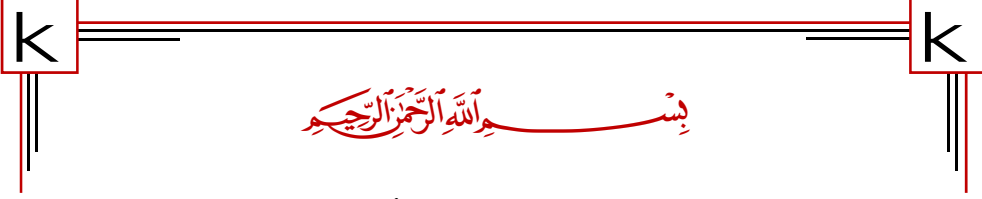
وكتَبَهُ: الرَّاجِي عَفْوَرِيهِ

رَاشِدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ فَطِيْسِ الْهَاجِرِيِّ

الرِّفَاعُ الْغَرَبِيُّ - مَمْلَكَةُ الْبَحْرَيْنِ

١ شَعْبَانَ ١٤٣٩ لِلهَجْرَةِ، الْمَوَافِقُ: ١٧ أْبْرِيلَ ٢٠١٨

••k••



مقدمة المجموعة الأولى

• • k • •

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، **وبعد:**

فقد بدأتُ الخطابة -بصفة رسمية- قبل عشرين سنة تقريباً، وذلك حين التحقتُ بشعبة الإرشاد والثقافة بالحرس الوطني، وكان من جملة مهامّي الوظيفية إلقاء خطبة الجمعة في جامع معسكر الحرس الوطني، إلى أن تشرفتُ بصدور التوجيه السامي الكريم لصاحب الجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة ملك مملكة البحرين -حفظه الله ورعاه- بتعييني خطيباً رسمياً لجامع المغفور له -بإذن الله تعالى- صاحب السمو الأمير الراحل الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة طيب الله ثراه، وذلك في عام ١٤٣١هـ الموافق ٢٠١٠م.

وفي خلال هذه الفترة التي قضيتها خطيباً أدركتُ تماماً أهمية خطبة الجمعة وخطورة التهاون فيها، فلقد كنتُ أقابل في كل جمعة عقولاً راجحةً جديرةً بالاحترام والاهتمام، فكنتُ أهتم كثيراً بموضوع الخطبة، ولا أبالغ إذا قلتُ: إنني أفكر في موضوع الخطبة التالية منذ بداية الأسبوع، ولقد زادني تعظيماً لشأن الخطبة أن هذا المقام هو مقام النبيين والمرسلين، وهو توقيع عن رب العالمين، ووسيلة عظمى لنشر الحق وإذاعة الدين.

هذا المقام مقام الرُّسلِ قاطبةً وفوقه حاربوا كيدَ الشَّيَاطِينِ
وموطنُ النَّصْحِ والإرشادِ من زمنٍ ومنبرُ الحَقِّ والتَّعليمِ للدينِ

والحقُّ أَنِّي استفدْتُ كثيرًا منَ خطبِ العلماءِ ودروسِهِمْ وكتبِ الدُّعَاةِ
ومقالاتِهِمْ، فكنْتُ أَلْخُصُّ بعضَ الكتبِ والمقالاتِ والخطبِ وأُعيدُ صياغَتَهَا؛
ليتناسبَ المقالُ معَ المقامِ، ولا أدَّعي أَنِّي جئتُ في هذهِ الخطبِ بالجدِيدِ أَبَدًا، وإِنَّمَا
هي نُقُولٌ جمعتُها وألَّفتُ بينها وقدمتها على هيئةِ خطبةٍ.

ولمَّا كنتُ أَلقي هذهِ الخطبَ ارتجالًا منَ ذاكرتي دونَ كتابتِها أشارَ على بعضِ
الإخوةِ بتسجيلِها، ثمَّ تفرغتها في كتابٍ ليستفادَ منها.

زكاةُ العلمِ بذلٌّ ثمَّ نشرٌ وما كالعلمِ في أخراكِ دُخْرُ
تُفيدُ بهِ الخلائقَ كلَّ حينٍ ويبقى منه بعدَ الموتِ أجرٌ

ولقد كنتُ مترددًا كثيرًا في تلبيةِ طلبِهِمْ إلى أنْ شرحَ اللهُ صَدْرِي لذلكِ،
فقمْتُ بتفريغِ المجموعةِ الأولى منَ هذهِ الخطبِ - وعددها تسعَ وأربعونَ خطبةً -
في هذهِ المؤلِّفِ، وتكررتُ البقيَّةُ للمجموعاتِ القادمةِ بإذنِ اللهِ تعالى.

ولا يَسْعُنِي في هذا المقامِ وبعدَ شكري اللهُ على ما منَّ بهِ عليّ منَ فضلِ إخراجِ
هذهِ المجموعةِ منَ الخطبِ إلا أنْ أشكُرَ جميعَ منَ ساعدني وساهمَ في إخراجِ هذهِ
الخطبِ سائلًا اللهُ لي ولهمُ الأجرَ والثَّوابَ السَّدادَ والصَّوابَ.

تولاني الأجابةُ والصَّحابُ أعانوني فصاحبني الصَّوابُ
وخيرُ الصَّحبِ منَ يؤتيكَ نصحًا يفيدُك حينَ يغشاكِ الترابُ

وفي الختام أرجو ممن سيقراً هذه الخطب أن يعذرني إن وجدَ خطأً وخللاً؛
فقد ألقىت هذه الخطب - كما تقدّم - حفظاً من ذاكرتي.

وإن تجد عيباً فسُدّ الخلالاً جلّ من لا عيب فيه وعلاً

وعليه فأرجو ممن رأى شيئاً أن يبذل النصيحة ويوافيني بما وجد؛ لأتدارك
ذلك في الطبعات القادمة إن شاء الله.
والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

راشد بن محمد بن فطيس الهاجري

الرفاع الغربي - مملكة البحرين

جمادى الأولى ١٤٣٨هـ / فبراير ٢٠١٧م

•• k ••



(١)

إشارات على الطريق

•• k ••

جاء في (صحيح ابن حبان) عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خطَّ لنا رسولُ الله ﷺ خطًّا، فقال: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ»، ثُمَّ خطَّ خطوطًا عن يمينه وعن شماله، ثُمَّ قال: «وَهَذِهِ سُبُلٌ، وَعَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»، ثُمَّ تلا الآياتِ من سورة الأنعام: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ^(١).

عباد الله! ما منَّا من أحدٍ إلا وهو على هذه السُّبُلِ؛ إمَّا على صراطِ الله المستقيم، أو تتقاذفه الأهواءُ والشبهاتُ على هذه السُّبُلِ، لا بدَّ أن يكونَ في هذا الطريقِ:

فالصَّالِحُونَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَتْقِيَاءُ عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، وَالْفَاسِدُونَ الطَّالِحُونَ عَلَى تِلْكَ السُّبُلِ الَّتِي عَلَيْهَا شَيَاطِينٌ يَدْعُونَ إِلَيْهَا، وَالْجَمِيعُ مَنْطَلِقُونَ، مِنْهُمْ الْمُتَقَدِّمُ، وَمِنْهُمْ الْمُتَأَخِّرُ.

وقد جاء في (سنن الترمذي): أن النبي ﷺ قال: «كُلُّ النَّاسِ يَعْذُو» لا تَوْقَفَ لِأَحَدٍ، الْجَمِيعُ عَلَى هَذِهِ السُّبُلِ، الْجَمِيعُ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَاتِ، «كُلُّ النَّاسِ

(١) صحيح ابن حبان رقم (٦)، وأخرجه أيضًا أحمد (١/٤٣٥).

يَغْدُو، فَبَائِعُ نَفْسِهِ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوْبِقُهَا»^(١). فهُمْ مُنْقَسِمُونَ: صِنْفٌ قَدْ بَاعَ نَفْسَهُ لِلَّهِ؛ فَجَّاهَا مِنَ النَّارِ، وَصِنْفٌ بَاعَ نَفْسَهُ إِلَى الشَّيْطَانِ؛ فَأَوْبَقَهَا فِي النَّارِ.

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتٍ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقِنُّهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِيَعِيكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

فالناس على هذه السبل؛ بائع نفسه لله، وبائع نفسه للشيطان، ويكون التعامل على هذه السبل على قدر ما عندك من العزيمة والطموح.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكريم الكرائم
ويكبر في عين الصغير صغيرها وتصغر في عين العظيم العظائم^(٢)

لما وقف عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو ينظر إلى الناس يخرجون من عرفة، ينطلقون إلى مزدلفة -والذي ذهب منكم إلى الحج يدرك ما أقول، ويدرك هذا الوصف جيدا، فيجد كل الناس يسرع- فخطب الناس قائلاً: «ليس السابق من سبق بغيره وفرسه، ولكن السابق من غفر له»^(٣).

فمفهومه لميدان هذا التنافس، ومفهومه ونظرته لهذه السبل مختلفة: «ليس

(١) سنن الترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥١٧)، من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه أيضا مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم (٢٦٩٩).

(٢) الأبيات للممتني، انظر: ديوانه (ص: ٣٨٥).

(٣) أخرجه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم رقم (١٦٨).

السابقُ مَنْ سَبَقَ بَعِيرُهُ وَفَرَسُهُ»، ليس السابقُ مَنْ سَبَقَ بِجَاهِهِ وَمَنْصِبِهِ، «ولكنَّ السابقُ مَنْ غَفَرَ لَهُ».

معاشرَ الإخوة؛ وأخصُّ منكمُ الأبناء، هذه السبيلُ لكم، مَنْ سَبَقَكُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ يُقَدِّمُونَ لَكُمْ هَذِهِ النَّصَائِحَ، فَأَخْصُ أَبْنَائِي، شَبَابَ الْيَوْمِ وَرِجَالَ الْغَدِ، هَذِهِ السَّبِيلُ سَبَقَكُمْ بِالْمُرُورِ عَلَيْهَا رِجَالٌ يُقَدِّمُونَ لَكُمْ هَذِهِ النَّصَائِحَ، جَمَعْتُهَا لَكُمْ فِي هَذِهِ الْخُطْبَةِ بِعُنْوَانٍ:

«إشاراتٌ على الطريق»

فجمعتُ لك خمسَ إشارات، خُذْهَا مِنِّي وَاقْبَلْهَا وَاحْفَظْهَا وَاعْمَلْ بِهَا:

” **أَمَّا الْأُولَى:** فلا تَرْضَ بغيرِ المُقدِّمةِ!

” **وَأَمَّا الثَّانِيَةُ:** فلا تَكُنْ معِ المتخلفين!

” **وَأَمَّا الثَّالِثَةُ:** فلا تُفَوِّتِ الفُرْصَةَ! فَإِنَّهَا لَا تَتَكَرَّرُ.

” **وَأَمَّا الرَّابِعَةُ:** فلا تَهْجُرْ بَيْتَ اللَّهِ!

” **وَأَمَّا الْخَامِسَةُ:** فَإِيَّاكَ وَالتَّلَوْنَ!

الإشارةُ الْأُولَى: لا تَرْضَ بغيرِ المُقدِّمةِ!

لا تَرْضَ لِنَفْسِكَ أَنْ تَكُونَ الصَّفُوفُ الْمُتَقَدِّمَةُ فِيهَا فَلَانٌ وَفَلَانٌ وَفَلَانٌ، وَاسْمُكَ لَيْسَ فِيهَا، بَلْ كُنْ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ إِذَا أَرَدْتَ النَّجَاةَ فِي دِينِكَ وَدُنْيَاكَ، فَإِذَا أَرَدْتَ النَّجَاةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَكُنْ فِي الْمَقَدِّمَةِ، وَانظُرْ إِلَى تَوْجِيهَاتِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، تَجِدُ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةَ وَالْأَحَادِيثَ الْكَثِيرَةَ تُرَبِّيكَ عَلَى أَنْ تَكُونَ فِي الصُّفُوفِ الْمُتَقَدِّمَةِ.

وقد جاء في (صحيح ابن حبان): أن النبي ﷺ قال: **«يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: اقْرَأْ، وَارْقُ، وَرَتِّلْ، كَمَا كُنْتَ تُرْتِّلُ فِي دَارِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ كُنْتَ تَقْرُؤُهَا»** (١).

تدبر هذا الحديث العظيم، فهذا دينٌ يُعلمك الرقي، ويقول: إنك لا ترتقي حتى تقرأ، وأمةٌ لا تقرأ فلن ترتقي، وأمةٌ لا تُريد الرقي فلن ترتقي، ولا يرتقي إلا أهل الصُفوفِ المتقدمة، ممن عندهم نفوسٌ طامحةٌ إلى الخير، ف**«اقرأ وارق»**.

وفي الحديث الآخر: يقول نبينا ﷺ ما يُناسبُ مقامنا الآن في صلاة الجمعة، فقد جاء في (صحيح البخاري) أن النبي ﷺ قال: **«إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، كَانَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ الْمَلَائِكَةُ يُسَجِّلُونَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ»** دينٌ يُربِّيكَ على أن تكونَ في المُقدِّمةِ دائماً، فهو لا يرضى لك إلا بالصفوفِ المتقدمة، قال: **«يَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ، فَإِذَا جَلَسَ الْإِمَامُ طَوَّأَ الصُّحُفَ وَجَاؤُوا يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ»** (٢).

فأرجوك -أيها الابن المبارك- حتى في فصلك الدراسي لا تختار الكراسي المتأخرة، حتى في اختيارك لزملائك لا تختار إلا المتقدمين، ممن تقدّموا في أمر دينهم ودنياهم، والله يقول لك: **«وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ»** [فاطر: ١٤]، يسوقها لك خبراءٌ بهذه الطرق.

(١) صحيح ابن حبان رقم (٧٦٦)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢/ ١٩٢)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة، رقم (١٤٦٤)، والترمذي: كتاب فضائل القرآن، رقم (٢٩١٤)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢١١)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب فضل التهجير يوم الجمعة، رقم (٨٥٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الإشارة الثانية: لا تكُنْ مع المتخلفين!

لا ترضَ بالدونِ أبداً، فلا تقبلْ لنفسِك الصفَّ الأخيرَ، فإنَّ الذي يتربَّى أن يكونَ في الصفِّ الأخيرِ يكونَ أخيراً في الدينِ والدُّنيا، وانظرْ إلى هذا الرجلِ كيف علَّتْ هِمَّتُهُ، يقولُ:

إِذَا مَا طَمَحْتُ إِلَى غَايَةٍ رَكِبْتُ الْمُنَى وَنَسِيتُ الْحَذَرَ
وَلَمْ أَتَجَنَّبْ وَعُورَ الشُّعَابِ وَلَا كُبَّةَ اللَّهَبِ الْمُسْتَعِرِ
ثُمَّ يَرِينَا فَيَقُولُ:

وَمَنْ يَتَهَيَّبُ صُعُودَ الْجِبَالِ يَعِشُ أَبَدَ الدَّهْرِ بَيْنَ الْحُفَرِ^(١)

واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ لِنَبِيِّهِ: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ﴾ أي: إلى الوراثة ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَعِذْ نُوَاكٍ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقْبِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ﴾ [التوبة: ٨٣]، فهناك ناسٌ متخلفون، فلا تقبلْ أن تكونَ قاعداً معهم.

واعلمْ أيُّها المباركُ، أنك مهما أوتيتَ من نسبٍ، ومنصبٍ، وجاهٍ، ومالٍ، وشفاعةٍ، وواسطةٍ، وجمالٍ، وحُسنٍ، وجسمٍ، فإنه لن ينفَعَكَ ذلك إذا لم يكنْ لك عملٌ يُقدِّمُكَ، ففي (صحيح مسلم) يقولُ ﷺ: «وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ» ومن بطَّأَ به فجعله مع المتخلفين «وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»^(٢).

(١) الأبيات لأبي القاسم الشابي، انظر: ديوانه (ص: ٩٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم

(٢٦٩٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يُرَبِّينَا نَبِيَّنَا ﷺ عَلَى ذَلِكَ - كَمَا جَاءَ فِي (سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ) - يَقُولُ: «**احْضَرُوا الذِّكْرَ، وَادْنُوا مِنَ الْإِمَامِ**» أَي: اقْتَرِبِ اقْتَرِبْ، «**فَإِنَّ الرَّجُلَ لَا يَزَالُ يَتْبَعُهُ حَتَّى يُؤَخَّرَ فِي الْجَنَّةِ وَإِنْ دَخَلَهَا**»^(١)، فَانظُرْ إِلَى هَذِهِ التَّرْبِيَةِ الَّتِي تُرَبِّيكَ عَلَى أَنْ تَكُونَ مَعَ الْمُتَقَدِّمِينَ لَا مَعَ الْمُتَخَلِّفِينَ.

الإشارة الثالثة: لا تفوت الفرصة!

فَإِنَّ الْفُرْصَ فِي الْغَالِبِ لَا تُكْرَرُ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عِنْدَ الْبُخَارِيِّ -: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَجْمَعٍ مِنَ الصَّحَابَةِ قَالَ: «**يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هِيَ سَبْعُونَ أَلْفًا تُضِيءُ وَجُوهَهُمْ إِضَاءَةُ الْقَمَرِ**»، فَقَامَ لَهُ عَكَاشَةُ بْنُ مُحْصِنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ. قَالَ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ**»، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ أَكُونَ مِنْهُمْ، قَالَ: «**سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ**»^(٢)، فَهَذِهِ فُرْصٌ لَا تَتَكَرَّرُ.

فَأَعْمَارُنَا فُرْصَةٌ، وَالْعَافِيَةُ فُرْصَةٌ، وَالْأَمَانُ الَّذِي نَنْعَمُ بِهِ فُرْصَةٌ، وَالصَّحَّةُ فُرْصَةٌ؛ فَلَا تَفُوتُ هَذِهِ الْفُرْصَ، فَإِنَّمَا قَدْ لَا تَتَكَرَّرُ، فَتَقَرَّبْ إِلَى اللَّهِ وَكُنْ مَعَ الْمُتَقَدِّمِينَ بِهَذِهِ الْفُرْصِ الَّتِي تُتَّاحُ لَكَ.

وَقَدْ وَصَّى ابْنُ الْجُوزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَلِدَهُ - كَمَا فِي (صَيْدِ الْخَاطِرِ) -، وَكَمْ عَظِيمَةُ

(١) سنن أبي داود: كتاب الصلاة، باب الدنو من الإمام عند الموعظة، رقم (١١٠٨)، من حديث سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه أيضا أحمد (١١ / ٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب، رقم (٦٥٤٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم (٢١٦).

هذه الوصية، فاسمَعها أئِها الابنُ المباركُ، يقول: «واعلم - يا بُني - أن الأيَّامَ تُبَسِّطُ ساعاتٍ، والساعاتُ تُبَسِّطُ أنفاسًا، وكلُّ نفسٍ خِزانةٌ»، فكلُّ نفسٍ تَتَنَفَّسُ خِزانةً «فاحذَرُ أن يذهبَ نفسٌ بغيرِ شيءٍ»، يقولُ له: «فاحذَرُ أن يذهبَ نفسٌ بغيرِ شيءٍ، فإنَّ في (الصحيح) عن رسولِ الله ﷺ: **«مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ»** (١)، فانظُرْ إلى مُضَيِّعِ الساعاتِ كم يفوته من النخيلِ!» (٢).

الإشارة الرابعة: لا تهجر بيت الله تعالى!

أئِها الشبابُ! لا تَرَبِّي إِلَّا في المساجِدِ، ولا تَتَعَلَّمُ إِلَّا في المساجِدِ، فاحذَرُ أن تهجرَ بيته، فإنَّ مَنْ سَبَقَكَ قد عاينَ خطورةَ مَنْ هجرَ البيتَ، فهو يُسدي لك نصحاء، فإنَّ مَنْ سَبَقَكَ قد عاينَ فضلَ مَنْ لازمَ بيتَ الله، فهو يُسدي لك نصحاء، ويذكرك بقول الحقِّ: ﴿ **فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ** (٣٦) **رِجَالٌ لَا نُلْهِمُهُمْ مِجْرَةً وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ** (٣٧) **لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [النور: ٣٦-٣٨].

وقد جاء في وصية الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما قال: «ومن أدام الاختلافَ إلى المسجدِ أصابَ ثمانِي خِصالٍ: آيةٌ مُحْكَمَةٌ، وأخاٌ مستفادًا، وعلماٌ مستظرفًا، أو كلمةٌ تدلُّه على الهدى، أو أخرى تصدُّه عن الردى، أو رحمةٌ منتظرةٌ، أو يتركُ الذنوبَ حياءً أو خشيةً من الله **عَزَّجَلَّ**» (٣).

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٤٦٤، ٣٤٦٥)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) انظر: صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٥٠٥).

(٣) أخرجه البزار في مسنده رقم (١٣٣٥)، والطبراني في المعجم الكبير رقم (٨٨/٣)، رقم (٢٧٥٠).

فلا تَرْضَ بغير المقدّمة، ولا تَكُنْ مع المتخلفين، ولا تفوتِ الفُرصة، ولا تهجرُ بيته.

الإشارة الخامسة: لا تتلون!

فإن دينَ الله واحدٌ، فلا تكن لك مجموعة هويّات في هويّة واحدة، هويّتك: مسلمٌ، أبقِ على هذه الهوية، ولا تتلون، فلا تكن مع لونٍ فتجامل صاحبه، ثم تكن مع لونٍ آخر فتجامل صاحبه، لا، لتكن هويّتك واضحة: هوية المسلم.

جاء أبو مسعود الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لحذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وحذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على فراش الموت، فقال: يا حذيفة، أوصني! فأوصاه بوصية قال في آخرها: «وإياك والتلون، فإن دينَ الله واحدٌ»^(١) أي: فإن الدين لا يتعدّد؛ ولذا وصم النبي ﷺ المنافق التلون بوصفٍ قال فيه - كما في (صحيح مسلم) -: «**مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ، تَعْبُرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً**»^(٢).

وأبلغ صور التلون في وقتنا اليوم ما نراه من أبناء وبنات المسلمين بالاحتفال بأعياد الكريسماس والعام الميلادي الجديد، فيخلع الإنسان هويّته ويلبس هويةً أخرى.

وأسألكم بالله - عباد الله -: هل رأيتم رجلاً نصرانياً في مجتمع النصارى

من حديث الحسن بن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعاً. وانظر: الإحياء للغزالي (٤ / ٣٧١).

(١) أخرجه معمر بن راشد في جامعه رقم (٢٠٤٥٤)، وابن الجعد في المسند رقم (٣٠٨٣)، وابن أبي شيبة في المصنف رقم (٣٥٩٥٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، رقم (٢٧٨٤)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

هناك إذا قرب عيد الأضحى، يذهب إلى السوق يشتري شاةً، ويتأكد من عمرها، ويتأكد أنها خالية من العيوب، ثم يضحّي بها، ثم يأمر زوجته بأن تقسمها ثلاثة أقسام، ويقول: نجامل المسلمين!

لكننا رأينا - في مجتمعنا المسلم - المسلم يشتري شجرة الكريسماس، ويحرص عليها، وعلى حجمها، وعلى شكلها، ويضعها في وسط بيته ويصور بجانبها، ويضعها على مواقع التواصل الاجتماعي، فيجامل الكفار ويقول: نظهر التسامح. أرايتم تلوّنًا مثل هذا؟!

وهل رأيتم في مجتمع النصارى رجلاً نصرانياً يتحرى هلال شهر شوال؛ ليُعيد مع المسلمين، ويجمع أسرته بثياب زاهية، يفرح معهم بيوم عيد الفطر، ويقول: نجامل المسلمين ونظهر التسامح الديني؟! ما رأينا!

لكننا رأينا في المجتمع المسلم، رأينا مسلماً يقطع تذاكر السفر له ولزوجته ولأولاده قبل احتفالات الكريسماس؛ ليحتفل هناك معهم!.

وهل رأيتم امرأة نصرانية في مجتمع النصارى تذهب إلى السوق لتشتري صاعاً؛ لتخرج زكاة الفطر مجاملة للمسلمين؟! ما رأينا ذلك!

لكن رأينا امرأة مسلمة في مجتمع المسلمين تشتري بطاقات تهنئة النصارى بأعيادهم. وهذا هو التلوّن.

وأنا أنصحكم أيها الأبناء: لا تتلوّنوا، فإن دين الله واحد لا اثنان.

ثم أرجو أن أرجع وإياكم الآن إلى كتاب ربي، حيث قال فيه: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ وَابْتِغَىٰ قُلُوبَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِيبَعَتَ

أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿البقرة: ١٢٠﴾.

والله تعالى يقول في كتابه: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿المائدة: ٥١﴾.

نرجع إلى قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَسَلْنَا لَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ ﴿التوبة: ٣٠﴾.

ونرجع إلى قول الله، يقول سُبْحَانَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿المائدة: ١٧﴾.

ويقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿المائدة: ٧٢﴾.

ويقول الحق سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحِدٌ ﴿المائدة: ٧٣﴾. هذه الآيات يقرؤها بعض المسلمين ثم يتلوون.

ويقرأ تلك الآية العظيمة: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿مريم: ٨٩-٩٢﴾. وهذه الآيات العظيمة يقرؤها المسلم ويختتم

القرآن، ثم يمارس هذه الممارسات التي تدلُّ على هذا التلُّون.

والذي أنصحك به -أيها الابن المبارك-: لا تتلَّون؛ فإن دين الله واحد.

ثم صلُّوا وسلِّموا على السراج المنير، البشير النذير، الذي أمرنا الله تبارك وتعالى
بالصلاة والسلام عليه، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

•• k ••



(٢)

قواعد مواجهة المسلم للأواء الدنيا

• • k • •

يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، فما من إنسانٍ إِلَّا وهو يكابدُ مشاقَّ الدنيا ومشاقَّ الآخرة، جعله الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كَبَدٍ، فيحتاجُ إلى قاعدةٍ ينطلقُ منها لمواجهة هذا الكَبَدِ، ويواجه هذه المشاقَّ.

وهذه القواعدُ أتت بها الإسلامُ، وبينها رسولُ الإسلامِ ﷺ، فمن أخذَ بها، أخذَ بحظٍّ وافٍ من التوفيقِ والسدادِ والرشادِ، يتعاملُ مع مشاقَّ الدنيا وكَبَدِها وضيقها وعنتها وجهدها ولأوائها.

وإنَّ من أعظمِ هذه القواعدِ التي يُواجهُ بها المسلمُ لأواءَ الدنيا؛ قاعدةُ الرضا بالقضاءِ، وهذه القاعدةُ العظيمةُ ترتكزُ على أساساتٍ، وعلى دعاماتٍ:

الدعامةُ الأولى: أجدها في سورة الحديد: يقولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

الدعامةُ الثانيةُ: أجدها في (صحيح مسلم): حينما قال عبدُ اللهِ بنُ عمرو بن العاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ

يَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»^(١) .

الدعامة الثالثة: أقرؤها في (سنن الترمذي) في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً، فقال: «يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدَهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»^(٢) .

فتجد هذه الجملة تتكرر في الدعامة الأولى حينما بين ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ مَا يَصِيبُنَا مِنَ الْمَصَائِبِ هُوَ فِي كِتَابٍ عِنْدَهُ، وَتَجِدُ ذَلِكَ فِي الدَّعَامَةِ الثَّانِيَةِ كَتَبَهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَتَجِدُهَا هُنَا فِي الدَّعَامَةِ الثَّلَاثَةِ حِينَ طَمَأَنَكَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» .

ثَمَانِيَةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا عَلَى الْفَتَى وَلَا بَدَّ أَنْ تَجْرِيَ عَلَيْهِ الثَّمَانِيَةُ
سُرُورٌ وَهَمٌّ، وَاجْتِمَاعٌ، وَفِرْقَةٌ وَيُسْرٌ وَعُسْرٌ، ثُمَّ سُقْمٌ وَعَافِيَةٌ^(٣)

يقول حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وما أجمل ما قاله-: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا قَطُّ إِلَّا صَغِيرًا ثُمَّ يَكْبُرُ، إِلَّا الْمَصِيبَةَ خَلَقَهَا كَبِيرَةً ثُمَّ تَصْغُرُ»^(٤)، فهذه رسالة لكل محزون،

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم (٢٦٥٣).

(٢) أخرجه أحمد (١/٢٩٣)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥١٦).

(٣) انظر: إصلاح المجتمع للبيحاني (ص: ٢٠٥).

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/٦٣)، عن وهب بن منبه رَحِمَهُ اللَّهُ.

إنَّهَا رِسَالَةٌ لِمَنْ يَعِيشُ عَلَى هَذِهِ الدُّنْيَا، فَيُلْفَحُ بِأَوَائِهَا وَكَبِدِهَا وَنَكَدِهَا.

يَأْتِي نَبِيَّنَا ﷺ - كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ -، يَعُودُ ابْنَهُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرِيضًا، وَإِبْرَاهِيمُ رَضِيعٌ صَغِيرٌ، فَيَحْمَلُهُ ﷺ وَيَضُمُّهُ وَيَشْمُمُهُ وَيَقْبَلُهُ، فَإِذَا بَنَفَسَ إِبْرَاهِيمَ تَرَادُّ تُرِيدُ أَنْ تَخْرَجَ، يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فِي أَنْفَاسِهِ الْأَخِيرَةِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَذَرِفَانِ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟! قَالَ: «يَا ابْنَ عَوْفٍ، إِنَّهَا رَحْمَةٌ، إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَإِنَّ الْقَلْبَ يَجْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ»^(١)، إِنَّهُ اسْتِسْلَامٌ لِأَمْرِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَرِضًا بِقَضَائِهِ.

يَدْخُلُ الشَّافِعِيُّ رَحْمَةَ اللَّهِ عَلَى رَجُلٍ يَعِزُّهُ، فَيَقُولُ لَهُ الشَّافِعِيُّ:

إِنَّا نَعِزُّبِكَ لَا أَنَا عَلَى ثِقَةٍ مِنْ الْحَيَاةِ، وَلَكِنْ سُنَّةُ الدِّينِ
فَمَا الْمَعِزِّيُّ بَبَاقٍ بَعْدَ مَيِّتِهِ وَلَا الْمَعِزِّيُّ وَلَوْ عَاشَ إِلَى حِينٍ^(٢)

وَيَقُولُ مَيْمُونُ بْنُ مَهْرَانَ رَحْمَةَ اللَّهِ: «مَنْ لَمْ يَرْضَ بِالْقَضَاءِ فَلَيْسَ لِحُمُقِهِ دَوَاءً»^(٣)، الَّذِي لَا يَرْضَى وَيَتَسَخَّطُ أَحْمَقُ.

وَقَدْ جَاءَ فِي (صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ) مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أُمَّ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا جَاءَتْ تَبْحَثُ عَنْ حَارِثَةَ ابْنِهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هُنَا وَهَنَّا، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ انْجَلَى غِبَارُ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ، وَقَدْ شَارَكَ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ، فَأَخَذَتْ تُقَلِّبُ الْأَجْسَادَ وَالْجُثَثَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «إنا بك لمحزونون»، رقم (١٣٠٣).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم (٩٧١٢).

(٣) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٤/٣٤٦).

الميتة، وتنظرُ في وجوه الأحياء وتبحثُ، تقولُ في نفسها: أين حارثة؟ أين حارثة؟ فإذا بها ترى رسولَ الله ﷺ، فتقولُ: يا رسولَ الله، قد عرفتَ منزلةَ حارثةَ مني، فإن يكنُ في الجنةِ؛ أصبرُ وأحتسبُ، وإن تكنِ الأخرى ترى ما أصنعُ. قال: «وَيْحَكَ، أَوْهَيْلَتِ! أَوْجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؟! إِنَّهَا جَنَّانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ فِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ»^(١).

إنَّه استسَلَّمُ لأمرِ الله، وتسليمٌ لقضائه.

ولرُبِّ نازلةٍ يضيقُ بها الفتى ذرعًا وعندَ الله منها المخرجُ
ضاقتُ فلمَّا استحكمتَ حلقاتها فُرِجَتُ وكنْتُ أظنُّها لا تفرجُ^(٢)

يُروى أن عروةَ بنَ الزبيرِ رَحِمَهُ اللهُ وفَدَّ على الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ، وقد بدأتِ الأكلةُ -مرَضُ يصيبُ الأقدامَ- تأكلُ من رِجلِهِ، فأشارَ عليه مَنْ معه بقطعِها، فقال: أكرهُ أن أقطعَ عضوًا مني. فسكَّتوا عنه وامتنعَ، فبدأتِ الأكلةُ ترتفعُ حتى اقتربتِ من رُكبته، فقالوا له: إن بلغتِ رُكبَتَكَ قتلَتَكَ. فاقتنعَ بقطعِها، ففُطِعتِ وهو مستسلمٌ لقضاءِ الله وقدرِهِ، لم يتأوَّه، ولم يتحسَّرَ، ولم يقل: أنا عروةُ بنُ الزبيرِ ماذا فعلتُ يا ربِّي؟! أنا لا أستحقُّ يا ربِّي!

وإنما استسَلَّمَ لأمرِ الله وبدأَ يحملُ قدمه وينظرُ لها، ولسانُ حالِهِ يقولُ:

أقسمُ ما أدنيتُ بكفِّي لربيَّةٍ ولا حملتني نحوَ فاحشةٍ رجلي

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدرًا، رقم (٣٩٨٢).

(٢) البيتان ينسبان لإبراهيم بن العباس الصولي، انظر: الفرج بعد الشدة للتونخي (٥/١٥)،

ومعجم الأدباء للحموي (١/٨١)، وخزانة الأدب للبغدادي (٦/١١٩).

ولا قاذني سَمْعِي ولا بَصْرِي لها ولا دَلْنِي رأْيِي لها ولا عَقْلِي
وأَعْلَمُ أَنِّي لم تُصِبنِي مُصِيبَةٌ مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا قَدْ أَصَابَتْ فَتَى غَيْرِي^(١)

وهذا هو الذي يدخل السرورَ عليه، فإذا بصارخٍ هناك يصرخُ خارجَ الدارِ، يقولُ: عَظَّمَ اللهُ أجْرَكَ، عَظَّمَ اللهُ أجْرَكَ يا عروءة. قال: ادْخُلْ، إن كنتَ تعزِّينِي في قَدَمِي فقدِ احتسَبْتُها. قال: لا، ولكنِّي أعزِّيك في ابنك محمدٍ دخلَ في أحدِ إصْطَبَلاتِ دوابِّ الوليدِ، فضرَبْتَهُ الدوابُّ بقوائِمِها حتى قتلتَهُ، فتمثَّلَ بقَوْلِ القائلِ:

وكنْتُ إذا الأيَّامُ أَحَدْتَن نَكْبَةً قلتُ شَوَى ما لم يُصِبنِ صَمِيمِي^(٢)

قلتُ: شَوَى. يعني: أهونُ.

ثم قال: اللهُمَّ كان لي بنونٌ سبعةٌ، فأخذتُ واحدًا وأبقيتُ سِتَّةً، وكان لي أربعةٌ أطرافٍ، فأخذتُ واحدةً وأبقيتُ ثلاثةً، اللهُمَّ إن كنتَ قدِ ابتليتَ فقدُ عافيتَ، وإن كنتَ أخذتَ فقدِ أبقيتَ^(٣).

وهكذا شأنُ المسلم، هكذا ربَّانا نبينا ﷺ حينما قال: «انظُرُوا إِلَيَّ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَيَّ مِنْ فَوْقِكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَلَّا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ»^(٤).

(١) الأبيات لمعن بن أوس؛ نسبها له أبو علي القالي في الأمالي (٢/ ٢٣٤)، والعسكري في الصناعتين (ص: ٥٥)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٧٨).

(٢) نسبه الجاحظ في الحيوان (٣/ ٤٠) للهنلي، وهو في ديوان الهذليين (٣/ ٦٠) للبريق الهذلي.

(٣) أخرجه أحمد في الزهد رقم (٢١٧٢)، وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات رقم (١٣٩)، والبيهقي في شعب الإيمان رقم (٩٥٠٥، ٩٥٠٦).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٩/ ٢٩٦٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا لَأَمْرِكَ طَائِعِينَ، وَلِحُكْمِكَ مُسْتَسْلِمِينَ، وَبِقَضَائِكَ رَاضِينَ.
 وحديثنا لا يزال قريباً من الوليد بن عبد الملك، فهذا وفد من بني عيسٍ يَفدُ
 عليه، فلما جلس الوفد بين يدي الوليد، نظر فإذا بشيخٍ ضرييرٍ، فقال للشيخ - وقد
 رأى في وجهه ما يُثيرُ هذا التساؤلَ -: ما شأنك؟

قال: كنت مبصراً، ولم يكن في عيسٍ رجلٌ أكثرَ منِّي مالا وأهلاً وعيلاً،
 فنزلتُ في بطنٍ وادٍ أنا وأهلي وأولادي ومالي، فأصابنا سيلٌ هادرٌ، فجرفَ كلَّ
 شيءٍ ولم يُبقِ لي شيئاً إلا ابناً صغيراً وبعيراً شاردًا، فأصبحتُ لا أرى أثرًا لما كنتُ
 عليه من الخيرِ والنعيمِ إلا هذا الصبيَّ الصغيرَ، وذاك البعيرَ الشاردَ، فتركتُ
 الصبيَّ، وذهبتُ أطرُدُ ذاك البعيرَ الشاردَ، فسمعتُ الصغيرَ يصرخُ، فالتفتُ عليه،
 فإذا بذئبٌ قد أوغلَ رأسه في أحشائه، فقلتُ: ذهبَ الصغيرُ، ولم يبقِ إلا البعيرُ،
 فحاولتُ أن أدركه، فلما بلغته ضربني بقوائمه فهشمَ وجهي وأذهبَ بصري.

قال الوليدُ بنُ عبد الملك: خذوا هذا الشيخَ الضرييرَ واذهبوا به إلى عروة بن
 الزبير؛ ليعلمَ أنَّ في الدنيا مَنْ هو أعظمُ مصيبةً منه.

وهكذا الدنيا! فإتَّها طُبعت على كدرٍ، يقولُ الشاعرُ:

طُبعت على كدرٍ وأنت تريدها صفواً من الأقداء والأكدارِ
 ومكَّلفُ الأيامِ ضدَّ طباعِها مُتطلبٌ في الماءِ جَدوةٌ نارٍ^(١)

وصدق رسولنا ﷺ حينما قال: «عِظْمُ الْجَزَاءِ مَعَ عِظْمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا

(١) البستان لعل بن محمد التهامي، انظر: تاريخ بغداد (٣٨/١٩)، ودمية القصر للباخرزي (١٤٠/١)، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٣/٣٨٠).

أَحَبُّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ»^(١).

هذا وصلُّوا وسلِّموا رحمكم الله على نبيِّ الهدى والرحمة محمد بن عبد الله كما
أمر الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم قائلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ
يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

• • k • •

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم (٢٣٩٦)، وابن ماجه:
كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم (٤٠٣١)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



(٣)

المريضُ مسائلٌ وتوجيهاتٌ

• • k • •

جاءَ في كتابِ (الأدبِ المفردِ) للإمامِ البخاريِّ رَحِمَهُ اللهُ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ، وَلَا مُسْلِمٍ وَلَا مُسْلِمَةٍ، يَمْرُضُ مَرَضًا إِلَّا قَصَّ اللهُ عَنْهُ مِنْ خَطَايَاهُ»^(١).

وجاءَ في (صحيحِ البخاريِّ) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أذى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»^(٢).

وجاءَ في (سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهُ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»^(٣).

مِنْ مَجْمُوعِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ نَنْطَلِقُ نَحْوَ هَذِهِ الْخُطْبَةِ الَّتِي تَأْتِي بِعُنْوَانِ (المريضُ مسائلٌ وتوجيهاتٌ) حَدِيثُنَا عَنِ المَرِيضِ، أَسْأَلُ المَوْلَى الكَرِيمَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

(١) الأدب المفرد (٥٠٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، رقم (٥٦٤١)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه، رقم (٢٥٧٣)، من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم (٢٣٩٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

أَنْ يَشْفِيَ جَمِيعَ مَرْضَانَا وَسَائِرِ مَرْضَى الْمُسْلِمِينَ.

فهذه التوجيهات وهذه المسائل للمريض ولَمَنْ يَتَرَدَّدُ عَلَى الْمَرِيضِ مِنْ مُرَافِقِينَ وَعَوَادِلِهِ:

المسألة الأولى: المريضُ المعذورُ يشاركُ السليمَ المتعافِي في الأجرِ والثوابِ، وذلك بِنَيْتِهِ الصَّالِحَةِ وبعَزْمِهِ الصَّادِقِ، فله من الأجرِ والثوابِ ما يُشاركُ السليمَ المُعافَى فيه إِذَا تَوَقَّفتْ جوارحُه عنِ العملِ، وامتنَعَ عن بعضِ العباداتِ أو قَصَرَ فيها.

ودليل ذلك ما جاء في (صحيح مسلم) من حديثِ جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ، فَقَالَ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وَاذِيًا، إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ، حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ»^(١)؛ أَي: كَانُوا مَعَكُمْ فِي الْأَجْرِ، فَإِنْ كُنْتُمْ فِي غَزَاةٍ، أَوْ فِي مَعْرَكَةٍ، فَهَنَّاكَ أَجْسَادُ تُجْرَحُ، رُؤُوسٌ تَتَطَايَرُ، وَأَشْلَاءٌ وَدِمَاءٌ، وَهُمْ هُنَاكَ فِي بَيْوتِهِمْ حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ، وَمَعَ يَشْتَرِكُونَ مَعَكُمْ فِي الْأَجْرِ.

نَعَمْ، وَكَمْ مِنْ مُسْلِمٍ الْآنَ يَغِيبُ عَن جَمْعِنَا هَذَا، فَهَنَّاكَ فِي مُسْتَشْفَى مَا مَرِيضٌ أَوْ فِي بَيْتِهِ يُعَانِي، هُوَ مَعَنَا الْآنَ فِي هَذَا الْجَامِعِ أَوْ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْجَوَامِعِ! لَهُ الْأَجْرُ عِنْدَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِنَيْتِهِ الصَّالِحَةِ وَعَزْمِهِ الصَّادِقِ.

أَلَمْ يَقُلْ نَبِيُّنَا ﷺ - كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ -: «إِذَا

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر، رقم (١٩١١) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

مَرِضَ الْعَبْدُ، أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»^(١)، فَيُكْتَبُ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَلُ بِهِ فِي حَالِ صِحَّتِهِ؛ إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا.

المسألة الثانية: المريض يُعَذَّرُ فيما لا يَقْدَرُ عليه، ففي سورة الفتح قولُ ربِّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَْعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٧].

وقد جاءَ عمرانُ بنُ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعِمْرَانُ يَقُولُ: كَانَتْ بِي بَوَاسِيرٌ - هَذِهِ رِوَايَةُ الْبُخَارِيِّ، وَفِي رِوَايَةِ أَبِي دَاوُدَ قَالَ: كَانَ بِي الْنَاصُورُ -، فَسَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الصَّلَاةِ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «صَلِّ قَاتِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فِقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»^(٢).

فالمريضُ مَاجُورٌ فِي الْمَسْأَلَةِ الْأُولَى، وَمَعذُورٌ فِي الْمَسْأَلَةِ الثَّانِيَةِ.

المسألة الثالثة: المريضُ حَقُّهُ أَنْ يُعَادَ وَيُوَاسَى وَيُصَبَّرَ، وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمُجْتَمَعُ الْمُسْلِمُ، فَعِنْدَ آلامِهِ عَلَيْهِ أَنْ يَتَكَاتَفَ وَيَتِمَّاسَكَ، فَالْمِحْنُ تَزِيدُهُمْ تَمَّاسِكًا، فَجَعَلَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ حَقِّ الْمَرِيضِ أَنْ يُعَادَ، سِوَاءً فِي بَيْتِهِ، أَوْ فِي الْمُسْتَشْفَى، أَوْ فِي مَكْتَبِهِ، فَالْمَرِيضُ يُعَادُ.

وَتَدَبَّرُوا عِبَادَ اللَّهِ! فِي الْحَدِيثِ الَّذِي جَاءَ فِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ) يَقُولُ نَبِيُّنَا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة، رقم

(٢٩٩٦) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تقصير الصلاة، باب إذا لم يطق قاعدا صلى على جنب، رقم (١١١٧)،

من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يَقُولُ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ أَعُوذُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدَّهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ وَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟»^(١).

انظر إلى هذا الهدى الذي يجعل المجتمع متماسكًا ملتحمًا، معه في حال صحته وغناه وجاهه ومنصبه، ومعه في حال مرضه وفقره وخلوه من جاهه ومنصبه.

وقد جاء عن نبينا ﷺ أنه قال: «فُكُّوا الْعَانِيَّ» أي: الأسير، «وَأَطْعَمُوا الْجَائِعَ، وَعَوَّدُوا الْمَرِيضَ»^(٢)، وفي حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَمَرْنَا النَّبِيَّ ﷺ بِسَبْعٍ وَمَهَانَا عَنْ سَبْعٍ: أَمَرْنَا بِعِيَادَةِ الْمَرِيضِ، وَبَاتِّبَاعِ الْجَنَازَةِ، وَبَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ، وَبِإِجَابَةِ الدَّاعِي، وَبِرَدِّ السَّلَامِ، وَبِنَصْرِ الْمَظْلُومِ، وَبِإِبْرَارِ الْمُقْسِمِ^(٣).

المسألة الرابعة: من عاد مريضًا فليستحضر هذه الأجور المترتبة على عيادته؛ تعود المريض فيتلاحم المجتمع؛ يستفيد المريض من زيارتك، وتستفيد أنت بالأجر العظيم.

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل عيادة المريض، رقم (٢٥٦٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فكك الأسير، رقم (٣٠٤٦)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب الأمر باتباع الجنائز، رقم (١٢٣٩)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء، وخاتم الذهب والحرير على الرجل، وإباحته للنساء، وإباحة العلم ونحوه للرجل ما لم يزد على أربع أصابع، رقم (٢٠٦٦) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

كَمْ أَذْكَرُ لَكُمْ مِنَ الْأَحَادِيثِ، حَتَّى تَنْهَضَ الِهْمَمُ، وَحَتَّى تَصَحَّ النَّيَّةُ؟! وَأَنْتَ تَعُودُ الْمَرِيضَ لَا تَعُدُّهُ لِأَنَّهُ عَادَكَ أَوْ عَادَ مَرِيضَكَ يَوْمًا مَا، لَا، عُدَّ الْمَرِيضَ لِلْأَجْرِ وَالثَّوَابِ، فَمَتَى حَصَلَتِ النَّيَّةُ حَصَلَ الْأَجْرُ، فَفِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ) مِنْ حَدِيثِ ثُوبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا، لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا خُرْفَةُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «جَنَاهَا»^(١) أَي: ثَمَارُهَا.

وَجَاءَ أَيْضًا فِي (صَحِيحِ ابْنِ حِبَانَ) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَزَلْ يَخُوضُ فِي الرَّحْمَةِ حَتَّى يَجْلِسَ، فَإِذَا جَلَسَ غُمِرَ فِيهَا»^(٢).

وَمِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ قَالَ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَعُودُ مَرِيضًا مُمَسِيًّا إِلَّا خَرَجَ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ حَتَّى يُصْبِحَ، وَمَنْ أَتَاهُ مُصْبِحًا خَرَجَ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ حَتَّى يُمَسِيَ»^(٣).

فَاسْتَحْضِرْ هَذَا الْأَمْرَ، فَأَنْتَ تَخْرُجُ بِمُفْرَدِكَ وَتَرْكَبُ سَيَارَتَكَ بِمُفْرَدِكَ، تَلْتَفِتُ يَمَنَةً وَيَسْرَةً لَا تَجِدُ أَحَدًا، لَكِنَّ فِي قَلْبِكَ يَقِينٌ؛ أَنَّ هُنَاكَ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَخْرُجُونَ مَعَكَ مِنْ بَيْتِكَ إِلَى الْمَرِيضِ، يَسْتَغْفِرُونَ لَكَ مِنْ خُرُوجِكَ إِلَى حَالِ الْمَسَاءِ، وَإِذَا خَرَجْتَ فِي مَسَائِكَ يَسْتَغْفِرُونَ لَكَ حَتَّى تُصْبِحَ، أَيُّ نَعِيمٍ هَذَا؟! وَأَيُّ خَيْرٍ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْبِرِّ وَالصَّلَاةِ وَالْأَدَابِ، بَابُ فَضْلِ عِيَادَةِ الْمَرِيضِ، رَقْمٌ (٢٥٦٨)، مِنْ حَدِيثِ ثُوبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) صَحِيحُ ابْنِ حِبَانَ (٢٩٥٦).

(٣) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ فِي فَضْلِ الْعِيَادَةِ عَلَى وَضُوءٍ، رَقْمٌ (٣٠٩٨)، مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذا؟!

المسألة الخامسة: إذا جلست عند المريض فادع له فدعائك مُستجاب، وقد جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما - والحديث رواه أبو داود في (سننه) - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**مَنْ عَادَ مَرِيضًا فَقَالَ عِنْدَ رَأْسِهِ سَبْعَ مَرَارٍ: أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيكَ، إِلَّا عُوفِيَ مِنْ ذَلِكَ الْمَرَضِ**»^(١).

فإذا حضر عند المريض قال عند رأسه سبع مرار: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك. رددها سبعا، يقول صلى الله عليه وسلم: «**إِلَّا عُوفِيَ مِنْ ذَلِكَ الْمَرَضِ**»، سواء عدته في بيته أو في المستشفى أو في أي مكان، وتسمعه هذا الدعاء، خير لك من أن تقول له: والله ما تستحق! أو نحوه من هذه الكلمات التي لا تؤخر ولا تقدم، ولا يستفيد منها المريض، وربما تكون عاقبة هذه الكلمات عليك.

وأتمنى أن أجد هذا الدعاء مكتوباً في جميع غرف مستشفياتنا؛ لذا من كان صاحب قرار أو له يدٌ طولى فترجو أن يكلف أن يكتب هذا الحديث في كل غرفة، فبعض الإخوة ينسى الدعاء؛ فيوضع الدعاء بجانب اسم المريض: «**أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيكَ**». يُذكر بهذا الحديث، وكلما عادته أحد قرأ عليه هذا الحديث؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**إِلَّا عُوفِيَ مِنْ ذَلِكَ الْمَرَضِ**»، هذا خير للمريض وخير للمؤسسة الصحية أيضاً.

وفي الحديث الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجنائز، باب الدعاء للمريض عند العيادة، رقم (٣١٠٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

رجلٍ كبيرٍ في السنٍّ مريضٍ، فأخَذَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يدعو له كعادته، فقال: «لَا بَأْسَ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ» هذا دعاءٌ، فقالَ هذا الرجلُ الكبيرُ: لا، بل هي حمى تُفَوِّرُ، على شيخٍ كبيرٍ، تُزِيرُهُ القُبُورَ. قالَ ﷺ: «فَنَعَمْ إِذَا» قالَ: فهاتِ مِن ليلته^(١).

ونبيُّنا ﷺ يرفعُ مَعنوياته، ويذكرُ له كلماتٍ كُلُّها فآلٌ، لكنَّ بعضَ الناسِ يريدُ المرَضَ، ويمرضُ نفسه بهذا الشؤمِ.

كما أنَّ هناكَ مَنْ يُمثِّلُ دورَ المريضِ، فيبتلى بالمرَضِ، يُمثِّلُ دورَ المريضِ لأنَّه يريدُ أن يحصلَ على تعاطفٍ مِمَّن حوله؛ من زوجٍ أو ولدٍ أو مسؤولٍ، أو يُمثِّلُ دورَ المريضِ خاصَّةً في أيامِ العملِ التي تكونُ بينَ أيامِ إجازاتٍ، تجده يذهبُ يطلبُ له إجازةً مرضيةً، ويدعي المرَضَ، يقالُ له: فَنَعَمْ إِذَا. فيبتلى بالأمراضِ، ويُعاملُ بنقيضِ قصده.

المسألة السادسة: إذا حضرتَ المريضَ فقلْ خيرًا؛ فإنَّ هناكَ مَنْ يقولُ: آمينَ. إذا دخلتَ عندَ المريضِ فقلْ خيرًا؛ ففي حديثِ أم سلمةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - والحديثُ رواه مسلمٌ في (صحيحه) - أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «إِذَا حَضَرْتُمُ الْمَرِيضَ أَوْ الْمَيِّتَ» يعني: المُحْتَضِرَ، «إِذَا حَضَرْتُمُ الْمَرِيضَ أَوْ الْمَيِّتَ فَقُولُوا خَيْرًا؛ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَوْمُنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ»^(٢).

فأنتَ لا ترى الملائكةَ الذين خرجوا معك، ولا ترى الملائكةَ الذين

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦١٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المريض والميت، رقم (٩١٩)، من حديث أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

يَحْضُرُون عِنْدَ الْمَرِيضِ؛ فَالِدَعَاءُ عِنْدَ الْمَرِيضِ مُسْتَجَابٌ؛ فَقُلْ خَيْرًا، وَلَا تَقُلْ: يَجْعَلُ يَوْمِي قَبْلَ يَوْمِكَ، يَجْعَلُ عَيْنِي قَبْلَ عَيْنِكَ، يَجْعَلُهَا فِيَّ وَلَا فِيكَ. فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَقُولُ: آمِينَ. أَوْ تَدْعُو عَلَى كَذَا وَكَذَا مِنَ الْأُمُورِ، فَالْمَلَائِكَةُ تَقُولُ: آمِينَ. وَلَكِنْ قُلْ خَيْرًا، فَادْعُ لِلْمَرِيضِ، وَادْعُ لِنَفْسِكَ بِمَا شِئْتَ خَيْرًا؛ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤْمِنُونَ عَلَى مَا تَقُولُ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ بِأَنَّا نَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، أَنْ تَشْفِيَ مَرْضَانَا وَسَائِرَ مَرْضَى الْمُسْلِمِينَ.

أَخْتَمُ بِهِاتَيْنِ الْمَسْأَلَتَيْنِ:

المسألة الأولى: مَنْ عَادَ مَرِيضًا فَلْيُذَكِّرْهُ بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ

يَرْفَعُ الْمَعْنَوِيَّاتِ، تُذَكِّرُهُ بِالْأَجْرِ الْعَظِيمَةِ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ.

يَدْخُلُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَلَى أُمِّ السَّائِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - وَقِيلَ: أُمُّ الْمُسَيْبِ - فَوَجَدَهَا تَرْتَعِدُ مِنْ الْمَرَضِ وَالْحُمَّى، قَالَ: «مَا لَكَ؟ يَا أُمَّ السَّائِبِ، تُرْفَزِينَ؟!»: أَي: تَرْتَعِدِينَ، قَالَتْ: الْحُمَّى، لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا. قَالَ: «لَا تَسْبِي الْحُمَّى؛ فَإِنَّهَا تُذْهِبُ حَطَايَا بَنِي آدَمَ كَمَا يُذْهِبُ الْكَبِيرُ حَبَثَ الْحَدِيدِ» يُذَكِّرُ الْمَرِيضَ بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ.

والمسألة الثانية: يُذَكِّرُ الْمَرِيضَ بِعَدَمِ الْجَزَعِ وَالتَّسَخُّطِ وَالشُّكُوى إِلَى غَيْرِ اللَّهِ؛

فَإِنَّ هُنَاكَ ثِقَافَةً عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ أَنَّكَ أَكْثَرُ مِنَ الشُّكُوى تَتَعَاَفَ، هَذَا خَطَأٌ، يَقُولُونَ: أَكْثَرُ مِنَ الشُّكُوى تَتَعَاَفَ. هَذَا خَطَأٌ؛ لِهَذَا تَجِدُ بَعْضَ النَّاسِ دَائِمًا يَتَشَكَّى سِوَاءَ مَا كَانَ مَرِيضًا أَوْ مُعَافَى، يُبْتَلَى.

وَلِذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ - الَّذِي رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي (سُنَنِ الْكُبْرَى) - أَنَّ

النبي ﷺ قَالَ: «إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي الْمُؤْمِنَ فَلَمْ يَشْكُنِي إِلَى عُوَادِهِ» تدبروا هذا الحديث العظيم! «إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي الْمُؤْمِنَ فَلَمْ يَشْكُنِي إِلَى عُوَادِهِ» وماذا يحصل؟

١- «أَطْلَقْتُهُ مِنْ أُسَارِي».

٢- «ثُمَّ أَبَدَلْتُهُ لِحْمًا خَيْرًا مِنْ لَحْمِهِ».

٣- «وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ».

٤- «ثُمَّ يُسْتَأْنَفُ الْعَمَلُ» أي: كفرت سيئاته.

كُلُّ ذَلِكَ بِسَبَبِ أَمْرٍ وَاحِدٍ: «لَمْ يَشْكُنِي إِلَى عُوَادِهِ»، إِنَّمَا جَعَلَ الشُّكُورَى لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذا وصلُّوا وسلِّموا على رسولِ الله كما أمرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كتابه الكريم قائلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].



(٤)

فوائد المرض

•• k ••

جاء في كتاب (مدارج السالكين) لابن القيم **رَحْمَةُ اللَّهِ**، عَنْ بَعْضِ الْعَارِفِينَ أَنَّهُ قَالَ: «ارْضَ عَنِ اللَّهِ فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ بِكَ؛ فَإِنَّهُ مَا مَنَعَكَ إِلَّا لِيُعْطِيكَ، وَلَا ابْتِلَاكَ إِلَّا لِيُعَافِيكَ، وَلَا أَمْرَاضَكَ إِلَّا لِيَشْفِيكَ، وَلَا أَمَاتَكَ إِلَّا لِيُحْيِيكَ فَإِيَّاكَ أَنْ تَفَارِقَ الرَّضَا عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ فَتَسْقُطَ مِنْ عَيْنِهِ»^(١).

كُنْتُ تَحَدَّثْتُ وَإِيَّاكُمْ فِي الْخُطْبَةِ السَّابِقَةِ عَنِ الْمَرِيضِ فِي مَسَائِلَ وَتَوَجِيهَاتٍ، وَذَكَرْتُ مَجْمُوعَةً مِنْ هَذِهِ الْمَسَائِلِ، وَحَدِيثُ الْيَوْمِ يَا عِبَادَ اللَّهِ عَنِ الْمَرَضِ، وَعَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ عَنِ فَوَائِدِ الْمَرَضِ.

فَهَذَا الْخَلِيفَةُ الرَّاشِدُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** يَدْخُلُ عَلَى الْأَحْنَفِ يُعْزِيهِ فِي وَلَدِهِ، فَقَالَ: يَا أَحْنَفُ! ذَهَبَ أَبُوكَ وَهُوَ أَصْلُكَ، وَذَهَبَ وَلَدُكَ، وَهُوَ فَرْعُكَ، فَمَا بَقَاؤُكَ بَعْدَ ذَهَابِ الْأَصْلِ وَالْفَرْعِ، يَا أَحْنَفُ! إِنْ صَبَرْتَ جَرَّتِ الْمَقَادِيرُ وَأَنْتَ مَاجُورٌ، وَإِنْ جَزَعْتَ جَرَّتِ الْمَقَادِيرُ وَأَنْتَ مَازُورٌ، يَا أَحْنَفُ! إِنْ صَبَرْتَ صَبَرَ الْأَكْرَامِ وَإِلَّا سَلَوْتَ سَلَوَ الْبُهَائِمِ^(٢). فَإِنَّ الْمَقَادِيرَ تَجْرِي بِإِذْنِ اللَّهِ، مَنْ صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ أُجِرَ، وَمَنْ جَزَعَ فِي ذَلِكَ عَلَيْهِ الْوِزْرُ.

(١) مدارج السالكين (٢/٢٠٨).

(٢) أورده ابن المستوفى في تاريخ إربل (١/٢٥٤-٢٥٥).

وفوائد المرص كثيرة، وسأكتفي بهذه الأربعة:

أولاً: تمحو الذنوب والخطايا.

ثانياً: ينال بها العبد الأجر والثواب.

ثالثاً: ترتفع منزلته عند الله.

رابعاً: سبب رئيس في العودة والإنابة إلى الله.

نعم، المرص يكفر الذنوب، ويمحو الخطايا، ويزيل السيئات.

الفائدة الأولى: محو الذنوب والخطايا.

وإننا نستغرب فلاناً فبين عشية وضحاها، فإذا به ينتكس بعد العافية، يحل به السقم، ونقول: سبحان الله، كان معنا البارحة، كان معنا قبل قليل، ما الذي أصابه؟ فإذا به طريح الفراش شهراً أو أكثر من ذلك أو أقل، واعلم أنه قد يكون ذلك تطهيراً له من ذنب وقع فيه، وقد يكون ذلك تطهيراً له من ظلم وقع فيه، وهذا من الخير أن يعجل له ربه العقوبة في الدنيا.

دليل ذلك: ما جاء في (سنن الترمذي) من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُؤَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**^(١).

وهذا من الخير، فبطبيعة الحال لا يجوز للإنسان أن يقول: يا رب، عجل لي

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم (٢٣٩٦)، من حديث أنس رضي الله عنه.

العقوبة في الدنيا. فإننا قد لا نُطيق، بل الذي يجوزُ ويجبُ أن يسألَ ربَّه العافية والمعافاة في الدنيا والآخرة، لكن من عَجَلتْ له العقوبة فليعلم أنه من الخير.

وفي الحديث الذي يرويه ابنُ حبانَ في (صحيحه) من حديثِ أبي هريرة **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** أن أعرابياً دخلَ على النبي **ﷺ**، فقال له النبي **ﷺ**: **«أَخَذْتَكَ أُمَّ مِلْدَمٍ؟»** قال الأعرابيُّ: وما أُمُّ مِلْدَمٍ؟ قال: **«حَرٌّ يَكُونُ بَيْنَ الْجِلْدِ وَاللَّحْمِ»** يعني: الحمى والسُخونة، قال الأعرابيُّ: وما وَجَدْتُ هذا قطُّ. قال: **«فَهَلْ وَجَدْتَ هذا الصُّدَاعَ؟»** قال الأعرابيُّ: وما الصُّدَاعُ؟ قال: **«عِرْقٌ يَضْرِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي رَأْسِهِ»**، قال الأعرابيُّ: وما وَجَدْتُ هذا قطُّ. فلما ولى الأعرابيُّ قال نبينا **ﷺ**: **«مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا»** ^(١).

إنَّ الإنسانَ بطبيعة الحالِ مُذنبٌ، يقعُ في الذنوبِ والخطايا، وهذه الأمراضُ كغيلةٍ بِمَحْوِ هذه الذنوبِ والسيئاتِ، ولا تفهمُ من هذا الحديثِ -يا عبدَ الله- أنَّ الإنسانَ الذي لا يمرضُ يدخلُ النارَ! فليسَ هذا مفهومَ الحديثِ، وإنَّما مفهومُ الحديثِ أنَّ الأمراضَ سببٌ في محوِ الذنوبِ والخطايا.

ففي (صحيحِ ابنِ حبانَ) أيضاً: أنَّ أبا بكرٍ **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** دخلَ على النبي **ﷺ** وقد قرأ آيةً في سورة النساءِ أَقْضَتْ مَضْجَعَهُ، فيجلسُ بينَ يدي النبي **ﷺ** يقولُ: يا رسولَ الله، كيفَ الصِّلاحُ بعدَ هذه الآيةِ: **﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِي أَلْكَتِبِ مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾** [النساء: ١٢٣]، وكلُّ شيءٍ عمَلنا جُزينا به؟ أي: فذنوبنا وأخطاؤنا وسيئاتنا كثيرةٌ، فقال **ﷺ**: **«غَفَرَ اللهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَسْتَ**

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢٩١٦)، من حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**.

تَمْرُضُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَسْتَ تُصِيبُكَ اللَّأْوَاءُ؟» قَالَ: قَلْتُ: بَلَى. قَالَ: «هُوَ مَا تُجْزُونَ بِهِ»^(١).

فهذا المرُض الذي يصيبك، والحزن الذي يصيبك، والأواء، كل ذلك تطهيرٌ من قدرِ الذنوبِ والمعاصي.

وَلَنَقْرَأُ هَذَا الْحَدِيثَ الْعَظِيمَ الْمَتَاعَ الْمُبَشِّرَ لِكُلِّ مَرِيضٍ يَتُّنُّ بِسَبَبِ الْمَرَضِ، فِيهِ (مُسْنَدُ أَحْمَدَ) وَعِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ فِي (مُعْجَمِهِ) وَعِنْدَ غَيْرِهِمَا مِنْ حَدِيثِ شَدَادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: إِنِّي إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنًا فَحَمِدَنِي عَلَى مَا ابْتَلَيْتُهُ، فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْخَطَايَا» وَالْحَدِيثُ حَسَنُهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي (صَحِيحِ الْجَامِعِ)^(٢).

أي: إنه يقوم من فراشِ المرضِ كيومِ ولدته أمه من الخطايا، فلا يجزع الإنسان المريض بعد هذا الحديث، بل يقول: ربنا ما أكرمك! ما أعظمك! ما أحلمك! ما أرحمك!

الفائدة الثانية: أن ينال بذلك الأجر.

ففي الأولى تخلية، وفي الثانية تحلية، فالتخلية من الذنوب، والتحلية بالأجر، يقول نبينا ﷺ - والحديث عند الترمذي في (سننه) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما -: «يُودُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ» يعني: الذين عافاهم الله في الدنيا «يَوْمَ

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢٩١٠)، من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٤/١٢٣)، والطبراني في المعجم الأوسط (٤٧٠٩)، وانظر: صحيح الجامع (٤٣٠٠).

الْقِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلَاءِ الثَّوَابَ، لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيضِ^(١)، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَرُونَ الْأَرْزَاقَ تُوزَعُ فَيَنْظُرُونَ إِلَى أَهْلِ الْبَلَاءِ وَأَرْزَاقِهِمْ تُوزَعُ، فَيَتَمَنَّوْنَ أَنْ لَوْ قُرِضَتْ جُلُودُهُمْ بِالْمَقَارِيضِ فِي الدُّنْيَا طَلَبًا لِذَلِكَ الثَّوَابِ وَتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ.

ويحكى لنا ابن القيم **رَحِمَهُ اللهُ** في كتابه الرائع (مدارج السالكين) عن امرأة من العابدات تعثرت فانقطعت إصبعها فضحكك، فقال لها بعض من معها: أتضحكين وقد انقطعت أصبعك؟ قالت: أخطبك على قدر عقلك، حلاوة أجراها أنستني مرارة ذكرها^(٢). فهي تستحضر الأجر ولا تراه، لكن تجد ذلك في قلبها وقد أنستها مرارة ذكرها.

الفائدة الثالثة: ترتفع المنزلة عند الله تعالى.

فبعد تكفير الذنوب، وحصول الأجر تبدأ المنزلة ترتفع عند الله، فنرى بعض الأحيان فلاناً قبل وفاته بسنة شهر، أو سبعة شهور يمرض، ويقول الواحد منا: هذا رجل كبير في السن في شدة المرض، ويبتلى بالمرض، وتبدأ عملية تتلوها عملية، وإذا دخلت عليه في المستشفى فإذا بهذه الأنابيب قد علقت به، ويمر عليه شهر أو شهران، وأنت تتعجب من ذلك!

ولا غرابة في ذلك فقد جاء في (سنن أبي داود) من حديث محمد بن خالد عن أبيه عن جدّه **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ **ﷺ** يَقُولُ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا

(١) أخرجه الترمذي: أبواب الزهد، رقم (٢٤٠٢)، من حديث جابر بن عبد الله **رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا**.

(٢) مدارج السالكين (١٦٧/٢).

سَبَقَتْ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَنْزِلَةٌ» اللهُ أَرَادَ لَهُ تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ الْعَظِيمَةَ هُنَاكَ، «لَمْ يَبْلُغْهَا بِعَمَلِهِ،
ابْتِلَاءُ اللَّهِ فِي جَسَدِهِ، أَوْ فِي مَالِهِ أَوْ فِي وَلَدِهِ، ثُمَّ صَبَّرَهُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يُبَلِّغَهُ الْمَنْزِلَةَ
الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى»^(١).

فهذا المرضُ يرفعُه ويُعلي قدرَه عندَ اللهُ حَتَّى يَصِلَ إِلَى الْمَنْزِلَةِ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ
عِنْدَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فالأمراضُ إِذْنٌ: تُكْفِّرُ الذنوبَ، وينالُ المريضُ بِهَا الأجرَ،
وترتفعُ منزلتُه عندَ اللهُ.

اللَّهُمَّ عَافِنَا فِي أَجْسَادِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي أَمْوَالِنَا، وَأَصْلِحْ لَنَا أَوْلَادِنَا.

الفائدة الرابعة: المرضُ سببٌ رئيسٌ للعودةِ إلى اللهُ.

فَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ كَانَ شَارِدًا غَافِلًا مَعْرِضًا عَنِ اللهِ، فَإِذَا بِالْمَرَضِ يَكُونُ سَبَبًا
رئيسًا فِي عودتِه وَإِنَابتِه إِلَى اللهِ، إِذْ إِنَّهُ يُشْعِرُهُ بِضَعْفِهِ وَبِانْكِسَارِهِ، كَمَا يُشْعِرُهُ
بِفَضْلِ اللهِ عَلَيْهِ.

ولذا فَإِنَّ عَلَى الْعَبْدِ الْمَرِيضِ أَنْ يُسْمَعَ رَبَّهُ صَوْتَهُ، يَقُولُ: يَا اللهُ؛ يَقُولُ ابْنُ
الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ (صِفَةِ الصَّفْوَةِ): قِيلَ: إِنَّ اللهَ لَيَسْتَلِي الْعَبْدَ وَهُوَ يُحِبُّهُ؛
لَيَسْمَعَ صَوْتَهُ^(٢). تَدَبَّرْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الرَّائِعَةَ، إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُحِبُّ أَنْ يَسْمَعَ
صَوْتِي وَصَوْتَكَ وَنَحْنُ نَقُولُ: يَا اللهُ. وَنَحْنُ فِي انْكِسَارٍ وَفِي ضَعْفٍ، وَفِي حَاجَةٍ
وَعَوِزٍ نَقُولُ: يَا اللهُ.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجنائز، باب الأمراض المكفرة للذنوب، رقم (٣٠٩٠)، من حديث
محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) صفة الصفاة (٢/٤١)، وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٤/١٨٠).

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهَ لَهُ بَعْدَ سَمَاعِ صَوْتِهِ فَلْيُسْمِعْ رَبَّهُ صَوْتَهُ فِي حَالِ الرِّخَاءِ قَبْلَ الشَّدَةِ، وَلْيَسْمَعْ رَبُّكَ صَوْتَكَ فِي الرِّخَاءِ قَبْلَ الشَّدَةِ.

وَتَدَبَّرَ حَالَ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ فَهُوَ فِي حَالِ شِدَّةٍ، وَمَعَ ذَلِكَ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ، فَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهِ: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصفات: ١٤٣]، يَعْنِي: أَنَّهُ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ، ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصفات: ١٤٣].

وَنَحْنُ نَقْرَأُ فِي (سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَوْلَ نَبِيِّنَا ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكَرْبِ، فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرِّخَاءِ»^(١).

وَلَا يَكُونُ كَهَذَا الَّذِي عَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، حِينَمَا قَالَ سُبْحَانَهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوَ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

هَذَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا - رَحِمَكُمُ اللَّهُ - عَلَى رَسُولِ اللَّهِ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ قَائِلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].



(١) أخرجه الترمذي: أبواب الدعوات، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، رقم (٣٣٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

K

K

(٥)

مراقبة الله في السر

•• k ••

جاء في كتاب (ذمّ الهوى) لابن الجوزي **رَحْمَةُ اللَّهِ** أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ: خَرَجْتُ ذَاتَ لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ، فَإِذَا أَنَا بِجَارِيَةٍ كَأَنَّهَا عَلِمٌ - فِي حُسْنِهَا وَجَمَالِهَا وَقَوَامِهَا - فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَقَالَتْ: وَيْلَكَ! أَمَا لَكَ زَاجِرٌ مِنْ عَقْلِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَكَ نَاهٍ مِنْ دِينٍ؟ فَأَرَادَ أَنْ يَحْرِّكَ مَشَاعِرَهَا وَيَسْتَعِظَفَهَا فَقَالَ: إِيهًا، وَاللَّهِ مَا يَرَانَا إِلَّا هَذِهِ الْكَوَاكِبُ. يُشِيرُ إِلَى هَذِهِ النُّجُومِ الشَّاهِدَةِ عَلَى فِعْلِهِ، فَإِذَا بِهَا تَقُولُ: وَأَيْنَ مُكُوبُهَا؟! ^(١). فَأَيْنَ خَالِقُ هَذِهِ الْكَوَاكِبِ الَّذِي زَيَّنَهَا وَجَعَلَهَا فِي السَّمَاءِ زِينَةً؟!

إِنَّهَا رَسُولَةٌ لِي وَلَكُمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ، نَحْتَاجُهَا فِي كُلِّ حِينٍ أَنْ نُرَدِّدَ وَنَقُولَ: فَأَيْنَ مُكُوبُهَا؟ إِذَا تَحَرَّكَتْ هَذِهِ النُّفُوسُ غَافِلَةً عَنِ اللَّهِ لَتَرْتَكِبَ مَعَاصِيَ اللَّهِ، وَإِذَا تَحَرَّكَتْ هَذِهِ الْجَوَارِحُ لَتَبْطِشَ، لَتَرْتَكِبَ الْحَرَامَ، وَإِذَا تَحَرَّكَتِ الْيَدُ لَتَسْرِقَ، وَهَذَا الْفَرْجُ لَيَرْتَكِبَ الْحَرَامَ، وَهَذِهِ النَّفْسُ لَتُخْطِطَ لِلْآثَامِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَتَرَادَّ فِي سَمْعِهَا: أَيْنَ اللَّهُ؟!

إِنَّهَا رَسُولَةٌ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ تَحْتَ الْأَغْطِيَةِ وَيُبَارِزُونَ اللَّهَ تَحْتَهَا، إِنَّهَا رَسُولَةٌ إِلَى أَوْلِيكَ الَّذِينَ جَعَلُوا مِنْ نَظْرِ اللَّهِ أَهْوَى النَّظْرِ.

وَإِذَا مَا خَلَوْتَ بِرَبِيَّةٍ فِي ظُلْمَةٍ وَالنَّفْسُ دَاعِيَةٌ إِلَى الطُّغْيَانِ

(١) أخرجه ابن الجوزي في ذم الهوى (ص ٢٧٢).

فاسْتَحْ مِنْ نَظْرِ الْإِلَهِ وَقُلْ لَهَا إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الظَّلامَ يراني^(١)

إنَّها رسالةٌ لأولئك الذين يَتَصَنَّعون الهدى والتقى والعفاف، فإذا خلوا بمحارم الله انتهكوها، أولئك الذين يُمثِّلون الصلاح والهداية، يُقال لهم: فأين الله؟ فأين مَكُوبُها؟

إنَّها رسالةٌ إلى العبدِ الَّذي يَسْتَحِي من العبدِ مثله، ولا يَسْتَحِي من المعبودِ سبحانه.

إنَّها رسالةٌ إلى الذي يراقبُ عينَ الرقيبِ، ويخافُ أن يأتيَ اسمه في ديوانِ الرقابةِ، ولا يَلْتَفِتُ إلى ديوانِ أعظمَ وأخطرَ، ولا تَصْلُحُ معه الشفاعاتُ.

إنَّها رسالةٌ إلى مَنْ غفلَ عن قولِ الحقِّ سبحانه: ﴿يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١٠٨]، من والده، يَسْتَحِي ولا يَفْعَلُ الحرامَ، ولا يَرْفَعُ سيجارته، ويَسْتَحِي من أستاذه، ويَسْتَحِي من مسؤوله، ويَسْتَحِي من زوجته، ويَسْتَحِي من فلانٍ.

﴿يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٨]، والدُّك يَغِيبُ عنكَ، وزوجتكَ قد تَنَامُ، وفلانُ المسؤولُ الَّذي معكَ قد تَغْفُلُ عنه، ﴿يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨].

يقولُ سبحانه في سورة الشعراء: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٢١٧) الَّذِي يَرِنَكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿[الشعراء: ٢١٧-٢٢٠].

(١) نونية القحطاني (ص: ٢٥).

إِذَا مَا خَلَوْتُ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبٌ
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ يَغْفُلُ سَاعَةً وَلَا أَنْ مَا تُخْفِي عَلَيْهِ يَغِيبُ^(١)

وقد جاء في (سُنن ابن ماجه) في حديثِ ثوبانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:
«لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا»
يعني: ليست فقط حسنات بل حسنات مميزة عظيمة جدًا، فالذي رأى منكم
جبال تِهامة يعلم أنها عظيمة جدًا، قال: «فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ هَبَاءً مَشُورًا» تذهب هذه
الحسنات كلها ولا يبقى منها شيء.

نحن نتكلم هنا عن رجلٍ صالحٍ عنده حسنات! فانتفض ثوبان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،
وقال: يا رسول الله، صفهم لنا، جلهم لنا، أن نكون منهم ونحن لا نعلم، قال:
«أَمَّا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ» فتروهم في
المساجد، وربما رأيتموهم على المنابر، ورأيتموهم يصومون معكم، ويطوفون
بالبيت الحرام، ويقرؤون القرآن معكم، يتسابقون إلى الصالحات، تروهم،
«وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا»^(٢)، إذا تيسر له أن يرتكب الحرام
في غيبة عين الرقيب ارتكب، وإذا تيسر له أن يسرق يسرق، وإذا تيسر له أن يزني
يزني، وإذا تيسر له أن ينظر نظرًا، يظن أن أحدًا لا يراه، لكن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يراه
ومطلع عليه.

فمثلًا: تنام زوجته بجانبه وهو يحمل هذا الهاتف المحمول فينظر فيه إلى

(١) البينان لأبي العتاهية، انظر: ديوانه (ص ٣٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، رقم (٤٢٤٥) من حديث ثوبان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الحرام، هي لا تدري، والله تعالى يدري! فخاف من نظرها، ولم يلتفت إلى نظر الله، يُداري الهاتف عنها ولا يُداريه عن الله، يمحوه قبل أن تراه زوجته ولا يستغفر منه، ويمحوه قبل أن يكشف عنه الله؛ لأنه جعل من نظر الله أهون الناظرين إليه.

ورد في كتاب (التبصرة) لابن الجوزي **رَحِمَهُ اللهُ** أن ابن عمر **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** خرج مع أصحاب له قريباً من المدينة، فلما جاء موعد الغداء وضعوا سفرة، ووضعوا الطعام عليها، فمر بهم راعي غنم مغموراً مجهولاً لا أحد يعرفه، فقال له ابن عمر **رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا** - وكان من عادته ألا يأكل بمفرده، يحب أن يأكل مع الناس -، قال: يا راعي الغنم، اقترب كل من سافرنا. قال: لا، أنا صائم، استغرب ابن عمر، قال: صائم في هذا اليوم الشديد حره بين هذه الشعاب، خلف هذه الأغنام، وسط هذه الجبال. يعني: ليس هناك مجال للتصنع والتمثيل، ولا يحتاج أن يمثل أنه صائم، فلا أحد معه إلا هذه الشعاب، وهذه الأغنام، وهذه الأودية، وهذه الجبال، قال: في وسط هذا؟! قال الأعرابي بفطرته: أبادر أيامي الخالية. قال ابن عمر **رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا**: بعنا شاة من هذه الشياه، نأكل منها ونجعل لك فطراً تفرط عليه إذا جاء المغرب. قال: إنها ليست لي، إنها لمولاي. قال: قل له: أكلها الذئب - وينتهي الموضوع - فقال الأعرابي كما قالت الجارية: فأين الله؟! وراح، وقطع الحديث. فلا مجال للنقاش، ذهب الأعرابي وهو يردد: فأين الله؟! فلم يزل ابن عمر يقول: فأين الله؟! فأين الله؟! حتى رفعت السفرة وهو يقول: فأين الله؟! حتى قدم المدينة وهو يقول: فأين الله؟! فلما دخل المدينة قال: أين سيد هذا الغلام؟ قالوا: هذا هو، فاشترأه، فأعتقه، واشترى الغنم ووهبها له، وقال: لقد قال كلمة أنقذته في الدنيا، وأرجو الله أن تنقذه في الآخرة. أعتقته في الدنيا وأرجو الله أن تعتقه في الآخرة^(١).

(١) أخرجه ابن الجوزي في التبصرة (٢/٢٥٠).

نعم، لا بُدَّ على العبد المسلم أن يحيا بهذا الضمير الذي يُردُّ على الدوام: فأين الله؟! فأين مُكوبُها؟! ولما جاء سعيد بن يزيد الأزدي رضي الله عنه - والحديث عند الطبراني في (معجمه) - إلى رسول الله ﷺ قال: يا رسول الله، أوصني، قال ﷺ: «أوصيك أن تستحيي من الله عز وجل كما تستحيي من الرجل الصالح من قومك»^(١) في هذا الحديث - والله - النجاة! فتنجو على الدوام؛ لأنك تستشعر أن الله ينظر إليك.

يقول سبحانه: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

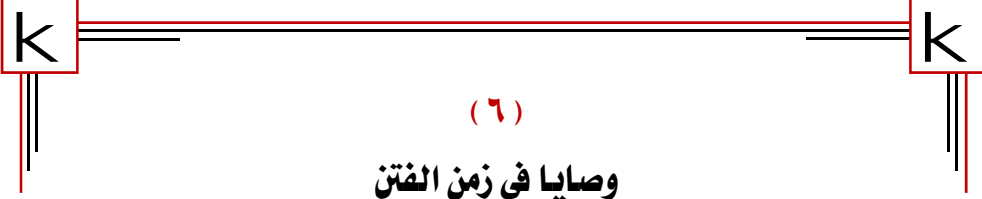
يقول سبحانه: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾^(٨) عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ^(٩) سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ٨-١٠].
 تَرَجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَسْبِ^(٢)

هذا وصلوا وسلّموا - رحمكم الله - على رسول الله كما أمر الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

•• k ••

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٦/ ٦٩ رقم ٥٥٣٩).

(٢) ديوان أبي العتاهية (ص: ٢٣٠).



(٦)

وصايا في زمن الفتن

•• k ••

كَمْ نَحْتَاجُ فِي زَمَنِ الْفِتَنِ إِلَى الْحُكَمَاءِ وَإِلَى الْعُقَلَاءِ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ بِيَدِ الْأُمَّةِ؛
فَلنَسْتَمِعْ إِلَى وَصَايَاهُمْ:

جاءَ عن أبي بُرْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا واقِفٌ بالسوقِ في إِمَارَةِ زِيَادٍ، إِذْ
ضَرَبْتُ بِإِحْدَى يَدَيَّ عَلَى الْأُخْرَى تَعَجُّبًا، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ - قَدْ كَانَتْ
لِوَالِدِهِ صُحْبَةٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ -: مِمَّا تَعَجَّبُ يَا أبا بُرْدَةَ؟ قَالَ: قُلْتُ: أَعْجَبُ مِنْ
قَوْمٍ دِينُهُمْ واحِدٌ، وَنَبِيُّهُمْ واحِدٌ، وَدَعْوَتُهُمْ واحِدَةٌ، وَحُجَّتُهُمْ واحِدٌ، وَغَزْوَتُهُمْ
واحِدَةٌ، يَسْتَحِلُّ بَعْضُهُمْ قَتْلَ بَعْضٍ! قَالَ: فلا تَعَجَّبْ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ وَالِدِي
أَخْبَرَنِي أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أُمَّتِي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ، لَيْسَ عَلَيْهَا فِي
الْآخِرَةِ حِسَابٌ وَلَا عَذَابٌ، إِنَّمَا عَذَابُهَا فِي الْقَتْلِ وَالزَّلَازِلِ وَالْفِتَنِ»^(١).

وَصَدَقَ الْمَوْلَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وهنا يتساءل المرء حائرًا: كيف يقتل بعضنا بعضًا؟! فأبان الصادق
المصدوق - صلوات ربي وسلامه عليه - كيف يقتل بعضنا بعضًا فيما يلي من
أحاديث:

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤/ ٢٥٤).

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - والحديثُ رواه نعيمٌ في (الفتنِ) من حديثِ حُذيفةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: «تَكُونُ فِتْنٌ تَعْرُجُ فِيهَا عُقُولُ الرِّجَالِ حَتَّى مَا تَكَادُ تَرَى رَجُلًا عَاقِلًا»، فيوجدُ رجالٌ، ولكن ليس لهم عقولٌ، «تَعْرُجُ فِيهَا» أي: ترتفعُ فيها عقولُ الرجالِ «حَتَّى مَا تَكَادُ تَرَى رَجُلًا عَاقِلًا»^(١).

وجاءَ في حديثِ آخرَ - رواه أحمدُ وابنُ ماجهَ وابنُ حبانَ وغيرُهمُ بألفاظٍ مُختلفةٍ -: عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ الْمَرْجُ» قالوا: وما المَرْجُ؟ قال: «الْقَتْلُ» قالوا: أَكثَرُ مِمَّا نَقْتُلُ؟! قال: «لَيْسَ بِقَتْلِكُمْ الْمَشْرِكِينَ، وَلَكِنْ بِقَتْلِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا».

وجاءَ في روايةِ ابنِ ماجهَ: «حَتَّى يَقْتُلَ الرَّجُلُ جَارَهُ، وَابْنَ عَمِّهِ، وَذَا قَرَابَتِهِ»، قال الصحابةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: ومعنا عقولُنا يومئذٍ؟! قال ﷺ: «إِنَّهُ لَتُنزَعُ عُقُولُ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَيُخْلَفُ لَهَا هَبَاءٌ مِنَ النَّاسِ» يحسبُ أكثرُهم أتهمَ على شيءٍ وليسوا على شيءٍ^(٢).

نعم، تَتَغَيَّرُ العُقُولُ في زمنِ الفِتْنَةِ، فتجدُ هذه الحيرةَ؛ لأنَّ العُقُولَ تُنزَعُ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

أما الوصايا في زمنِ الفِتْنِ فهي لي ولكم - معاشِرَ الأَجِبَةِ-؛ وصايا لكلِّ حاكمٍ ومُحكومٍ، وصايا للرئيسِ والمُرؤوسِ، وصايا لكلِّ صاحبِ قرارٍ، وصايا ما جئتُ بها من نَفْسِي، إنما اجتهدتُ في جمعها من كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسوله ﷺ:

(١) الفتن لنعيم بن حماد (١٠٧) من حديث حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٩١)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب الثبوت في الفتن، رقم (٣٩٥٩)، وابن

حبان (٦٧١٠)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الوصية الأولى: لا يُخْرِجُ الأُمَّةَ فِي زَمَنِ الْفِتَنِ مِنَ الْفِتَنِ إِلَّا الرَّجُوعُ إِلَى اللَّهِ وَالْعُودَةُ إِلَيْهِ.

فلا يُمكنُ أن تَخْرَجَ أُمَّةٌ مِنْ فِتْنَةٍ وَهِيَ بَعِيدَةٌ عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، بَعِيدَةٌ عَنِ شَرْعِهِ، بَعِيدَةٌ عَنِ مَنَهْجِهِ، وَلَا بُدَّ أَنْ تَعُودَ الْأَفْرَادُ وَالْجَمَاعَاتُ إِلَى اللَّهِ، فَتَعُودَ الْمُؤَسَّسَاتُ كُلُّهَا بِدَسَاتِيرِهَا وَتَشْرِيعَاتِهَا وَمَنَاهِجِهَا؛ تَعُودُ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عُودَةً صَادِقَةً لَا شَكْلِيَّةً، وَإِلَّا فَلَنْ تُنْزِعَ الْفِتْنُ بَل تَزِيدُ.

يقولُ نَبِيُّنا ﷺ -والحديثُ رواه معاذٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو عندَ الطبرانيِّ في (مُعْجَمِهِ)-: «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ» قَالَ الصَّحَابَةُ: فَكَيْفَ لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ وَكَيْفَ نَصْنَعُ؟ قَالَ: «تَرْجِعُونَ إِلَى أَمْرِكُمُ الْأَوَّلِ»^(١). فليسَ إِلَّا هَذَا الْبَابُ، نَعَمْ نَرَى مَخَارِجَ مُتَعَدِّدَةً لَكِنْ كُلُّ هَذِهِ الْمَخَارِجِ تَعُودُ بِنَا إِلَى الْفِتْنَةِ، إِلَّا مَخْرَجًا وَاحِدًا وَهُوَ: «تَرْجِعُونَ إِلَى أَمْرِكُمُ الْأَوَّلِ».

وَقَدْ يَتَسَاءَلُ مُتَسَاءِلٌ: مَا هُوَ الْأَمْرُ الْأَوَّلُ؟

فَأَقُولُ: بَيْنَهُ لَنَا الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ﷺ فِيمَا جَاءَ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعَيْنَةِ» نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الرَّبَا، «وَأَخَذْتُمْ أذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيْتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»^(٢) الْأَمْرُ الْأَوَّلُ هُوَ الدِّينُ، فَلَا بُدَّ مِنْ عُودَةٍ صَادِقَةٍ إِلَى اللَّهِ.

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣/ ٢٤٩ رقم ٣٣٠٧)، والأوسط (٨٦٧٩).

(٢) أخرجه أبو داود: أبواب الإجارة، باب في النهي عن العينة، رقم (٣٤٦٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

نعم، نريدها مسيرات، لكنّها مسيراتٌ إلى الله، نريدها مسيراتٍ، لكن نريدها إلى المساجد، اسألوا المساجد أين الناس! نريدها مسيراتٍ لكنّها إلى الحلال.

اعلم أيها المبارك، أنّ هذا المسكين البعيد الذي لا يُصليّ هو السبب في الفتن، والذي يأكل الربا سببٌ في الفتن، والذي يرتكب الفواحش والزنا سببٌ في الفتن، لا بُدّ من عودةٍ إلى الله صادقة، الكلام لا يُجدي، ولا بدّ من فعلٍ.

الوصية الثانية: لا بُدّ من اللجوء إلى الله.

فلا بُدّ خلال هذه المسيرات أن نصرخ لكن نقول: يا الله. فقط، لا لفلان، ولا يا فلان، لا إلى الهيئات ولا إلى المؤسسات.

والله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** ربّنا على ذلك، ففي سورة الأنعام وغيرها، يقول **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٥].**

ويقول حذيفة - **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** - حينما قال: تكونُ فتنةٌ لا يُنجي منها إلاّ دعاءُ كدعاءِ الغريق. رواه ابنُ أبي شيبة^(١)، فحذيفة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** لا يأتي بشيءٍ من كَيْسِهِ وَجِيهِهِ، فتكونُ فتنةٌ لا يُنجي منها إلاّ دعاءُ كدعاءِ الغريق. أَرَأَيْتُمُ الغريقُ كيفُ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧١٤٥).

يصرُخُ يقولُ: يا اللهُ، يتجرّدُ من كلِّ شيءٍ! كذلك لا يُخرِجنا من الفتنَةِ إِلَّا أن نتجرّدَ من حولنا وقوتنا ونقول: يا اللهُ، يا اللهُ. نقولها صادقين، لا نقولها أمام عدسات التصوير، بل نقولها في ظلمة الليل البهيم كما نقولها في وضوح النهار، لا نقولها ليُصَفَّقَ لنا ويُصَفَّرَ لنا، بل نقولها صادقين، نقول: يا اللهُ.

يقول الحسن **رَحِمَهُ اللهُ** حينما قال لمن كان في زمنه: إن الحجاج عذاب الله، فلا تدفعوا عذاب الله بأيديكم، ولكن عليكم بالاستكانة والتضرع؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْضَعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦] ^(١).

يُشير إليهم بالجوء إلى الله، لا إلى مهرجانات غنائية، ونحن نريد أن نُخرج أنفسنا من هذه الفتنَةِ بالغناء، وإحضار المطربين والمطربات، والمهرجانات الغنائية، وكأن شيئاً لم يكن، فهذا بُعدٌ عن دين الله ومع ذلك نرجو النجاة؟!!

تَرْجُو النِّجَاةَ وَلَمْ تَسَلِّكَ مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَسْبِ ^(٢)

الوصية الثالثة: في زمن الفتن لا بُدَّ من العمل، وترك الاشتغال بالجدل.

وكما أقول: هذه الوصايا لي ولك، هي للمتكلّم والسامع، ففي زمن الفتن لا بُدَّ من العمل، أمّا الجدل فلا يَنْفَعُ، وانظر إلى مجالسنا ومكاتبنا وطرفاتنا ومواقع التواصل، تجدها كلها جدل، فأصبحنا كلنا نحلل ونتقد ونتنبأ ونتصور، في جدل ليس فيه عمل، وتمرُّ السنّة والسنن وأكثر من ذلك ولا عمل، فلا يَنْفَعُ هذا

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١٦٤/٧) بمعناه، وذكره ابن تيمية في منهاج السنة ٥٢٩/٤ بلفظه.

(٢) البيت لأبي العتاهية، انظر: ديوانه (ص ٢٣٠).

الجدل.

وقد جاء في (سنن الدارمي) أن سليمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أوصى ابنه قائلاً: دع المرء فإن نفعه قليل، وهو يهيج العداوة بين الإخوان^(١)، ويقول الأوزاعي رَحِمَهُ اللهُ: بلغني أن الله عَزَّجَلَّ إذا أرادَ بقومِ شرًّا ألزَمَهُمُ الجدلَ ومنَعَهُمُ العملَ^(٢). ففي كلِّ مجلسٍ تجدُّ المحللَّ والمنتقدَّ والمنتبئَّ والمتصوِّرَ، ولا تجدُ العاملَ إلاَّ عندَ القليلِ ممَّنْ رَحِمَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

الوصية الرابعة: في زمنِ الفتنِ احذروا الشائعاتِ.

إنَّ خيرَ أرضٍ للشائعاتِ أرضُ الفتنِ، فلا تنشرْ كلَّ ما تسمعُ، حتَّى وإنْ غلبَ على ظنِّك أنَّه صحيحٌ، فلا تنشره إلاَّ أنْ تكونَ هناكَ مصلحةً دينيةً ودنيويةً لنشره، وإلاَّ فلا تنشره.

والمصيبةُ أنَّ هناكَ مَنْ ينشرُ كلَّ شيءٍ يأتيه، وربَّما أفسدَ الكثيرَ بنشره، وهو يظنُّ أنه إذا كتبَ في أولِ السطرِ: وصلني والعلمُ عندَ الله. ثم يضعُ ما يريدُ، وهذا لا يجوزُ له أنْ ينشرَ كلَّ ما يصلُّه، فنبينا ﷺ قد قالَ لنا - كما في (صحيح مسلم) -: «كفى بالمرءِ كذباً أنْ يُحدِّثَ بكلِّ ما سمعَ»^(٣)، نقولُ للمتعمِّجِّ بالنشر: أينَ مصدرُك؟ قال: يقولون، قال: زعموا، ونبينا ﷺ يقولُ في حديثِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عندَ أبي داودَ قال: «بئسَ مطيِّبُ الرَّجُلِ زَعَمُوا»^(٤).

(١) أخرجه الدارمي في سننه (٣١١).

(٢) أخرجه اللالكائي في شرح اعتقاد أصول أهل السنة والجماعة (٢٩٦).

(٣) أخرجه مسلم في مقدمة «صحيحه» (١٠ / ١).

(٤) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في قول الرجل: زعموا، رقم (٤٩٧٢).

بَلْ لَعَلَّهُ يُرَبِّكُ أَجْهَزةَ الأَمْنِ وَالتَّحْقِيقَاتِ فِي بَعْضِ القَضَايَا بِشَرِكٍ لِبَعْضِ الشَّائِعَاتِ، بَلْ بِشَرِكٍ لِبَعْضِ الحَقَائِقِ أَيضًا قَدْ تُرَبِّكُ أَجْهَزةَ الأَمْنِ، وَهَذَا لَا يَجُوزُ، وَلِمَاذَا الاِشْتِغَالُ بِذَلِكَ أَصْلًا؟!

فانظُرْ -يا عبدَ اللهِ- إلى مَنْ حَوْلَكَ، انظُرْ لقراءَتِهِم للقرآنِ وَذِكْرِهِم لله في زمنِ الفِتنِ أَكْثَرَ أو ما يُتَابَعُونَهُ من تَحْلِيلَاتٍ؟!

الوصيةُ الخامسةُ: الحذرُ من لغةِ التخذيلِ والإرجافِ.

وما أَكْثَرَ هَؤُلاءِ المُخْذِلينَ المُرجِفينَ اليائسينَ! الَّذِينَ يَبْثُونُ الإِرجافَ وَالتخذيلَ وَاليأسَ في الأُمَّةِ -من حيثُ لَا يَعْلَمُونَ- فَهَمُّ فِي هَذَا المَجْلِسِ يَتَكَلَّمُونَ عَن قوَّةِ الحِصْمِ وَضعفِنا، وَفي ذاكِ المَجْلِسِ يَتَكَلَّمُونَ عَن تَخْطِيطِ الحِصْمِ وَفَوْضُوئِنا، وَفي ذَلِكَ المَجْلِسِ يَتَكَلَّمُونَ عَن اجْتِمَاعِ كَلِمَةِ الحِصْمِ وَفُرْقَتِنا، وَكُلُّ ذَلِكَ لَيْسَ إِلاَّ تَخْذِيلٌ وَتَحْذِيلٌ.

وَالتخذيلُ يُمارِسُهُ أَيضًا الأَعْدَاءُ المُنَافِقُونَ المُنْذَسُونَ بَيْنَنا، يَقُولُ اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مَنَ اللهُ وَفَضْلِ لَمْ يَمَسَّسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ.﴾ أَي: يُخَوِّفُكُمْ بأَوْلِيائِهِ؛ ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٥].

وَفي (صحيحِ مُسْلِمٍ) مِن حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ» أو «فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ»، فبَعْضُ النَّاسِ تَسْمَعُ مِنْهَا عِبْرَاتِ التَّخْذِيلِ بِلِغَةِ تَأْيِيسٍ، وَهَذَا لَا يَجُوزُ، لَكِنَّ عَلَى العَبْدِ أَنْ يَحَارِبَ

هؤلاء، وأن يكون إيجابياً في التعامل في الأحداث.

الوصية السادسة - وأختم بها: في زمن الفتن وهذا الهرج، فلنحذر الفوضى والصخب، وإزعاج أجهزة الأمن، فهذه الفوضى تخالف المنهج الذي جاء به الله ورسوله ﷺ.

ففي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «**إِنَّهَا سَتَكُونُ أُمُورٌ مُّشْتَبِهَاتٌ فَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَدَّةِ، وَأَنْ تَكُونَ تَابِعًا فِي الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَكُونَ رَأْسًا فِي الشَّرِّ**»^(١)، انظر إلى هذا النهج؛ أن تكون تابعاً في الخير خيرٌ من أن تكون رأساً في الشر.

والسبب أن في زمن الفتن، وفي حال الفوضى يتصدر الأشرار، تتصدر التُّحوت وهم القوارض والأفزام، إذ يجدونها فرصة في أثناء الفوضى والأزمات، يقول نبينا ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَظْهَرَ الْفُحْشُ وَالبُخْلُ، وَيُخَوَّنَ الْأَمِينُ، وَيُؤْتَمَنَ الْخَائِنُ، وَيَهْلِكَ الْوَعُولُ، وَتَظْهَرَ التُّحُوتُ**»، قالوا: يا رسول الله، وما الوعول وما التُّحوت؟ قال: «**الْوَعُولُ: وَجُوهُ النَّاسِ وَأَشْرَافُهُمْ، وَالتُّحُوتُ: الَّذِينَ كَانُوا تَحْتَ أَقْدَامِ النَّاسِ لَا يُعْلَمُ بِهِمْ**». رواه ابن حبان^(٢).

ففي زمن الفتن مع كل أسفٍ يُنحَى الأمين، ويُحَى وجوه الناس وأشرفهم، فلا تجدهم في صدر الأمور، وإنما يبرز لها التُّحوت من القوارض،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٧١٨٨)، وابن وضاح في البدع (٢٣١)، وابن بطة في الإبانة

(١٧٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٨٨٦).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٦٨٤٤)، والحاكم في المستدرک (٥٤٦/٤)، من حديث أبي

هريرة رضي الله عنه.

الَّذِينَ كَانُوا تَحْتَ أَقْدَامِ النَّاسِ لَا يُعَلِّمُهُمْ بِهِمْ.

لَا يَصْلِحُ النَّاسُ فَوْضَى لَا سِرَّةَ لَهُمْ وَلَا سِرَّةَ إِذَا جُهِلَّ لَهُمْ سَادُوا^(١)

هذا وصلُّوا وسلِّموا - رحمكم الله - على رسولِ الله كما أمرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كتابه الكريم قائلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

• • k • •

(١) البيت للأفوه الأودي. روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان (ص: ٢٧٠)، والعقد الفريد لابن عبد ربه (١/ ١١).

K

K

(٧)

أخلاقيات قيادة السيارات

•• k ••

إنَّ المتأمل في الأحاديث التي تردُّ في مجالسنا، وفي بيوتنا، وفي مُتدياننا، وفي بعض مقالاتنا؛ يجد في هذه الأحاديث شكوى من تردِّي بعض أخلاق قائدي السيارات على الطريق، ولسان حال الجميع يقول: أين كُنَّا؟ وإلى أين صرنا؟ ومثل هذه الأحاديث تتكرَّر، وهي ترى واقع السائقين وتدني الأخلاق عند بعضهم، فيقول القائل: سبحان الله! هذه صورٌ ما كُنَّا نراها، وهذه تصرفاتٌ جديدةٌ علينا، فإذا فتَّشت عن ذلك وجدت أن السبب الرئيس البعد عن أخلاق الدين.

معاشر الأُحبة! إنَّ هذه الأمة بأفرادها تركن إلى تراثٍ عظيم، تركن إلى الوحي الذي أنزله الله **تبارك وتعالى** على نبيه **ﷺ**.

إنَّ هذه الأمة عندها من المقومات ما لا يوجد عند غيرها، لكنها تسير في هذا الطريق والشريعة المنزلة في هذا الطريق.

إنَّ المتأمل في الأحاديث التي ذكرها نبينا **ﷺ** في أهمية الخلق، سواء كنت في سيارتك أو بيتك مع أهلِكَ وزوجك أو في معملِكَ، تجد العجب!

فهاهو **ﷺ** يقول لأبي ذرٍّ **رضي الله عنه** - كما جاء في (سنن الترمذي) -: «أتق الله

حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتَّبِعِ السَّبِيَّةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»^(١).

وهاهو ﷺ يُبَيِّنُ أَنَّ مِنَ الْأَسْسِ الَّتِي تَقُومُ عَلَيْهَا مَعَايِيرُ التَّفَاضُلِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ الْخُلُقَ الْحَسَنَ، فيقول ﷺ - كما جاء في (سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»^(٢).

وفي حديثِ أُمِّنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - عندَ أَبِي داودَ - يُبَيِّنُ ﷺ أَنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ يُدْرِكُ بِهَذِهِ الْعِبَادَةِ عِبَادَةَ الصَّائِمِينَ الْقَائِمِينَ، فيقول ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ بِحُسْنِ خُلُقِهِ لَيُدْرِكُ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»^(٣).

بَلْ يَذْهَبُ بِنَا نَبِيِّنا ﷺ إِلَى مَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ، فيقول ﷺ في حديثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عندَ التِّرْمِذِيِّ -: «مَا مِنْ شَيْءٍ يُوَضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ»^(٤).

فَكَمْ نَحْنُ فِي حَاجَةٍ إِلَى بَرْنَامِجٍ تَوْعُويٍّ مَهْضُويٍّ يَنْهَضُ بِالْأُمَّةِ وَبِخَاصَّةٍ وَهِيَ تَقُومُ عَلَى هَذَا التَّرَاثِ الْعَظِيمِ، وَعَلَى هَذَا الْهَدْيِ الْقَوِيمِ.

يقول ابنُ المَبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ - حِينَمَا أَرَادَ أَنْ يُفَسِّرَ لَنَا مَعْنَى حُسْنِ الْخُلُقِ -: هُوَ طَلَاقَةُ الْوَجْهِ، وَبِذَلِكَ الْمَعْرُوفِ، وَكَفُّ الْأَذَى^(٥).

(١) أخرجه الترمذي: أبواب البر والصلوة، باب ما جاء في معاشره الناس، رقم (١٩٨٧).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، رقم (٤٦٨٢)، والترمذي: كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم (١١٦٢).

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، رقم (٤٧٩٨).

(٤) أخرجه الترمذي، أبواب البر والصلوة، باب ما جاء في حسن الخلق، رقم (٢٠٠٣).

(٥) أخرجه الترمذي: أبواب البر والصلوة، باب ما جاء في حسن الخلق، رقم (٢٠٠٥)، من حديث

ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أمّا ابن القيم **رَحْمَةُ اللَّهِ** فيقولُ في كتابه الماتع «مدارج السالكين»: وأدب المرء عنوانُ سعادته وفلاحه، وقلّة أدبه عنوانُ شقاوته وبواره ^(١).

واليوم إذا أردت أن تحكّم على أحد فانظر إلى أخلاقه وتصرفاته، ما منّا من أحد يزورُ مجتمعا من المجتمعات إلا ويحكّم على هذا المجتمع بما يراه من تصرفات أهله، وأكثر ما يكون ذلك في طرقات الناس.

عباد الله! إن التأمل في أوقاتنا يجد أن في أغلبها نقضيه في سياراتنا ذهابا وإيابا، فنحتاج إلى هذه الأخلاق؛ فأنا أقود السيارة، وأنا أفف بها، وأنا أقضي عليها حوائجي، فأحتاج أن أرفع بخلق المسلم، وأعتقد أننا نحتاج إلى التذكير بقضيتين في هذه الخطبة أساسيتين يحتاجها كل قائد مركبة:

القضية الأولى: وهي التآني والرفق والتؤدة.

وهذه معانٍ عظيمة، فحينما يقرأ العبدُ في سورة الفرقان يجد المولى **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** يقول: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، فعليك أن تكون يا عبد الرحمن بعيدا عن التهور، بعيدا عن الاستهتار، بعيدا عن التبختر والغرور، ولا تكن كذاك الذي ذكره الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** في سورة الإسراء، قال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (٣٧) **كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا** ﴿[الإسراء: ٣٧-٣٨].

وفي حديث أمنا عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** - في (صحيح مسلم) - يرشدنا **ﷺ** فيقول:

(١) مدارج السالكين (٢/٣٦٨).

«إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانُهُ»^(١)، ويقول لنا في حديث أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -عند أبي يعلى في (مُسْنَدِهِ)-: «التَّائِي مِنَ اللَّهِ، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ»^(٢)، ويقول لنا: «التُّؤَدَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي عَمَلِ الْآخِرَةِ»^(٣)؛ أي: عليك بالتُّؤَدَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

وَكَمْ هُوَ مُؤَلِّمٌ أَنْ تَجِدَ أَنَّ السَّبَبَ الرَّئِيسَ فِي أَكْثَرِ عَدَدِ الْوَفِيَّاتِ فِي بِلَادِنَا الْإِسْلَامِيَّةِ هُوَ حَوَادِثُ السِّيَارَاتِ، وَأَنَّ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ هَذِهِ الْعَجَلَةُ وَهَذِهِ السُّرْعَةُ.

وَكَمْ تَتَأَلَّمُ وَأَنْتِ تَعْلَمُ أَنَّ فِي دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ عَدَدَ الْوَفِيَّاتِ يَوْمِيًّا أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ شَخْصًا -مِنْهُمْ سَبْعَةٌ عَشَرَ مِنَ الشَّبَابِ- بِسَبَبِ حَوَادِثِ السِّيَارَاتِ، دَعَكَ مِنْ غَيْرِهَا مِنَ الْأَسْبَابِ، وَيَتَجَاوَزُ هَذَا الْعَدَدُ سَنَوِيًّا، فَهُنَاكَ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعَةِ آلَافٍ شَابٌّ يَمُوتُ سَنَوِيًّا جَرَاءَ حَوَادِثِ السِّيَارَاتِ، وَهَذِهِ أَعْدَادُ مَرَعْبَةٍ، إِذْ هِيَ أَكْثَرُ مِنْ أَعْدَادِ الْحُرُوبِ، بَلْ أَكْثَرُ مِنْ أَعْدَادِ ضَحَايَا عَمَلِيَّاتِ التَّخْرِيبِ وَالْإِرْهَابِ وَالتَّحْرِيطِ.

وَتَصَوَّرْ أَنَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ تَغِيْبُ شَمْسُهُ يَدْخُلُ الْحَزْنَ وَالْأَسَى عَلَى كُلِّ بَيْتٍ بِسَبَبِ هَذِهِ الْمَخَالَفَةِ الصَّرِيحَةِ لِهَذِهِ الْأَمْرِ النَّبَوِيِّ.

إِنَّ نَبِيَّنَا ﷺ يُرَبِّنَا عَلَى التُّؤَدَةِ وَالتَّائِي، فَيَقُولُ لِلْمُصَلِّي الَّذِي يَخْرُجُ إِلَى

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، رقم (٢٥٩٤)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤٢٥٦)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في الرفق، رقم (٤٨١٠)، من حديث سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المسجد: «إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ» وأنت تسمع إقامة الصلاة، وسيكبر الإمام الآن، يقول: «فَلَا تَأْتَوْهَا وَأَنْتُمْ تَسْعُونَ، وَأَتُوهَا وَأَنْتُمْ تَمْتُسُونَ، عَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتُّوا»^(١). إنه إرشادٌ عظيمٌ.

ولذا قال أبو حاتم ابن حبان رَحِمَهُ اللهُ في كتابه (رَوْضَةُ الْعُقَلَاءِ): إن العَجَلَ -يعني: المستعجل- لا يكادُ يلحقُ، وإن الرفاق لا يكادُ يسبِقُ^(٢).

وكانت العرب تُكْنِي العَجَلَةَ بِأُمَّ النَّدَامَاتِ، وبالفعل كَمَ تندم هذه الأنفس حينما يحصل ما يحصل على إثر هذه العَجَلَةِ، فنحتاج إلى هذا الخلق الرفيع وهو التائي والتؤدة.

القضية الثانية: نحتاج إلى الخلق الثاني وهو كف الأذى.

فمنذ أن تخرج من بيتك إلى أن تعود احْرِصْ على أن تكف أذاك عن الآخرين؛ لأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ أَحْمَلُوا بُهْتَنَا وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وكم هو مؤلم أن ترى في الشارع شابين كل واحد في سيارته يتبادلان أطراف الحديث على الشارع تقف خلفهما تُنبههما، وأكثر ما يفعلانه أن يُجرح أحدهما يده أن اخرج عن الشارع وتجاوز. وكأنتها ملكا هذا الشارع، وهذا لا شك إيذاء.

ونبينا ﷺ يقول - كما جاء في (صحيح مسلم) من حديث أبي سعيد الخدري

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب المشي إلى الجمعة، رقم (٩٠٨)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، والنهي عن إتيانها سعيًا، رقم (٦٠٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) روضة العقلاء (ص ٢١٦).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطَّرِيقَاتِ» يعني: على قارعة الطريق ليس في وسط الطريق، قالوا: يا رسول الله، ما لنا بُدٌّ من مجالسنا نتحدث فيها، قال: «فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ» قالوا: وما حقه؟ قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ»^(١).

فقال ﷺ: «كَفُّ الْأَذَى» وكم يؤمك وأنت حينما تخرج من المسجد تجد من يقف عند بعض المطاعم يطلب له وجبة، ويجلس في الشوارع، لا يبالي، هل وقفت عشرات السيارات خلفه، أو تعطل الطريق، وهو يقول: أنا فقط! وبكل بلادٍ واستهتار وإهمال. وقد تقول: يا أخي، قف بعيداً. فلا يلتفت إلى ذلك.

وكم هو مؤلم أن ترى بعض الشباب الفتي القوي يقف في الشارع ينزل عند الصراف الآلي، يقطع الطريق على الناس، وكأنه يقول: أنا فقط. ونقول له: يا أخي أنت تعطل الطريق الآن، فأكثر من مائتي سيارة خلفك تعطلت؛ لأنهم لا يستطيعون أن تعبروا، وللأسف لا يلتفت إليك.

فأقول له: إذا كنت لا تلتفت إلى الناس فاسمع إلى حبيبك ﷺ ماذا يقول، وافتح قلبك له؛ يقول صلى الله عليه وسلم: «مَنْ آذَى الْمُسْلِمِينَ فِي طُرُقِهِمْ وَجَبَتْ عَلَيْهِ لَعْنَتُهُمْ»^(٢) يعني: إذا قال أحد المازنين بعد صلاة الجماعة في ساعة استجابة: يا الله، يا رب. ودعا عليك، فستستجاب الدعوة، ومعدورٌ هذا الذي دعا عليه.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، رقم (٦٢٢٩)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن الجلوس في الطرقات وإعطاء الطريق حقه، رقم (٢١٢١)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣/ ١٧٩ رقم ٣٠٥٠)، من حديث حذيفة بن أسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَكَمْ هُوَ مُؤَلِّمٌ فِي صَلَاةِ الْجُمُعَةِ أَنْ تَجِدَ الْأَخَّ يَدْخُلُ إِلَى الْجَامِعِ لِيُصَلِّيَ فِي هَذَا الْجَامِعِ أَوْ غَيْرِهِ، فَإِذَا بِهِ حَتَّى فِي وَقُوفِ سَيَارَتِهِ يُؤْذِي النَّاسَ، فَحَوْلَ الْجَامِعِ يُبَوِّتَاتٌ فِيَقِفُ عِنْدَ بُيُوتِ النَّاسِ، وَيَقْطَعُ عَلَى بَعْضِ الْمَرَاتِبِ وَالْمَوَاقِفِ فَلَا تَتِمَكَّنُ السَّيَارَاتُ مِنَ الْخُرُوجِ مِنْ بُيُوتِهَا، أَوْ يَقِفُ عِنْدَ الْأَمَاكِنِ الْمَخْصُصَةِ لِأَصْحَابِ الْعَرَبَاتِ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَقْفُوا، وَمَعَ ذَلِكَ يَقُولُ لَكَ: هَذِهِ صَلَاةُ جُمُعَةٍ وَهِيَ عِبَادَةٌ!

وقد رأيتُ في الطريق العامِّ يقفُ أحدُهم في وسطِ الشارعِ على الخطوطِ البيضاء، وانتظرَ في المسجدِ إلى آخرِ الناسِ الذين خرجوا! يتنفلُ ويقرأُ سورةَ الكهفِ! مسكينٌ هذا لا يعرفُ الطريقَ إلى الله!

يقولُ نبينا ﷺ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ»^(١)، فنحنُ بالفعل نحتاجُ إلى برنامجٍ نهضويٍّ وتوعويٍّ، تشاعُ هذه القيمُ وهذه الأخلاقُ، ولا تنتظرُ أحدًا أن يرفعَ من قيمتكِ وخُلقك، بل كُنْ أَنْتَ الساعيَ في ذلك.

وإنَّ مِنْ أبلغِ صورِ الإيذاءِ التي يُسبِّبُها بعضُ قائدي المركباتِ هو قتلُ النفسِ مُتعمِّدًا، وذلكُ إمَّا لما نراهُ مِنْ تَحَطُّ للإشارةِ الحمرَاءِ تعمُّدًا، وهذه الصورُ بهذه الكثرةِ ما كُنَّا نراها، والآنَ تَرى هذا المُستهترَ البليدَ الَّذي تدنَّى بأخلاقه يأتي ويقطعُ الإشارةَ الحمرَاءِ، فيتسبَّبُ في قتلِ نفسٍ مُسلمةٍ، وهذه النفسُ المسلمةُ ستأتي يومَ القيامةِ تطالبُ بحقِّها.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في الغيبة، رقم (٤٨٨٠)، من حديث أبي برزة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والمُصيبةُ أنَّ الناسَ إذا سمِعوا بفلانٍ أحدثَ حادثًا وراحتَ فيه نفسٌ، فيسألونهُ عن تَأْمِينِ السيارةِ وشُموْلِهِ للحادثِ أو لا! وللأسفِ فليستَ هذه القضية، بلِ القضيةُ أنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يقولُ في سورةِ النساءِ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾، كتجاوزِ الإشارةِ الحمراء، ﴿مُتَعَمِّدًا﴾ مسرعٌ ﴿مُتَعَمِّدًا﴾ سكرانٌ مثلًا! ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وليس الأمرُ سهلًا، ففي حديثِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -عندَ الترمذي- يقولُ نبينا ﷺ: «يَجِيءُ الْمُقْتُولُ بِالْقَاتِلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَاصِيَتُهُ وَرَأْسُهُ بِيَدِهِ، وَأَوْدَاجُهُ تَشْحَبُ دَمًا، يَقُولُ: يَا رَبِّ، قَتَلَنِي هَذَا، حَتَّى يُدْنِيَهُ مِنَ الْعَرْشِ»^(١) وفي غيرِ روايةِ الترمذي يقولُ: «سَلْ هَذَا فِيمَا قَتَلَنِي»^(٢). انظروا إلى هذه الصورةِ الخطيرةِ! فعلى العبدِ أن يتحرَّى ألا يخرجَ عن هذه الدنيا وهناك نفسٌ في رقبته.

هذا وصلُّوا وسلِّموا -رحمكم الله- على رسولِ الله كما أمرَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كتابه الكريمِ قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

•• k ••

(١) أخرجه الترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب: ومن سورة النساء، رقم (٣٠٢٩)، رقم

(٤٠٠٥)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه النسائي: كتاب تحريم الدم، باب تعظيم الدم، رقم (٤٠٠٥)، من حديث ابن عباس

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



•• k ••

لا شكَّ أنَّ الأدبَ له من المكانة في حياتنا الشيءُ الكبيرُ، وأنَّ العبدَ منا يحتاجُ إلى الأدبِ في جميعِ مناحي الحياة التي يحياها، ويحتاجُ أن يتأدبَ في هذه النعم التي تفضلَ اللهُ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** بها علينا.

ومن جملة هذه النعم ما يعيشه جيلُ اليوم من هذا الانفتاح على العالمِ بنعمة ما انتشر من مواقع التواصل بين الناس، وبهذه الشبكات التي ربطت من كان في أقصى الشرق بمن هو في أقصى الغرب، هذه نعمة يعيشها جيلُ اليوم، ما عاشها المجتمعُ قبلَ عشرِ سنواتٍ.

هذه المواقع سواءً كان الفيس بوك أو تويتر أو الواتساب، أو غير ذلك، من نعمِ اللهُ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**، يحتاجُ الداخلُ فيها إلى أدبٍ، كما يحتاجُ إلى الأدبِ في كلِّ منحي من مناحي الحياة، فيحتاجُ فيها المغرّد إلى آدابٍ شرعية قبل أن يدخلَ في هذا العالمِ.

وبشكلٍ عامٍّ نحتاجُ إلى الأدبِ في حياتنا، ما أجملها من كلمة قالها حبرُ الأمة وترجمانُ القرآن؛ عبدُ اللهِ بنُ عباسٍ **رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا** وهو يُشيرُ إلى هذه المسألة ويبيِّنُ أهميتها فيقولُ: اطلبِ الأدبَ؛ فإنه زيادةٌ في العقلِ، ودليلٌ على المروءة، ومؤنسٌ في الوحدة، وصاحبٌ في الغربة، ومألٌ عندَ القلة! ^(١).

(١) أخرجه السلفي في الطيوريات (١٢٨٨).

كُلُّ هَذَا جَمَعَهُ الْأَدَبُ، نَعَمْ، إِنَّهَا أَحْرَفٌ قَلِيلَةٌ لَا تَتَجَاوَزُ الْمِئَةَ وَأَرْبَعِينَ حَرْفًا تَغْرُدُ بِهَا، فَتَحْتَاجُ أَنْ تَأْخُذَ مَعَكَ حَقِيبَةَ الْأَدَبِ، تَتَأَدَّبُ مَعَ كُلِّ حَرْفٍ تَكْتُبُهُ، فَهَنَّاكَ آدَابٌ شَرْعِيَّةٌ مَيَّزَ اللَّهُ بِهَا الْمُسْلِمَ، مِنْهَا:

الأدب الأول: عليك بالنية الصالحة، فلا تدخل في ذلك العالم لتكتب تغريدة أو تنشر خبرًا أو صورةً إلا وقد دخلت بنيتك الصادقة الصالحة؛ فإنك إما أن تنشر خيرًا؛ فتؤجر عليه، أو تُحذر من شرٍّ؛ فتؤجر عليه، ولا تدخل إلى ذلك العالم وأنت تنظر إلى كسب تأييد فلان، أو الثناء من فلان، أو أن تحصل عددًا من المتابعين؛ فإن هناك من يشتري المتابعين، وكلما ارتفع عدد المتابعين عنده فراح.

فاكتب وانقل بهذه النية الصالحة، وضع بين عينيك قول النبي ﷺ الذي جاء في (صحيح البخاري) وغيره من حديث عمر رضي الله عنه: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»^(١).

فليس لنا من أعمالنا في هذه الدنيا إلا بقدر ما نوي.

وما أجملها من كلمة قالها الحسن! قال: رحم الله عبدًا وقف عند هممه - أي: عند نيته، وعند عزمه، وعند فعله - فإن كان لله مضي وإن كان لغيره تأخر^(٢).

فلا يلتفت الإنسان إلى هذه المسائل: ماذا يقول عني فلان. ولا يفرح بعدد المتابعين، أو بعدد الذين يُعيدون تغريداته، بل يجعلها لله؛ فإن النية تفعل الأفعال،

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية» وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال، رقم (١٩٠٧)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٦٣٣٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٨٩٤).

نعم، التغريدة في سطرٍ، لكنّها عند الله قد تكون لها من القدرِ الشيء العظيم.
 ذكر أبو حامد الغزالي **رَحْمَةُ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ (إِحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ)** عَنْ بَعْضِ
 السَّلَفِ أَنَّهُ قَالَ: رُبَّ عَمَلٍ صَغِيرٍ تُعَظَّمُهُ النِّيَّةُ، وَرُبَّ عَمَلٍ كَبِيرٍ تُصَغِّرُهُ النِّيَّةُ ^(١).
 أَي: تُعَظَّمُهُ النِّيَّةُ إِنْ كَانَتْ لِلَّهِ، وَتُصَغَّرُهُ إِنْ كَانَتْ لِغَيْرِ اللَّهِ.

وهذا هو الجبل، إمام الدنيا في عصره، الذي ملأ الدنيا سمعًا وبصرًا، وليس
 في الدنيا مثله في عصره، محمد بن إدريس الشافعي، ومع ذلك يقول كلامًا اشتهر
 إلى اليوم نُردده على أعواد المنابر؛ حيث قال: وَدِدْتُ أَنْ النَّاسَ لَوْ تَعَلَّمُوا هَذَا
 الْعِلْمَ وَلَمْ يُنْسَبْ إِلَيَّ مِنْهُ شَيْءٌ ^(٢).

ورأى عمرُ الفاروق **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أَبِي بَنِ كَعْبٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** يَقُومُ إِذَا بِمَجْمُوعَةٍ مِنْ
 طُلَّابِ الْعِلْمِ يَتَّبِعُونَهُ فَعَلَاهُ عَمْرٌ بِالْدَّرَةِ وَقَالَ: أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّهَا فِتْنَةٌ لِلْمَتَّبِعِ، وَمِثْلُهَا
 لِلتَّابِعِ ^(٣).

فلا تلتفت إلى هذه المسائل، وادخل بنية صادقة صالحة تخدم بها أمتك.

الأدب الثاني: غرّد بالمفيد، فإذا لم يكن مفيدًا فلا تُغرّد به، واشغل نفسك
 بشيء آخر، فإن ما نقوله ونكتبه يأتي يوم القيامة، فقد قال الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** فِي سُورَةِ
 يس: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي
 إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾ [يس: ١٢].

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٦٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في آداب الشافعي ومناقبه (ص ٢٤٨).

(٣) أخرجه الدارمي (٥٤٠).

وقال تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

وقال رسول الله ﷺ: «وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»^(١).

وقال أيضًا: «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ»^(٢).

والذي يُشاهدُ ساحةَ المُغرِّدين يجدُ أنَّها تدورُ في قيلٍ وقالٍ - في أغلبها -، وهذا ليس من الأدب المحمود، فإن كان هذا الأمر الذي تغرَّدُ به مفيدًا أنشره، ودع الناس يطالعون عليه، فإن لم يكن به فائدة أو لعله يشغل بعض الأجهزة الحكومية أو الأجهزة الأمنية فلا تفعله، فإن هناك من تولَّع بأن يكون السبق له في كلِّ شيءٍ، وهكذا يقول: حدَّثتنا مصادِرنا! ولربِّنا سابق الأجهزة الأمنية في نشر بعض القضايا، وربِّنا أفسدَ عليها بعض التحقيقات، بل ربِّنا أدخل الأمل والحزن على بعض الأسر وهو مُحطٌّ في بعض القضايا.

فحادثٌ ربِّنا يحدثُ هناك فيُغرِّدُ شخصٌ بصورة الحادث وهو مُحطٌّ في ذلك، فيعتُمُّ الوالدُ والوالدةُ هنا، والصورُ والأحداثُ كثيرةٌ في ذلك.

الأدبُ الثالثُ: تثبَّت قبل أن تغرِّدَ، فقد قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، رقم (٦٠١٨)، ومسلم:

كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الاستقراض، باب ما ينهى عن إضاعة المال، رقم (٢٤٠٨)، ومسلم:

كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل، رقم (٥٩٣)، من حديث المغيرة بن شعبة

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴿ [الحجرات: ٦] أي: فتثبتوا، ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهَلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

وفي كتاب (الأدب المفرد) للبخاري كلمة رائعة قالها الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ حيث قال: لا تكونوا عجلاً مذياعاً بذراً^(١). أي: لا تكونوا عجلاً تستعجل نقل الأخبار، مذياعاً كالمذيع، بذراً تبذرون بذور الشر والشقاق بين الأمة.

وهكذا حال بعض المغردين: متعجل، مذياع، ينشر أي شيء يسمعه، بذراً يبذر الشر ربما بين الدول، حتى إن بعض الناس -كفانا الله شرهم- في تغريدته ربما أنشأ خلافاً وشرّاً وحرماً بين المجتمعات.

لذا قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -كما جاء في كتاب (الفتن) لأبي عبد الله نعيم بن حماد-: إن الفتنه راتعة في بلاد الله، تطأ في خطامها، لا يحل لأحد أن يوقظها، ويل لمن أخذ بخطامها^(٢). وبعض المغردين يأخذ بخطام الفتنه ويسوقها سوقاً.

الأدب الرابع: لا تغرد إلا بالصحيح من أحاديث المصطفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فإن من الناس من تقوده العاطفة الإيمانية إلى نصح الناس بأي شيء، فقد يقوده هذا المقصد النبيل إلى أن ينصح الناس ويذكر الغافلين فينشر حديثاً ضعيفاً، موضوعاً، منكرًا، كذبًا، وينسبه إلى النبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا أعظم من كثير من الجرائم، فقد يكون هذا الإنسان صالحًا، بعيدًا عن كثير من الكبائر، ويقع في هذه الكبيرة العظيمة

(١) الأدب المفرد (٣٢٧).

(٢) الفتن لنعيم بن حماد (١٥).

التي قال فيها رسول الله ﷺ: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا؛ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(١)، فينشر حديثاً يريد النصح به، لكن هذا الحديث موضوع، لا يجوز.

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَدَّثَ عَنِّي حَدِيثًا وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ»^(٢).

الأدب الخامس: أيها المغرّد! استشعر رقابة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، حتى وإن كنت تكتب خلف اسم مستعار، فبعض المغرّدين يكتب بأسماء مستعارة، فربما خفي أمره على بعض أجهزة الرقابة، لكن لا يحفى أمره على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وربما تعددت المواقع بأسماء مختلفة له، لا يعلمها الناس، لكن الله تبارك وتعالى يعلمها.

وقد قال رسول الله ﷺ - في حديث عند الترمذي - وهو يخاطب النساء: «عَلَيْكُمْ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّقْدِيسِ، وَاعْقِدْنَ بِالأَنَامِلِ؛ فَإِنَّهُنَّ مَسْئُولَاتٌ مُسْتَنْطَقَاتٌ»^(٣)؛ أما تشعر بهذا الحديث يهزك هزاً، فهذه الأنامل سواء كتبت على هذه المفاتيح في الجوّال، أو لوحة المفاتيح في غيره من الأجهزة، مَسْئُولَاتٌ مُسْتَنْطَقَاتٌ.

فهذا يكتب فإذا به يذم جماعة هناك، وحزباً هناك، وعلماً هناك، ورجلاً

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت، رقم (١٢٩١)، ومسلم في مقدمة صحيحه، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، رقم (٤)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم في المقدمة (ص ٨).

(٣) أخرجه أبو داود: باب تفریح أبواب الوتر، باب التسبيح بالحصى، رقم (١٥٠١)، والترمذي: أبواب الدعوات، رقم (٣٥٨٣)، من حديث يسيرة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

هناك، ومسؤولاً هناك، وهو يظنُّ أنه يعمل خلف ستارٍ، لكنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى مطلعٌ عليه، وسيسأله يومَ القيامةِ؛ لأنَّ هذه الأناملَ مسؤولاتٌ مُستنطقاتٌ.

وكانَ الأولى بها أن تُسبحَ، وتُهَلَّلَ، وتُقدَّسَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فإذا بها تستخدمُ في هذا الشَّقِيقِ، وفي إثارةِ الفتنِ، وقد قال النبي ﷺ: «وَمَنْ رَمَى مُسْلِمًا بِشَيْءٍ يُرِيدُ شَيْنَهُ بِهِ»، «وَمَنْ رَمَى مُسْلِمًا بِشَيْءٍ يُرِيدُ شَيْنَهُ بِهِ؛ حَبَسَهُ اللهُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يُخْرَجَ مِمَّا قَالَ»^(١). وليس بالضرورة أن يكون الرميُّ بسلاحٍ محسوسٍ، لكنَّ الكلمةَ سلاحٌ أمضى من ذلك السلاحِ.

وما من كاتبٍ إلا سيفني ويبقى الدهر ما كتبت يداهُ

فلا تكتب بكفك غير شيءٍ يسُرُّك في القيامة أن تراهُ

هذا وصلُّوا وسلِّموا - رحمكم الله - على رسولِ الله كما أمرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كتابه الكريمِ قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].



(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب من رد عن مسلم غيبة، رقم (٤٨٨٣)، من حديث معاذ بن أنس الجهني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.



بعض ثمار ذكر الله

•• k ••

قال الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفْقَتِ كُلِّ قَدِّ عِلْمٍ صَلَاتَهُ، وَتَسْبِيحَهُ﴾** [النور: ٤١].

وقال سبحانه: **﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾** [الإسراء: ٤٤].

وفي (صحيح البخاري) قال رسول الله ﷺ: **«قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ، أَحْرَقْتَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَّةِ تُسَبِّحُ!»** (١).

والتأمل فيما مضى من الشواهد، سواء ما كان من كتاب الله، أو ما جاء على لسان رسوله ﷺ يدرك تمامًا أن الكون كله يذكر الله، وهو يسير في هذا النسق؛ فالسموات والأرضون كلها تذكر الله، ما كان من طير أو نملة في جحرها إلا وتذكر الله، فإذا رأيت العبد لا يذكر الله فاعلم أنه يسير عكس نوااميس الكون، ومن سار عكس نوااميس الخلق هلك، فإن لم يهلك تأذى وشقي، وحصل له من الجهد والعنت.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب: إذا حرق المشرك المسلم هل يحرق، رقم (٣٠١٩)، ومسلم: كتاب السلام، باب النهي عن قتل النمل، رقم (٢٢٤١) من حديث أبي هريرة **رضي الله عنه**.

لذا جاء رسول الله ﷺ يُخبرنا - كما في (سنن الترمذي) - أن أفضل الأعمال على الإطلاق الذكر، فقال لصحابته: «أَلَا أُنبئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعَهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟» قالوا: بلى. قال: «ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى»^(١)؛ رأيت هذا الذكر المهجور المغفول عنه؟! فربما يظن البعض أن الذكر للدرراويش، أو للمساكين، أو لجلساء الزوايا والتكايا، وهذا ظنٌ باطلٌ، فالذكر عظيمٌ؛ قال معاذٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما شيءٌ أنجى من عذابِ الله من ذكرِ الله^(٢).

وها هو رسول الله ﷺ يذكر هذه الأمور الخمس التي تأتي في المقدمة: «أَلَا أُنبئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعَهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟» قالوا: بلى. قال: «ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى».

لذا نذكر بعض ثمار الذكر؛ لأننا في حاجةٍ إليه؛ حتى لا نضيع في دوامة الحياة، وتكالب علينا المشاكل والمصائب.

الثمره الأولى: اعلم - أيها المبارك - أن من ذكر الله تعالى ذكره الله، وهذا أمرٌ ليس بالهين ولا باليسير، أنا وأنت نفرح إذا ذكرنا عظيم من العظماء في مجلسه وامتدحنا، فكيف لا نفرح إذا ذكرنا الخالق سبحانه!.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾

(١) أخرجه الترمذي: أبواب الدعاء، رقم (٣٣٧٧)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر التخريج السابق.

[البقرة: ١٥٢]، وقال سبحانه في الحديث القدسي: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِذَا ذَكَرَهُ فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»^(١).

وخرج رسول الله ﷺ - كما جاء في (صحيح مسلم) من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فوجد حَلَقَةً من أصحابه يتذاكرون، قال: «مَا أَجَلَسَكُمْ؟» قالوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ، وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَمَنْ بِهِ عَلَيْنَا. قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اللَّهُ مَا أَجَلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟» قالوا: والله ما أَجَلَسْنَا إِلَّا ذَاكَ. قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُ لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تَهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيْلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ»^(٢).

فهم قد اجتمعوا يذكرون الله، وهو عملٌ - في ظننا - يسيرٌ، لكن عند الله عظيمٌ، فكم نحتاج أن نقوم سلوكنا في حياتنا بكثرة ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فإذا ذكرنا عنده في المَلَأِ سبحانه رضي عنا وأرضى عنا خلقه في الأرض وفي السماء.

قال محمد بن المنكدر رَحِمَهُ اللَّهُ: بلغني أن الجبلين إذا أصبحا نادى أحدهما صاحبه: أي فلان، هل مرَّ بك اليوم ذاكرٌ لله عَزَّ وَجَلَّ؟ فيقول: نعم. فيقول: لقد أقرَّ اللهُ عينك، ولكن ما مرَّ بي ذاكرٌ لله عَزَّ وَجَلَّ اليوم^(٣).

الثمرَةُ الثَّانِيَةُ: أن مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ عَصَمَهُ مِنْ تَسَلُّطِ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ،

- (١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، رقم (٧٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
- (٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم (٢٧٠١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
- (٣) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (١٧١٨/٥)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١٤٧/٣).

فكم يعيش الخلق اليوم وهم يتخبطون في حبال الشيطان ووساوسه! وكم نجد اليوم من هذه الشكوى ترتفع من حصول الوسوس والأفكار في قلوب الناس!

وقد بين لنا الله تبارك وتعالى مقولة الشيطان في سورة الأعراف، فقال: ﴿مِمَّ لَا تَنْتَهُمُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، فهو سيحاصرنا من الجهات الأربع، ولا منجى إلا إلى الله.

وفي السورة نفسها قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وقد أخبرنا ابن عباس رضى الله عنهما - كما جاء في (مصنف ابن أبي شيبة) - فقال: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خَسَّ (١).

ويقوم يحيى عليه السلام - كما جاء في (سنن الترمذي) من خير النبي صلى الله عليه وسلم - يبلغ ما أمره الله تبارك وتعالى أن يبلغه لبني إسرائيل، فيناديهم فيجتمعون في بيت المقدس، فيمتلئ بهم المسجد، فيقول لهم ما يقول، ومن جملة ما قال: «وَأْمُرْكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ؛ فَإِنْ مَثَلَ ذَلِكَ - يعني: مثل الذكر - فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ أَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ» (٢).

وهناك من الأذكار الشيء الكثير، علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من أخذ بها

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٤٧٧٤)، وأبو داود في الزهد (٣٣٧).

(٢) أخرجه الترمذي: أبواب الأمثال، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة، رقم (٢٨٦٣)، من حديث الحارث الأشعري رضى الله عنه.

عَصَمَ مِنَ الشَّيْطَانِ، مِنْهَا أَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَالَ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فَإِذَا قَالَ: ذَلِكَ؛ قَالَ الشَّيْطَانُ: حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ الْيَوْمِ»^(١)، فَمَنْ ذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى عَصَمَهُ اللَّهُ مِنَ تَسَلُّطِ وَسَاوِسِ الشَّيَاطِينِ.

وَمَنْ ذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى ازْدَادَ قُوَّةً عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، جَاءَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِلَى بَيْتِ النَّبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَ أَنْ سَمِعَتْ أَنَّ رَقِيقًا قَدْ جَاءَهُ، تُرِيدُ خَادِمًا تُسَاعِدُهَا فِي الْبَيْتِ؛ فَقَدْ أَثْرَتِ الرَّحَى فِي يَدَيْهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَلَمْ تَجِدِ النَّبِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَوَجَدَتْ عَائِشَةَ فَأَخْبَرَتْهَا، فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَخْبَرَتْهُ عَائِشَةُ بِحَاجَةِ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَامَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَأَتَى إِلَى بَيْتِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَدْ أَخَذَ هُوَ وَفَاطِمَةُ مَضْجِعَهُمَا، فَجَاءَهُمَا حَتَّى جَلَسَ مَعَهُمَا عَلَى الْفِرَاشِ، وَقَالَ: «أَلَا أُنبِئُكُمْ» أَوْ قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى خَيْرٍ مِمَّا سَأَلْتُمَا؟ إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعِكُمَا، أَوْ أَوَيْتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا، فَسَبَّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبَّرَا أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ؛ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ»^(٢).

فَمَنْ أَخَذَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ بَيِّقِينَ، وَهُوَ يَعْتَقِدُ اعْتِقَادًا جَازِمًا بِمَا فِيهَا مِنْ الْخَيْرِ وَالثَّوَابِ؛ حَصَّلَهُ، وَيَجِدُ الْعَبْدُ فِي ذَلِكَ قُوَّةً فِي جَسَدِهِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَعَلَى هُمُومِ الدُّنْيَا.

وغير ذلك من الثمار كثير جدًا، لكنني أكتفي بما ذكرت مُذَكِّرًا لِنَفْسِي وَإِيَّاكُمْ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب فيما يقوله الرجل عند دخوله المسجد، رقم (٤٦٦)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، باب مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبي الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٣٧٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التسبيح أول النهار وعند النوم، رقم (٢٧٢٧)، من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بالصلاة على النبيِّ كما أمرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كتابه الكريمِ قائلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۗ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

[الأحزاب: ٥٦].

•• k ••



(١٠)

السباق إلى رب البريات

•• k ••

يشتغل كثيرٌ من الناس في بعضِ المواسمِ بسباقِ السيَّارات، والاستماعِ لهديرِ المحرِّكات؛ فتَضِيعُ على إثرِ ذلكِ الأوقات، وتُحرقُ الطاقات، وتَضِيعُ المُقدَّرات، ورُبَّما لم يستفدْ من ذلكِ إلاَّ بعضُ الجيوبِ والحسابات.

لكن نريدُ أن نتحدَّثَ عن السباقِ الحقيقيِّ الذي هو إلى الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**، الذي هو السباقُ الَّذِي أَمَرَنَا اللهُ تعالى به في قوله: ﴿ **فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ﴾ [الذاريات: ٥٠]، والسابقونَ إلى الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** همُ المُقَرَّبونَ المُفْلِحونَ.

وقد خَلَقْنَا اللهُ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** جميعاً لغايةٍ واحدةٍ لا لغيرها، ألا وهي عبادته فقال سبحانه: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ورغبنا في هذه الغاية وحشنا عليها فقال **سُبْحَانَ وَتَعَالَى**: ﴿ **وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ** ﴾ أي: السابقون إليه لا إلى غيره ﴿ **أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ** ﴾ (١١) **فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ** ﴾ [الواقعة: ١٠-١٢].

ويَبِّنُ الحقُّ سبحانه أنَّ الجائزةَ الكُبرى هي من نصيبِ مَنْ ظَفَرَ في هذا السباقِ، ومَنْ فازَ في هذا المِيدانِ، فقال: ﴿ **سَابِقُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ** ﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ **وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ [الحديد: ٢١].

ثُمَّ بَيَّنَّ **سُبْحَانَ وَتَعَالَى** أَنَّ الشغلَ الشاغلَ لِمَنْ سَبَقْنَا مِنْ سَلَفِ الأُمَّةِ كَانَ هذا

السباق، وكيف يفوزون فيه ويظفرون؟ فقال سبحانه: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠-٦١].

فأدركوا المعنى الحقيقي للسباق، وأدركوا المعنى الحقيقي للظفر، وأدركوا المعنى الحقيقي للميدان، وأدركوا المعنى الحقيقي للحلبة، فها هو بلال - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يُقْبَلُ مِنْ جِهَةِ الْحَلْبَةِ - أي: ميدان سباق الخيل - فيُقابله رجلٌ فيقول: يا بلالُ مَنْ سَبَقَ؟ قَالَ بِلَالٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: سَبَقَ الْمُقَرَّبُونَ. قَالَ: يَا بِلَالُ، إِنَّمَا سَأَلْتُكَ عَنِ الْخَيْلِ! قَالَ: أَنْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْخَيْلِ وَأَنَا أُجِيبُكَ عَنِ الْخَيْرِ (١).

إنَّهَا نَظَرَةٌ مُخْتَلِفَةٌ لِمَيْدَانِ السَّبَاقِ وَاللِّظْفَرِ وَاللَّفُوزِ.

وقد قال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ وهو يَنظُرُ إِلَى أَفْوَاجِ النَّاسِ يَخْرُجُونَ مِنْ عَرَفَةَ يُسَابِقُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا يُرِيدُونَ الْوَصُولَ قَبْلَ إِلَى مُزْدَلِفَةَ، فيَقُومُ فِيهِمْ خَطِيئًا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ويقولُ لَهُمْ مُصَحِّحًا لِلْمَفَاهِيمِ: لَيْسَ السَّابِقُ مَنْ سَبَقَ بَعِيرَهُ وَفَرَسَهُ، وَلَكِنَّ السَّابِقَ مَنْ غُفِرَ لَهُ (٢).

إنه تصحيحٌ لهذه الرؤى، فحينما نتكلَّم في هذه الموضوعات؛ نُريدُ أن نُصحِّحَ هذه المفاهيم ونزيلَ هذه الغشاوة عن هذه الأفكار.

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/١٧٢)، وابن بطة في الإبانة (٩/٤٦٣) بمعناه.

(٢) أخرجه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم رقم (١٦٨)، وأبو نعيم في الحلية (٥/٢٩٧).

وليس مَنْ يُضَيِّعُ صَلَاةَ الْجُمُعَةِ سَابِقًا، إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْخَاسِرِينَ الْمُتَخَلِّفِينَ الْهَلَكَةَ الضَّائِعِينَ إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ اللَّهُ تَعَالَى بِرَحْمَةٍ مِنْهُ.

وَبَيْنَ يَدَيْ السَّبَاقِ إِلَى اللَّهِ حَقَائِقُ، مِنْهَا .

الحقيقة الأولى: أَنَّ الْجَمِيعَ يُشَارِكُ فِي هَذَا السَّبَاقِ، فَكُلُّنَا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْمِيدَانِ، مَنْ كَانَ تَحْتَ سِنِّ الْبَلُوغِ يُشَارِكُ مِشَارَكَةً تَجْرِيْبِيَّةً، وَمَنْ كَانَ فَوْقَ الْبَلُوغِ يُشَارِكُ مِشَارَكَةً حَقِيقِيَّةً.

أَمَّا الصَّنْفُ الْأَوَّلُ: فَقَدْ قَالَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - كَمَا جَاءَ فِي (سُنَنِ ابْنِ مَاجَهَ) - مِنْ حَدِيثِ أُمِّنَا عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَ: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَكْبُرَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ، أَوْ يُفِيقَ»^(١).

أَمَّا مَنْ كَانَ فَوْقَ الْبَلُوغِ: فَكُلُّهُمْ فِي هَذَا الْمِيدَانِ يَتَحَرَّكُونَ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَوَقَّفُ فِي مُتَنَصِّفِ الطَّرِيقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْرُجُ مِنَ الْمِيدَانِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَصِلُ مُتَأَخِّرًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَفُوزُ وَيُحَقِّقُ الظَّفَرَ.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو؛ فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتَقُهَا» أَي: مِنَ الْعَذَابِ «أَوْ مُوْبِقُهَا» أَي: فِي الْعَذَابِ؛ فَكُلُّنَا يَتَحَرَّكُ، لَكِنْ هُنَاكَ مَنْ يَفُوزُ، وَهُنَاكَ مَنْ يَهْلِكُ.

الحقيقة الثانية: أَنَّ فِي هَذَا السَّبَاقِ - كَمَا فِي غَيْرِهِ مِنَ السَّبَاقَاتِ - عُنْصَرَ

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: كِتَابَ الْحُدُودِ، بَابُ فِي الْمَجْنُونِ يَسْرِقُ، رَقْمُ (٤٤٠٢)، وَالتِّرْمِذِيُّ: كِتَابَ الْحُدُودِ، بَابُ مَا جَاءَ فِيْمَنْ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ الْحُدُ، رَقْمُ (١٤٢٣)، وَالنَّسَائِيُّ: كِتَابَ الطَّلَاقِ، بَابُ مَنْ لَا يَقَعُ طَلَاقُهُ، رَقْمُ (٣٤٣٢)، وَابْنُ مَاجَهَ: كِتَابَ الطَّلَاقِ، بَابُ طَلَاقِ الْمَعْتُوهِ، رَقْمُ (٢٠٤٢)، مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الوقت، وهو مهم، فالثواني تُقدَّر، وما هو أقلُّ من الثواني يُقدَّر أيضًا ويُحسب، ورسول الله ﷺ أصل لهذا الوقتِ فقال: «اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»^(١).

إنه اهتمام بالوقت؛ لذا قال الحسنُ البصريُّ **رَحِمَهُ اللهُ**: أدركت أقواما كانوا على أوقاتهم أشدَّ منكم حرصا على دراهمكم ودنانيركم؛ ثم قال **رَحِمَهُ اللهُ**: يا ابن آدم إننا أنت أيام مجموعة - مثل: الروزنامة - يا ابن آدم، إننا أنت أيام مجموعة، كلما ذهب يوم ذهب بعضك^(٢). أي: حتى تنتهي هذه الروزنامة.

لهذا فحينما تقرأ في سير سلف الأمة تجد أنهم كانوا حريصين على الوقت فلا يضيعون منه شيئا؛ لأنهم يدركون أن عنصر الوقت في هذا السباق مهم.

الحقيقة الثالثة: لا سبق ولا ظفر للغافلين، فالغافل الذي تشغله الألوان، ويشغله النظر في المدرجات، ويعبث في الخطوط، سينحرف به الطريق، ويضيع، فلا مكان للغافلين هناك على منصبة التتويج.

ولا يمكن أن يصعد منصبة التتويج هؤلاء الغافلون، فقد قال الحق سبحانه:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢)، وابن أبي شيبة (١٩ / ٥٨)، والنسائي في الكبرى رقم (١١٨٣٢)، من حديث عمرو بن ميمون مرسلًا. وأخرجه الحاكم (٤ / ٣٠٦)، والبيهقي في

الشعب رقم (٩٧٦٧)، من حديث ابن عباس **رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا**.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (١٥٨٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢ / ١٤٨).

[الأعراف: ١٧٩].

وحتى في سباق الدنيا يسبق الغافل، ولا يظفر اللاهي، قال الله تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ**﴾ (٧) **أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴿ [يونس: ٧-٨].

فالسباق يحتاج إلى الجادين فقط، وقد قال رسول الله ﷺ وهو يبعث الهمم، ويجعلها عالية: «**إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا**»^(١) أي: فإن كان يرى الساعة تقوم، فإن شرعنا يقول له: اغرس ما في يدك.

فإن تساءل العقل وقال: ما الفائدة؟!

قلت: هذا الذي حصل لأبي الدرداء - **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** - حين مرَّ به رجلٌ وهو يغرسُ جوزةً، فقال له: أتغرسُ هذه وأنت شيخٌ كبيرٌ، تموتُ غداً، أو بعدَ غدٍ، وهذه لا تُطعمُ إلا في كذا وكذا عاماً؟!

فقال له أبو الدرداء **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** - الذي تخرَّج بين يدي النبي ﷺ، فاتضحَت عنده المفاهيم، وتحدت الروية -: وما عليَّ أن يكون لي أجرها ويأكل منها غيري^(٢).

الحقيقة الرابعة: أن العبرة في هذا السباق بقوة المحرك وسلامته، ولا محرك إلا القلب، فكلما قوي القلب وكان سليماً؛ كان الظفر والفوز في هذا السباق

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٨)، وابن أبي الدنيا في العمر والشيب (٩١) بمعناه.

(٢) انظر: شرح السنة للبعوي (٦/١٥١).

لصاحبه، وتدبر بعض الآيات:

ها هو نبي الله إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿الشعراء: ٨٧-٨٩﴾. إنه يريد قلباً سليماً، ومحركاً سليماً.

والله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُنْفِقِينَ غَيْرَ بِعِيدٍ﴾ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَتَمَ الرَّحْمَنُ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَكُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿ق: ٣١-٣٥﴾.

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(١). أي: موضع نظر الرب إلى هذا المحرك الذي يُحركنا، فلا بد أن نعتني بقوة هذا المحرك وسلامته، فنزيل عنه ما يلحق الضرر به.

وفي (صحيح البخاري) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً» وهي المحرك «إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(٢).

فالذي ينبغي للعبد أن يكون متحرراً له جازماً عليه: أن يعرف كيف يصلُ؟ وإلى أين يصلُ؟ وأن يحظى بأعلى منصات التتويج.

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلوة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، رقم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

هذا وصلُّوا وسلِّموا -رحمكم الله- على نبيِّ الهدى والرحمة محمد بن عبد
الله، كما أمر الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى
النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

•• k ••

K

K

(١١)

حُسْنُ الْخَلْقِ

•• k ••

جاء في (صحيح البخاري) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا ذر رضي الله عنه قبل أن يسلم حينما سمع بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يعرف ويتعرف على رسالته التي بُعثت من أجلها، فأرسل أخاه إلى مكة يستطلع الخبر، فجاء هذا الأخ فنظر في النبي صلى الله عليه وسلم ونظر إلى دعوته واستمع إلى ما يقول، فرجع إلى أبي ذر فقال له: رأيتُه يأمر بمكارم الأخلاق.

فخرج أبو ذر رضي الله عنه حتى وصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأعلن إسلامه ^(١)، وكان من السابقين، إذ تذكر كتب التاريخ أنه رابع أو خامس المسلمين إسلامًا، حرَّكه ما سمعه من أخيه، حينما قال: كان يأمر بمكارم الأخلاق.

نعم، إن من الغايات العظيمة التي بُعثت من أجلها نبينا صلى الله عليه وسلم إصلاح ما فسد من أخلاق أهل ذلك الزمان وما يتبعه من أزمته.

وقد بُعث صلى الله عليه وسلم لإخراج الناس من ظلمات الشرك والكفر إلى نور الإسلام وعدله.

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب إسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، رقم (٣٨٦١)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه، رقم (٢٤٧٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

ومن هذه الغايات ما قاله رسول الله ﷺ كما جاء في (مسند أحمد): «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(١) وسبحان الله! يُسَلِّمُ أَبُو ذَرٍّ فَيَبْعَثُهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَهْلِ الْيَمَنِ كَمَا جَاءَ فِي (سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ) يَقُولُ: «أَتَقِيَ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتُ، وَأَتَّبِعُ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّحًا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنِ»^(٢).

إِنَّكَ إِذَا تَمَلَّتَ فِي سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ تَجِدُ الْعَجَبَ الْعُجَابَ فِي هَذَا الْبَابِ، فَإِنَّكَ تَجِدُهُ حِينَمَا يُكَبِّرُ فِي صَلَاتِهِ يَسْتَفْتِحُ الصَّلَاةَ قَائِلًا فِي جُمْلَةٍ دُعَاءٍ طَوِيلٍ: «وَاهِدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ» يَقُولُ ذَلِكَ مَنْ قَالَ اللَّهُ فِي شَأْنِهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، يَقُولُهُ الَّذِي قَالَتْ عَنْهُ زَوْجُهُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»^(٣)، وَكَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «وَاهِدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ»^(٤).

وَأَهْمِيَّةُ الْأَخْلَاقِ فِي حَيَاتِنَا تَتَمَثَّلُ فِي هَذِهِ النِّقَاطِ السَّبْعِ:

أولاً: أَنْ هُنَاكَ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بَيْنَ الْإِيمَانِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ؛ فَالْمُؤْمِنُ يَحْمِلُ هَذِهِ الشَّهَادَةَ: حُسْنَ الْخُلُقِ؛ لِذَا نَسَمِعُهُ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ كَمَا جَاءَ فِي (سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ):

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٢/٣٨١)، وَالْبَزَارُ فِي مَسْنَدِهِ (٨٩٤٩) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَاللَّفْظُ لِلْبَزَارِ.

(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ: أَبْوَابُ الْبِرِّ وَالصَّلَاةِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي مَعَاشِرَةِ النَّاسِ، رَقْمُ (١٩٨٧)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ وَقَصْرُهَا، بَابُ جَامِعِ صَلَاةِ اللَّيْلِ وَمَنْ نَامَ عَنْهُ أَوْ مَرَضَ (٧٤٦)، مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ وَقَصْرُهَا، بَابُ الدُّعَاءِ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ وَقِيَامِهِ، رَقْمُ (٧٧١)، مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

«أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»^(١).

وجاء في (سُنن ابن ماجه) من حديث ابن عُمر • أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ أَتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحْمِلُ فِي نَفْسِهِ هَذَا التَّسَاوُلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»^(٢).

إذن السبب الرئيس لأهمية صالح الأخلاق الارتباط الوثيق بين حسن الخلق والإيمان.

ثانيًا: الارتباط الوثيق بين درجة القرب من النبي ﷺ يوم القيامة وحسن الخلق.

فكلما حسنت أخلاقنا اقتربنا من رسول الله ﷺ، وكلما ساءت الأخلاق ابتعدنا عن النبي ﷺ، وكل الفلاح والخير والرشاد أن يكون مجلسك قريباً من مجلس النبي ﷺ، فقد قال كما جاء في حديث جابر • عند الترمذي: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا». أي: ليست العبرة بعدد كم حجة حججت، وغيرها من الطاعات.

نعم، كل ذلك حسن ومطلوب، لكن الذي ليس بحسن أن يأتي الناس بالطاعات وحسن الخلق، ويأتي هذا المسكين وهو صفر في هذا الباب «وَأَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ، وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرَنَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، رقم (٤٦٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، رقم (٤٢٥٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَالْمُتَّقِيَهُقُونَ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْنَا الشَّرَّارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا الْمُتَّقِيَهُقُونَ؟ قَالَ: «الْمُتَكَبِّرُونَ»^(١) وهذا سوءُ خلق.

ثالثاً: حُسنُ الخلقِ أثقلُ ما يُوضَعُ في الميزانِ.

فحينما يقفُ العبادُ يومَ القيامةِ بينَ يديِ الربِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تُوضَعُ الموازينُ، ويؤتَى بالأعمالِ لها هيئةٌ جسديَّةٌ، فتوضَعُ في الميزانِ، ويوضَعُ ابنُ آدمَ في الميزانِ، ويوضَعُ حُسنُ الخلقِ في الميزانِ، قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف: ٨-٩].

وقال في سورة الأنبياء: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقد قال رسولُ اللهِ ﷺ في حديثِ أبي الدرداءِ • عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ: «مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَدِيءَ»^(٢). فأثقلُ ما يُوضَعُ في الميزانِ خلقُ حسنٌ.

رابعاً: حُسنُ الخلقِ أسرعُ المطايا، وأفضلُ المطايا.

فكلُّ عبدٍ في سيره إلى الله يَتَّخِذُ مَطِيَّةً؛ فلانٌ يَتَّخِذُ مَطِيَّةَ النَّسَبِ، وفلانٌ يَتَّخِذُ

(١) أخرجه الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق، رقم (٢٠١٨)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، رقم (٢٠٠٢)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مَطِيَّةَ الْحَسْبِ، وَفَلَانٌ يَتَّخِذُ مَطِيَّةَ الْمَالِ وَالْجَاهِ، وَفَلَانٌ يَتَّخِذُ مَطِيَّةَ الصَّلَاةِ، وَفَلَانٌ يَتَّخِذُ مَطِيَّةَ الصِّيَامِ، وَفَلَانٌ يَتَّخِذُ مَطِيَّةَ الزَّكَاةِ، وَخَامِسٌ وَسَادِسٌ يَتَّخِذُونَ مَطَايَا، وَيَأْتِي صَاحِبُنَا هَذَا فَيَتَّخِذُ مَطِيَّةَ حُسْنِ الْخُلُقِ؛ فَيُدْرِكُ هَؤُلَاءِ وَلَعَلَّهُ يَسْبِقُهُمْ جَمِيعًا.

فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا جَاءَ فِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ): «وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»^(١)، وَمِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ حُسْنُ الْخُلُقِ؛ لِذَا قَالَ ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»^(٢)؛ فَهُوَ قَدْ أَخَذَ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ مَطِيَّةً.

خَامِسًا: حُسْنُ الْخُلُقِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا.

فَقَدْ جَاءَ فِي (مُسْنَدِ أَحْمَدَ) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلَا عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا: حِفْظُ أَمَانَةٍ، وَصِدْقُ حَدِيثٍ، وَحُسْنُ خَلِيقَةٍ، وَعِقَّةٌ فِي طُعْمَةٍ»^(٣) وَكُلُّهَا فِي دَائِرَةِ حُسْنِ الْخُلُقِ.

سَادِسًا: حُسْنُ الْخُلُقِ أَكْثَرُ مَا يَجْذِبُ قُلُوبَ الْآخَرِينَ لَكَ.

فَكَلَّمَا حُسْنَتْ أَخْلَاقُنَا انْجَذَبَ الْآخِرُ إِلَيْنَا، وَتَدَبَّرَ قَوْلَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ فَطَا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوهُ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٥٩].

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الذِّكْرِ وَالِدُعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، بَابُ فَضْلِ الْجَمْعِ عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَعَلَى الذِّكْرِ، رَقْمُ (٢٦٩٩)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الْأَدَبِ، بَابُ فِي حُسْنِ الْخُلُقِ، رَقْمُ (٤٧٩٨)، مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٧٧/٢)، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

هذا هو النبي ﷺ الذي أيده الله بالرسالة والنبوة، والمعجزات والكرامات، والسيرة الحسنة في قومه، ومع ذلك لو كان فظاً غليظ القلب لانفضوا من حوله. وقد قال الأول:

أَحْسِنُ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدُ قُلُوبَهُمْ فَطَالَ اسْتِعْبَادَ الْإِنْسَانَ إِحْسَانُ

سابعاً: بحسن الخلق تُعمرُ الديارُ، ويزادُ في الأعمارِ.

فقد جاء في حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا كما جاء في (مسند أحمد) أن النبي ﷺ قال: «وَصَلَّةُ الرَّحِمِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ، وَحُسْنُ الْجَوَارِ، يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ»^(١).

وبالتالي فمن ساء خلقه واجتمعت في قلبه مساوئ الأخلاقِ قَصُرَتْ أعمارُهُم وخربَت ديارُهُم؛ لذا وقفَ ﷺ وقال: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُمَمٍ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ»^(٢).

هذا وصلُّوا وسلِّموا -رحمكم الله- على نبيِّ الهدى والرحمة محمد بن عبد الله كما أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كتابه الكريم قائلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

• • k • •

(١) أخرجه أحمد (١٥٩/٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه أحمد (٣٨١/٢)، والبخاري في مسنده (٨٩٤٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، واللفظ للبخاري.



(١٢)

من أسرار الفاتحة

•• k ••

هَلْ تَفَكَّرْتَ يَوْمًا مَا السَّرُّ فِي تَكَرِيرِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ فِي كُلِّ صَلَاةٍ بِحَيْثُ «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»^(١) وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهَا؟ هَلْ تَأَمَّلْتَ يَوْمًا، لِمَاذَا تَقْرَأُ سُورَةَ الْفَاتِحَةِ فِي كُلِّ يَوْمٍ عَلَى أَقَلِّ تَقْدِيرٍ سَبْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً؟ هَلْ خَطَرَ بِبَالِكَ أَنَّ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ أَسْرَارًا لَمْ يَقِفْ عَلَيْهَا كَثِيرٌ مِنَّا؟

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كما جاء في (مجموع الفتاوى): وهذه السورة -يقصدُ سورةَ الْفَاتِحَةِ- هي أُمُّ الْقُرْآنِ، وهي فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وهي السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، وهي الشَّافِيَةُ، وهي الْوَاجِبَةُ فِي الصَّلَاةِ؛ لَا صَلَاةَ إِلَّا بِهَا، وهي الْكَافِيَةُ تَكْفِي مِنْ غَيْرِهَا وَلَا يَكْفِي غَيْرُهَا عَنْهَا^(٢).

والأسرارُ في سورةِ الْفَاتِحَةِ متعدِّدةٌ، منها:

السَّرُّ الْأَوَّلُ: أَنَّكَ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ مِنْهَا إِلَّا أُعْطِيَتْهُ. أي: إِلَّا أُعْطِيَتْ مَا سَأَلْتَ اللهُ فِيهِ، فَقَدْ جَاءَ فِي (صحيح مُسلم) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ -النَّقِيضُ هُوَ صَوْتُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، رقم (٧٥٦)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٤)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) مجموع الفتاوى (٥/١٤).

الباب - فَرَفَعَ رَأْسَهُ - أي: جبريل - فَقَالَ: «هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ، لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ جِبْرِيلُ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزَلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَجَاءَ فَسَلَّمَ فَقَالَ لِنَبِيِّنَا ﷺ: أَبَشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيْتَهُمَا لَمْ يُؤْتِيْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيْتَهُ»^(١).

وهذا أمرٌ عظيمٌ، فمع تكرار هذه السورة لا تشعر أنك مللت منها، تقرؤها في كل يوم على أقل تقدير سبع عشرة مرة، ولا تشعر أنك ضجرت منها، وكلما سألت الله فيها من دعاءٍ أُعطيته.

السُّرُّ الثَّانِي: أمُّ القرآن، وأمُّ الكتاب، فقد جمعت سورة الفاتحة كل ما في القرآن الكريم من الوصايا والأصول والأسس التي أنزلها الله تبارك وتعالى وذكرها في كتابه؛ لذا قال رسول الله ﷺ كما جاء في (سنن أبي داود) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُمَّ الْقُرْآنِ، وَأُمُّ الْكِتَابِ، وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي»^(٢).

السُّرُّ الثَّلَاثُ: أمُّ أعظم سورة في كتاب الله، فقد قال أبو سعيد بن المعلى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَلَمَّا فَرَعْتُ مِنْ صَلَاتِي قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كُنْتُ أُصَلِّي. قَالَ: «أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]». ثُمَّ قَالَ: «لَأَعْلَمَنَّكَ سُورَةٌ هِيَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الفاتحة، وخواتيم سورة البقرة، والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة، رقم (٨٠٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٢) أخرجه أبو داود: باب تفريع أبواب الوتر، باب فاتحة الكتاب، رقم (١٤٥٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَعْظَمُ السُّورِ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ». قال: ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْتَ: لِأَعْلَمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ، قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ»^(١) فهي أعظم سورة في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

السُّرُّ الرَّابِعُ: أَمَّا سُورَةُ الْمُنَاجَاةِ؛ فَقَدْ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَالْحَدِيثُ رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي (صَحِيحِهِ) -: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ» وَالْمَقْصُودُ بِالصَّلَاةِ هُنَا سُورَةُ الْفَاتِحَةِ، «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمْدِي عَبْدِي» قَالَ: «فَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَتْنِي عَلَيَّ عَبْدِي. فَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مَجْدِي عَبْدِي. أَوْ قَالَ: فَوَضَّ إِلَيَّ. فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»^(٣).

فَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُنَاجِيكَ وَتُنَاجِيهِ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ أَسْرَارِهَا.

السُّرُّ الْخَامِسُ: أَمَّا الشَّافِيَّةُ، فَقَدْ سَمَّاها رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رُقِيَّةً، كَمَا جَاءَ فِي

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي فَاتِحَةِ الْكِتَابِ، رَقْمٌ (٤٤٧٤)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمَعْلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ وَجُوبِ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، رَقْمٌ (٣٩٥)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(صحيح البخاري) أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ خَرَجُوا فِي سَفَرٍ فَمَرُّوا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، فَأَرَادُوا أَنْ يَبْقُوا عِنْدَهُمْ فَمَنَعَ هَذَا الْحَيُّ ضِيَاغَةَ هَؤُلَاءِ الصَّحَابَةِ فَجَلَسُوا بَعِيدًا عَنْهُ، فَيُقَدَّرُ اللَّهُ أَنْ يُلْدَغَ سَيِّدُ هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْعَرَبِ، فَيَبْحَثُوا لَهُ عَنْ عِلَاجٍ وَدَوَاءٍ وَشِفَاءٍ، فَمَا وَجَدُوا لَهُ، فَأَشَارَ عَلَيْهِمْ أَحَدُهُمْ أَنْ قَوْمُوا إِلَى هَؤُلَاءِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ لَعَلَّكُمْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ شَيْئًا، فَجَاؤُوا وَهُمْ فَقَالُوا: هَلْ نَجِدُ عِنْدَكُمْ مِنْ شِفَاءٍ لِسَيِّدِنَا؟ قَالَ بَعْضُهُمْ: نَعَمْ، أَنَا رَاقٍ، وَلَكِنْ لَنْ أَرْقِيَهُ حَتَّى تُصَالِحُونِي عَلَى جَعَلٍ -أَي: تُعْطُونِي شَيْئًا مُقَابِلَ هَذِهِ الرَّقِيَّةِ- فَصَالِحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنَ الْغَنَمِ. قَالَ: فَجِئْتُهُ فَجَعَلْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ وَأَتْفُلُ، وَأَقْرَأُ سُورَةَ الْفَاتِحَةِ وَأَتْفُلُ، حَتَّى قَامَ كَأَنَّمَا نُشِطُ مِنْ عِقَالٍ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ^(١).

فَكُنْ رَاقِيًا لِنَفْسِكَ، فَإِذَا شَعَرْتَ بِالْأَلَمِ، أَوْ بِمَرَضٍ، أَوْ بِعِلَّةٍ، أَقْرَأْ عَلَى نَفْسِكَ الْفَاتِحَةَ، فَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثٍ خَارِجَةٍ بِنِ الصَّلَاتِ التَّمِيمِيِّ عِنْدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَالْحَدِيثُ عِنْدَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ فِي (مُسْنَدِهِ) - أَنَّهُ خَرَجَ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَمَرَّ عَلَى قَوْمٍ مَعَهُمْ رَجُلٌ مَعْتَوَهُ مَوْثُوقٌ بِالْقَيْدِ، فَقَالُوا لَهُ: تَقْرَأُ عَلَى صَاحِبِنَا، أَوْ تَرْقِي صَاحِبِنَا. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الصَّبَاحِ وَفِي الْمَسَاءِ، فَقَامَ لَمْ يَكُنْ بِهِ بَأْسٌ، فَأَعْطُونِي مِئَةً مِنَ الشِّيَاهِ، فَجِئْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ بِهَذَا الْخَبَرِ قَالَ: «خُذْهَا، فَلَعَمْرِي، مَنْ أَكَلَ بِرُقِيَّةٍ بَاطِلٍ، فَلَقَدْ أَكَلَتْ بِرُقِيَّةً حَقًّا»^(٢).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية، رقم (٢٢٧٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية، رقم (٢٢٠١)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود: أبواب الإجارة، باب في كسب الأطباء، رقم (٣٤٢٠)، من حديث خارجه بن الصلت، عن عمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

السُّرُّ السَّادِسُ: أَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْ لَا صَلَاةَ بِغَيْرِ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ»^(١).

وقد جاء في (صحيح مسلم) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِأُمَّ الْقُرْآنِ»، أَوْ قَالَ: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمَّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ» يُرَدُّ ذَلِكَ ثَلَاثًا، قِيلَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ فَقَالَ: أَفْرَأُ بِهَا فِي نَفْسِكَ^(٢).

وتعددت الأحاديث في هذا الموضوع أنه «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ» إِنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى قِرَاءَتِهَا.

وبالرغم من هذا الخير العظيم الذي ذكره رسول الله ﷺ، وهذه الأجور المتتابعة في هذه السورة إلا أنك تجد عددًا من الناس ليس بالقليل لا يعلم ما في سورة الفاتحة من أفضال، ولا يعلم ما فيها من الأجور، وربما أحدث بدعًا من نفسه ونسبها إلى الشرع المطهر، من ذلك:

* أُنِّهْمْ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَعْقِدُوا عَقْدَ قِرَانٍ لَا يَعْقِدُونَهُ إِلَّا بِقِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهَذَا بَاطِلٌ لَمْ تَأْتِ بِهِ الشَّرِيعَةُ، فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَعْقِدَ عَقْدَ قِرَانٍ قَالَ: لِنَقْرَأَ الْفَاتِحَةَ. وَهَذَا مِنَ الْبِدْعِ الَّتِي لَمْ يَأْتِ بِهَا نَبِيُّنَا ﷺ.

* وَكَذَلِكَ إِذَا ذُكِرَ فَلَانٌ مِمَّنْ مَاتَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَالَ أَحَدُهُمْ: الْفَاتِحَةَ عَلَى رُوحِ فَلَانٍ. وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبِدْعِ الَّتِي لَمْ يَأْتِ بِهَا نَبِيُّنَا ﷺ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، رقم (٧٥٦)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٤)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة، رقم (٣٩٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* وكذلك مَنْ عَقَدَ صَفْقَةً تِجَارِيَةً وَأَرَادَ أَنْ يَمْضِيَ فِيهَا قَالَ لِمَنْ عَاقَدَ: لِنَبْدَأُ بِقِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ. وَيَتَصَافَحَانِ، وَهَذَا لَيْسَ مِنَ الدِّينِ، بَلْ هُوَ أَيْضًا مِنَ الْبِدْعِ الَّتِي أَحَدَّثَهَا النَّاسُ.

وهذا مِنْ عَجِيبِ أَمْرِهِمْ أَنَّهُمْ يَتْرُكُونَ هَذِهِ الْأَسْرَارَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي آتَى بِهَا الشَّرْعُ الْمُطَهَّرُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّنَا ﷺ، ثُمَّ يَلْجَأُونَ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الْبِدْعِ الَّتِي لَا يَتَحَصَّلُ مِنْهَا إِلَّا الْوِزْرُ وَالْآثَامُ.

هَذَا وَصَلُّوا وَسَلَّمُوا - رَحِمَكُمُ اللَّهُ - عَلَى نَبِيِّ الْهُدَى وَالرَّحْمَةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ الْكَرِيمُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ قَائِلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].



(١٣)

أسرار التسمية

•• k ••

تحدّثنا فيما مضى عن بعض أسرار سورة الفاتحة، وهي من جملة الأذكار التي تطمئنُّ بها القلوب، وحديثنا هنا عن أسرار أخرى احتواها ذكر آخر، نُردِّده في صباحنا ومساءنا، ولعلَّ بعضنا لا يدرك ما فيه من الأسرار.

إنَّه الذكر الذي سهل على الألسن ولم يصعب على كبير ولا صغير، إنَّه بسم الله، وقد جعل الله تبارك وتعالى في هذا الذكر أسراراً، وجعل له مواقع وأوقافاً وفضائل وأحكاماً.

والتسمية: يُقصدُ بها هذه اللفظة «بِسْمِ اللَّهِ» بخلاف البسملة فإنه يُقصدُ بها: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

وفي التسمية أحكامٌ وأسرارٌ كثيرةٌ نقفُ عند بعضها، من ذلك:

السرُّ الأول: إنَّه خيرٌ ما يُختمُ بـ«بِسْمِ اللَّهِ»، فخيرٌ ما تَختمُ يومك بـ«بِسْمِ اللَّهِ»، وقد كان رسولُ الله ﷺ يجعلُ في عبارته التي يُختمُ بها هذه الجملة: «بِسْمِ اللَّهِ».

وقد جاء في حديثٍ حُذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -عند البخاري- قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَنَامَ قَالَ: «بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أَمُوتُ وَأَحْيَا»^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا أصبح، رقم (٦٣٢٤)، من حديث حذيفة

وفي حديث أبي هريرة - أيضاً عند البخاري - قال رسول الله ﷺ: «إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْهُ بِصِنْفَةٍ تَوْبِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَلْيَقُلْ: بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتَ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكَتَ نَفْسِي فَاغْفِرْ لَهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاَحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ»^(١).

وجاء في (سُنن أبي داود) من حديث أبي الأزهر الأنباري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ مِنَ اللَّيْلِ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ وَضَعْتُ جَنْبِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، وَأَخْسِئْ شَيْطَانِي، وَفُكَّ رَهَائِي، وَاجْعَلْنِي فِي النَّدِيِّ الْأَعْلَى»^(٢).

هذه ثلاثة أذكار يُحْتَمُّ بها، اكتنفت هذه اللفظة العظيمة «بِسْمِ اللَّهِ» أو «باسمك اللهم» أو «باسمك ربّي».

السُّرُّ الثَّانِي: أَنَّ «بِسْمِ اللَّهِ» حِجَابٌ لَا يُخْتَرَقُ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَنْبَغِي ءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوْءَ تِكُمْ وَرِيشًا ۗ وَلِبَاسُ النُّقُوتِ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكِ مِنْ ءَايَتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٣١﴾ يَنْبَغِي ءَادَمَ لَا يَفْنِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرِنُّكُمْ ﴿٣٢﴾ أَيِ: الشَّيْطَانُ ﴿هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا رُؤُوسَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٦-٢٧].

فجاءت «بِسْمِ اللَّهِ» لتكون ساتراً بيننا وبين أعين الجن؛ أخبرنا بذلك نبينا

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، رقم (٧٣٩٣)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب أبواب النوم، باب ما يقال عند النوم، رقم (٥٠٥٤)، من حديث أبي الأزهر الأنباري.

ﷺ، فقد جاء في (معجم الطبراني الأوسط) من حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «سَتْرُ مَا بَيْنَ أَعْيُنِ الْجِنَّ وَعَوْرَاتِ بَنِي آدَمَ إِذَا وَضَعُوا ثِيَابَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: بِسْمِ اللَّهِ»^(١).

وَمَنْ مَنَّا لَا يَضَعُ ثِيَابَهُ؟! وَمَنْ مَنَّا لَا يَتَعَرَّى؟! فَحَتَّى لَا يَرَاكَ الْجِنُّ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَاهُ قُلْ: «بِسْمِ اللَّهِ». وَضَعُ ثِيَابِكَ، فَهَذَا سِرٌّ عَظِيمٌ، بَلْ جَاءَ فِي حَدِيثِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَتْرُ مَا بَيْنَ أَعْيُنِ الْجِنَّ وَعَوْرَاتِ بَنِي آدَمَ إِذَا دَخَلَ أَحَدُهُمُ الْخَلَاءَ أَنْ يَقُولَ: بِسْمِ اللَّهِ»^(٢)، وَهُوَ سِرٌّ ثَانٍ.

السِّرُّ الثَّلَاثُ: مَا جَاءَ فِي (سُنَنِ ابْنِ مَاجَهَ) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ الْوُضُوءَ لَا يَصِحُّ إِلَّا بِ«بِسْمِ اللَّهِ»، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا وُضُوءَ لَهُ، وَلَا وُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ»^(٣).

فَمَنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى التَّسْمِيَةِ عِنْدَ الْوُضُوءِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي خَلَاءٍ فَإِنَّ وُضُوءَهُ لَا يَصِحُّ بِدُونِهَا.

السِّرُّ الرَّابِعُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ: «إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يُقَالُ حَيْثُ دُهِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ. فَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ،

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٥٠٤) من حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الجمعة، باب ما ذكر من التسمية عند دخول الخلاء، رقم (٦٠٦)، من حديث علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب في التسمية على الوضوء، رقم (١٠١)، وابن ماجه: كتاب الطهارة، باب ما جاء في التسمية في الوضوء، رقم (٣٩٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانُ آخَرَ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟»^(١).

فمن قال حين خُروجِه من بيته: بِسْمِ اللَّهِ. شَمَلَهُ هَذَا السَّرُّ الْعَظِيمُ: هِدَايَةٌ، وَكِفَايَةٌ، وَوَقَايَةٌ، فَإِذَا خَرَجَ فِي عَمَلِهِ، كَأَن يَكُونُ فِي صَيْدٍ يُقَالُ لَهُ: صَيْدُكَ هَذَا لَا يَحِلُّ إِلَّا بِ«بِسْمِ اللَّهِ» فَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ ۗ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ۗ وَأَنْقُتُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤].

وقال رسولُ الله ﷺ - كما جاءَ في (صحيحِ مُسلمٍ) مِن حَدِيثِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «إِذَا أُرْسِلْتَ كَلْبَكَ الْمُعَلَّمِ، وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلْ»^(٢).

ف«بِسْمِ اللَّهِ» يَحِلُّ لَكَ بِهَا هَذَا الطَّعَامُ الَّذِي تَصِيدُهُ، وَإِذَا أَرَدْتَ تَذَكِيَةَ ذَبِيحَةٍ لَمْ تَصِدْهَا فَسَمِّ عَلَيْهَا، فَإِن لَمْ تُسَمِّ عَلَيْهَا فَلَا تَأْكُلْ مِنْهَا؛ فَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخَذَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّدُوا لَهُمْ ۗ وَإِن أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وَجَاءَ فِي (صحيحِ البخاريِّ) مِن حَدِيثِ جُنْدَبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «فَلْيَذْبَحِ بِسْمِ اللَّهِ»^(٣)، فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَأْكَلَ فَقُلْ: «بِسْمِ اللَّهِ»؛ ففِيهَا سِرٌّ عَظِيمٌ.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب ما يقول إذا خرج من بيته، رقم (٥٠٩٥)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا خرج من بيته، رقم (٣٤٢٦)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب ما جاء في التصيد، رقم (٥٤٨٧)، ومسلم: كتاب الصيد والذبائح، باب الصيد بالكلاب المعلمة، رقم (١٩٢٩)، من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب العيدين، باب كلام الإمام والناس في خطبة العيد، رقم (٩٨٥)، ومسلم: كتاب الأضاحي، باب وقتها، رقم (١٩٦٠)، من حديث جندب بن سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد قال عمرُ بنُ أبي سلمة، وكانَ غُلامًا صغيرًا يجلسُ في حجرِ النبي ﷺ كما صحَّت الروايةُ في (صحيح البخاري): كانت يدي تطيشُ في الصَّحْفَةِ -أَكُلُ من هنا وأَكُلُ من فوق- قالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يَا غُلامُ، سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ»، قال عمرُ بنُ أبي سلمة: فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طُعْمَتِي بَعْدُ^(١).

أتساءلُ وإياكم عبادَ الله، لماذا نقولُ: بِسْمِ اللَّهِ. على الطعامِ؟

والتَّسْمِيَةُ على الطعامِ لأجلِ ما جَاءَ في (صحيح مُسلم) من حديثِ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيثُ قالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ على طَعَامٍ، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ كَأَنَّهَا تُدْفَعُ لِتَضَعَ يَدَهَا فِي الطَّعَامِ، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهَا، ثُمَّ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ كَأَنَّهُ يُدْفَعُ، فَذَهَبَ لِيَضَعَ يَدَهُ فِي الطَّعَامِ فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ فَقَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لَا يُذَكَّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ جَاءَ بِهَذِهِ الْجَارِيَةِ لِيَسْتَحِلَّ بِهَا، فَأَخَذْتُ بِبِيَدِهَا، وَجَاءَ بِهَذَا الْأَعْرَابِيِّ لِيَسْتَحِلَّ بِهِ، فَأَخَذْتُ بِبِيَدِهِ»^(٢) وهذا مَشْهُدٌ يَسْتَحِقُّ الإيضاحَ، فأوضحَ النبي ﷺ ما أشكلَ على الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

السُّرُّ الخَامِسُ: أَتَمَّا علاجُ ربانيُّ استخِدمَهُ النبي ﷺ، فكانَ مِنْ عَادَتِهِ ﷺ إِذَا جَاءَ إِلَى المَرِيضِ وَضَعَ إِصْبَعَهُ فِي رِيقِهِ وَأَخَذَ مِنْ رِيقِهِ وَوَضَعَهُ فِي التُّرَابِ، ثُمَّ وَضَعَهُ عَلَى المَرِيضِ وَقَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ، تَرَبُّهُ أَرْضِنَا، بِرِيقَةٍ بَعْضِنَا، يُشْفَى سَقِيمُنَا،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأَطْعَمَةِ، باب التَّسْمِيَةِ على الطَّعَامِ والأَكْلِ باليَمِينِ، رقم (٥٣٧٦)، ومُسلم: كتاب الأَشْرِبَةِ، باب آدابِ الطَّعَامِ والشَّرَابِ وأَحْكَامِهَا، رقم (٢٠٢٢) من حديثِ عمر بن أبي سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مُسلم: كتاب الأَشْرِبَةِ، باب آدابِ الطَّعَامِ والشَّرَابِ وأَحْكَامِهَا، رقم (٢٠١٧) من حديثِ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بِإِذْنِ رَبِّنَا»^(١)؛ فيشفى المريض.

وقد جاء جبريل إلى النبي ﷺ فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ، اشْتَكَيْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنٍ أَوْ حَاسِدٍ، اللَّهُ يَشْفِيكَ»^(٢).

السِّرُّ السَّادِسُ: أَنَّ «بِسْمِ اللَّهِ» تُقَالُ عِنْدَ الْبَلَاءِ وَالْمَصَائِبِ، صَغُرَتْ هَذِهِ الْمَصَائِبُ أَوْ عَظُمَتْ، فَقَدْ كَانَ رَجُلٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الدَّابَّةِ فَتَعَثَّرَتِ الدَّابَّةُ بِهِمَا فَقَالَ الْمَرْدُوفُ: تَعَسَّ الشَّيْطَانُ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ - وَالْحَدِيثُ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ -: «لَا تَقُلْ: تَعَسَّ الشَّيْطَانُ. وَلَكِنْ قُلْ: بِسْمِ اللَّهِ. فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَعَاظَمَ - أَيِ: الشَّيْطَانُ - حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الْبَيْتِ، وَيَقُولُ: بِقُوَّتِي - أَيِ: بِقُوَّتِي صَنَعْتُهُ - وَلَكِنْ قُلْ: بِسْمِ اللَّهِ. فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَصَاغَرَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الدُّبَابِ»^(٣). فَلَا تَقُلْ: تَعَسَّ الشَّيْطَانُ.

السِّرُّ السَّابِعُ: إِذَا أَغْلَقْتَ أَبْوَابَكَ فَقُلْ: «بِسْمِ اللَّهِ»؛ فَإِنَّ وَرَاءَ ذَلِكَ سِرٌّ عَظِيمٌ؛ فَقَدْ جَاءَ فِي (صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «فَأَغْلِقُوا الْأَبْوَابَ، وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ بَابًا مُغْلَقًا»^(٤).

- (١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب رقية النبي ﷺ رقم (٥٧٤٥)، ومسلم: كتاب السلام، باب استحباب الرقية من العين رقم (٢١٩٤)، من حديث عائشة .
(٢) أخرجه مسلم: كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى، رقم (٢١٨٦) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب لا يقال خبث نفسي، رقم (٤٩٨٢) عن رجل من أصحاب النبي ﷺ.
(٤) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب: خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال، رقم

السُّرُّ الثَّامِنُ: جاء في (صحيح البخاري) أيضًا أن النبي ﷺ قال: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنَّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنَّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا. فَرُزِقَا وَلَدًا لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ»^(١).

فانظر إلى «بِسْمِ اللَّهِ» كيف تتكرَّر، خُتِمَت بها أذكارُ ذاك النَّائم، وتمضي معه حتَّى عند الجماع.

السُّرُّ التَّاسِعُ: هي خاتمة كلِّ مسلمٍ، بل كلِّ إنسانٍ، فقد كان رسولُ الله ﷺ -كما جاء في حديث ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند ابنِ ماجه- إِذَا وَضَعَ الْمَيِّتَ فِي قَبْرِهِ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ، وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ»^(٢).

فهذا الذِّكْرُ العَظِيمُ الَّذِي اِكْتَنَفَ هذه الأَسْرَارَ العَظِيمَةَ يَحْتَاجُ إلى أَنْ يَتَّبِعَهُ إليه العَبْدُ وَيُرْطِّبَ لِسَانَهُ بِذَلِكَ.

هَذَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا -رَحِمَكُمُ اللَّهُ- عَلَى نَبِيِّ الْهُدَى وَالرَّحْمَةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ الْكَرِيمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ قَائِلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَزِدْ وَبَارِكْ عَلَى عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَاغْرِضْ عَلَيْهِ صَلَاتِنَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

• • k • •

(٤٣٣٠٤)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧١)، ومسلم: كتاب النكاح، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع، رقم (١٤٣٤)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه ابن ماجه: كتاب الجنائز، باب ما جاء في إدخال الميت القبر، رقم (١٥٥٠).



(١٤)

قسوة القلب وعلاجه

• • k • •

كما أنّ الأبدان تمرّض وتعتلُّ فكذلك القلوب تُصابُ بالأمراضِ والعِللِ،
ومن أخطرٍ وأقبحٍ وأعظمِ أمراضِ القلوبِ: القسوةُ، فإذا قسّتِ القلوبُ فهيَ
مريضةٌ بداءِ القسوةِ، وهو من أقبحِ وأعظمِ وأخطرِ الأمراضِ، أن يكونَ القلبُ
قاسياً.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً
وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فِيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ
مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

فالقلبُ القاسي أشدُّ من الحجارة الصمّاءِ، هذا القلبُ الفظُّ الغليظُ، الذي
يَتَنَكَّرُ لجادةِ أبانها الله تبارك وتعالى، يتنكّرُ لشرعِ الله ومنهجه وهديه؛ لذا تجدُ أنّ القلبَ
الذي ينقادُ لأمرِ الله سبحانه يعيشُ في نورٍ ويموتُ في نورٍ.

أمّا القلبُ الذي يتنكّرُ لطريقِ الله وشرعِ الله، ورُبّما يتكبرُ على ذلك؛ فهو
يعيشُ في ظلامٍ وضلالٍ مُبينٍ؛ لذا قال الحقُّ سبحانه وتعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ،
لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ۗ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ۗ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

ثم نجدُ تحذيرَ المؤمنين ألا يكونوا كمن سبقَ من أهلِ الكتابِ الذين قسّت

قلوبهم، فقد الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وقد قال ابن القيم كلمةً ودونها في كتابه (الفوائد) قال: «ما ضربَ عبدٌ بعقوبةٍ أعظمَ من قسوةِ القلبِ والبعدِ عنِ الله!»^(١). فإذا رأيتَ العبدَ قد قسا قلبه فاعلم أنه يعيشُ في عُقوبةٍ، وأنه قد ضربَ بعقوبةٍ هي من أعظمِ العقوباتِ، والبعدِ عنِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وهي ثمرةٌ كما سيأتي بعد قليلٍ.

وكما أن الأمراض التي تعترى الأبدان لها أعراض، فكذلك هذا المرض له أعراض، ومن أعراض قسوة القلوب: عدم رؤية الأشياء على حقيقتها، وتزييف الحقائق، وقلبها وتحريف الكلم عن مواضعه.

فالعبدُ إذا قسا قلبه تغيرت الحقائق أمامه، وتراه يرى الخيرَ شرًّا، ويرى الشرَّ البيِّنَ الواضحَ حقًّا، تراه يتعاطى الباطلَ، ويألفُ الباطلَ، ويعيبُ عليك أن تتمسكَ بالحقِّ، والسببُ هو هذا الغبشُ، وهذا الرانُ الذي علا قلبه!

فقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِّثْقَلَهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَدْسِيَةً﴾ التَّيْجَةُ: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

قال ابن القيم في كتابه (شفاء العليل) وهو يبيِّن أن المرض القسوة آثارًا:

(١) الفوائد (ص ٩٧).

«سبحانه الَّذِي جعلَ بعضَ القلوبِ مُحبِّتًا إليه، وبعضَها قاسيًّا، وجعلَ للقسوةِ آثارًا وللإخباتِ آثارًا، فمن آثارِ القسوةِ تحريفُ الكَلِمِ عن مواضعِهِ، وذلكَ من سُوءِ الفَهمِ، أو سُوءِ القصدِ»^(١).

عَرَضٌ ثانٍ: عدمُ الاعتبارِ بما يَرى مِنَ العِظَاتِ والدروسِ والعِبرِ، يَرى هذا يموتُ أمامَه فلا يَعتبرُ، ويَرى هذا المُتعاظيَ للخمِرِ والمُخدِّراتِ يموتُ ميتةً سيئةً فلا يتعظُّ، ويَرى السارقَ الَّذِي لا يزالُ يسرقُ ويرتفعُ ويرتفعُ ثم تهوي به سريقتُهُ إلى الأرضِ، وينكشفُ سترُهُ، ويَراه في أرذلِ المواقِعِ ولا يَعتبرُ، ويَرى العاقَّ كيفَ آلَ أمرُهُ ولا يَعتبرُ.

وكذلكَ في المجتمعاتِ الَّتِي تَرى المجتمعاتِ الأخرى كيفَ فعَلَ اللهُ بها؛ فقد قال الحقُّ سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾^(٤٢) فلولًا إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٥].

فعليكَ أَنْ تَلْتَفِتَ وَتَنْظُرَ فِي هَذِهِ الدروسِ والعِبرِ الَّتِي تَمُرُّ عَلَيْنَا صباحَ مساءً. **عَرَضٌ ثالثٌ:** أَنَّ القلبَ القاسيَ يَقْبَلُ الشبهةَ، وَيَقْبَلُ الشهوةَ، وَيُرَدُّ الحَقُّ المَبِينَ، فالقلبُ القاسيُ تجدهُ كالإِسْفنجَةِ يَقْبَلُ الشَّهواتِ والشُّبُهاتِ، إِذَا جَاءَهُ الحَقُّ المَبِينُ رَدَّهُ وَتَكَبَّرَ عَلَيْهِ، قال الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سورةِ الحجِّ: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي

(١) شفاء العليل (ص ١٠٦).

الشَّيْطَانُ فِتْنَةٌ لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةُ قُلُوبَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ
بَعِيدٍ ﴿الحج: ٥٣﴾.

فقد جعلها الشيطان مُستودعاً يُلقى فيها شبهاته وشهواته، تلك هي
القلوبُ القاسيةُ عياداً بالله.

فهي أيضاً مستنقعٌ لهذه الشبهات والشهوات، ويردُّ الحقُّ المبين، قال المناويُّ
رَحِمَهُ اللهُ في كتابه (فيض القدير): «القلبُ القاسي لا يقبلُ الحقَّ وإن كثرت
دلائله»^(١). فالقلبُ القاسي لا يقبلُ الحقَّ إلا في حالةٍ واحدةٍ إذا كان معه، وإلا
فالأصل أنه لا يقبلُ الحقَّ وإن كثرت دلائله.

ولعلَّ سائلاً يقول: ما هي أسبابُ قسوةِ القلبِ حتى أهدرها وأجعل بيني
وبينها وقايةً؟

أقولُ كما قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللهُ في كتابه (الوابل الصيب) قال: «وصدأ
القلبُ بأمرين: بالغفلةِ والذنبِ، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفارِ والذكرِ»^(٢).

وبذلك يُعلمُ أنَّ من أسبابِ قسوةِ القلوبِ -وعلى رأسِ هذه الأسبابِ-

السَّبَبُ الأوَّلُ: الغفلةُ عن ذكرِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فأين همُ الذاكرونُ لله؟ بل أين
همُ المكثرونُ من ذكرِ الله؟! ألم يقلِ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ
بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقد أتى رجلٌ للحسنِ رَحِمَهُ اللهُ فقال: يا أبا سعيدٍ، أشكو إليك قسوةَ قلبي.

(١) فيض القدير (١/٩٣).

(٢) الوابل الصيب (ص ٤٠).

فقال: أذبه من الذكر^(١).

فاذكر الله في الصباح، وفي المساء، وفي أطراف النهار والليل، ولا يفتر لسانك عن ذلك.

السبب الثاني - وهو قاصمة الظهر - الذنوب، فإنها إذا كثرت فسا القلب، وبقدر كثرتها يعلو الران على هذا القلب.

وقد جاء في (سنن ابن ماجه) من حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ **ﷺ**: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ فِي قَلْبِهِ**» أي: قلبك صافٍ، ليس فيه شيء من هذه النكت، فإذا وقعت في الذنب نُكْتَتِ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، قَالَ: «**فَإِنْ تَابَ، وَنَزَعَ، وَاسْتَغْفَرَ؛ صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ زَادَ زَادَتْ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** [المطففين: ١٤]»^(٢).

فكلما زادت هذه الذنوب؛ زادت هذه النكت، نُقِطُ سَوْدَاءٌ فِي الْقَلْبِ حَتَّى يَكُونَ رَانَ عَلَى الْقَلْبِ، فَلَا يُبْصِرُ الْحَقِيقَةَ.

لذا قال الحارث المحاسبي **رَحِمَهُ اللَّهُ**: «واعلم أن الذنوب تُورث الغفلة، والغفلة تورث القسوة، والقسوة تورث البعد عن الله، والبعد عن الله يورث النار، وإنما يتفكر في هذا الأحياء، وأمّا الأموات فقد أماتوا أنفسهم بحب الدنيا»^(٣).

(١) أخرجه أحمد في الزهد (١٥١٠)، والخرائطي في اعتلال القلوب (٥٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، رقم (٤٢٤٤) من حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

(٣) رسالة المسترشدين للحارث المحاسبي (ص ١٥٥).

وصدق ابن المبارك حينما قال:

رَأَيْتُ الدُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إِدْمَانَهَا

وَتَرَكْتُ الدُّنُوبَ حَيَاةَ الْقُلُوبِ وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا

كانت هذه أسباب قسوة القلوب.

أما العلاج والمخرج، فلم يتركنا رسول الله ﷺ هكذا، بل أبان لنا المخرج، وسهّل لنا الوصول إليه، وحفّزنا إلى ذلك.

أما المخرج الأول: فهو دونك وبين يديك، وهو أن تدعو ربك أن يلين قلبك، ويذهب قساوته، وقد كان ﷺ يفعل ذلك، فقد جاء في (سنن أبي داود) أن النبي ﷺ كان يدعو فيقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْأَرْبَعِ: مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ»^(١). كان يُردد مثل هذا الدعاء، والشاهد فيه: «وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ».

وقد جاءه شكل بن حميد -أحد الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، علّمني تعوذاً أتعوذُ به، قال: «قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي، وَمِنْ شَرِّ مَنِي»^(٢).

(١) أخرجه أبو داود: باب تفريع أبواب الوتر، باب في الاستعاذة، رقم (١٥٤٨)، والنسائي: كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من نفس لا تشبع، رقم (٥٤٦٧)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب دعاء الرسول ﷺ، رقم (٣٨٣٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود: باب تفريع أبواب الوتر، باب في الاستعاذة، رقم (١٥٥١)، والترمذي: أبواب الدعاء، رقم (٣٤٩٢)، والنسائي: كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من شر البصر، رقم (٥٤٥٦)، من حديث شكل بن حميد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نعم، إنه مخرج بين يديك الآن، وأنت قائم أو قاعد أو ساجد قل: يا رب أسألك أن تُنجيني من قساوة القلب.

المخرج الثاني: وهو العناية الحقيقية باليتيم، لا الشكلية، فقد جاء في (معجم الطبراني): أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ يشكو قسوة قلبه، فقال له النبي ﷺ: «أُحِبُّ أَنْ يَلِينْ قَلْبُكَ وَتُدْرِكَ حَاجَتَكَ؟ اِرْحَمِ الْيَتِيمَ، وَامْسَحْ بِرَأْسِهِ، وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ؛ يَلِينْ قَلْبُكَ، وَتُدْرِكَ حَاجَتَكَ»^(١).

المخرج الثالث: اذهب إلى المقابر دون أن تكون هناك جنازة، انظر إلى هذه القبور، فإن ذلك سبب رئيس في ذهاب قسوة قلوبنا، فتدبر ما جاء في (مسند أحمد) أن النبي ﷺ قال: «مَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، ثُمَّ بَدَأَ لِي أَنَّهَا تُرِقُّ الْقَلْبَ، وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ، وَتُدَكِّرُ الْآخِرَةَ، فَزُورُوهَا»^(٢).

هذه المخارج لم يقلها النبي ﷺ عبثاً ولا ترفاً، ولا لتبقي حبيسة صفحات الكتب، لا، وإنما قالها لتكون منهجاً لنا في واقع حياتنا.

عباد الله، صلوا وسلموا -رحمكم الله- على نبي الهدى والرحمة محمد بن عبد الله، كما أمر الرب الكريم تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كتابه الكريم قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

[الأحزاب: ٥٦].

•• k ••

(١) أخرجه الطبراني في معارج الأخلاق (١٠٧) مختصراً.

(٢) أخرجه أحمد (٣/٢٣٧، ٢٥٠)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

K

K

(١٥)

البناء العقدي في نفوس الأبناء وأهميته

•• k ••

تَعْلَمُونَ أَنَّ الْأَبْنََاءَ هُمْ رَأْسُ مَالِ الْوَالِدِينَ، وَرَأْسُ مَالِ الْأُمَمِ؛ لِذَا وَجِبَ أَنْ تُصَرَّفَ لَهُمُ الطَّاقَاتُ وَالْأَوْقَاتُ وَالْجُهُودُ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَلِمَ رَأْسَ مَالِهِ اعْتَنَى بِهِ، وَأَعْظَمُ مَا يُعْتَنَى بِهِ هُمْ أَوْلَئِكَ الْأَكْبَادُ الَّتِي تَسِيرُ عَلَى الْأَرْضِ، إِنَّهُمْ أَبْنَاؤُنَا، كَيْفَ وَقَدْ قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾

[التحريم: ٦].

وَقَدْ قَالَ نَبِينَا ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ، أَحْفَظَ أَمْ ضَيَّعَ، حَتَّى يَسْأَلَ الرَّجُلَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ»^(١).

وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ جَعَلَ هَؤُلَاءِ الْأَبْنََاءَ يُوَلِّدُونَ عَلَى الْفِطْرَةِ السَّوِيَّةِ السَّلِيمَةِ؛ فَيَسْهَلُ مَعَهَا التَّرْبِيَةُ، وَيَسْهَلُ مَعَهَا غَرْسُ الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ السَّلِيمَةِ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣].

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٢٦٧/٨)، وأبو عوانة في المستخرج (٣٨٤/٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال رسول الله ﷺ - كما جاء في حديث أبي هريرة عند البخاري - : «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»^(١).

فإذا تدبّرت سير سلف الأمة من الأنبياء والمرسلين، ومن جاء من بعدهم من الصالحين تجدهم قد اعتنوا بالنشء عناية عظيمة، وغرسوا في نفوسهم هذه العقيدة الصحيحة؛ فإننا نقرأ في سورة البقرة: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَئِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

ونقرأ في سورة لقمان الوصية العظمى للقمان عليه السلام: ﴿يَبْنَئِي إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦]، هذه الآيات العظيمة تخرس في قلوب الأبناء هذه العقيدة الصحيحة.

وهنا أذكر مجموعة من الخطوات في تأسيس أبنائنا على العقيدة الصحيحة السوية، أربع خطوات ينبغي أن نبذلها تجاه أبنائنا ومن ولينا رعايتهم:

الخطوة الأولى: تلقينهم (لا إله إلا الله)، وتعليمهم (لا إله إلا الله)، وبيان نواقض (لا إله إلا الله)، كيف لا، و(لا إله إلا الله) لها من العظمة والقدر عند الله الشيء الكثير، يكفيك من ذلك ما جاء في الحديث القدسي الصحيح؛ يقول الرب تبارك وتعالى: «وَعِزَّتِي، وَجَلَالِي، وَكِبْرِيَاتِي، وَعَظَمَتِي، لِأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصل عليه، رقم (١٣٥٨)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إِلَّا اللَّهُ»^(١). أي: لأُخْرِجَنَّ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ). فَيُلْقَنُ الْأَبْنَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَهُمْ صِغَارٌ فِي أَشْهُرِهِمُ الْأُولَى.

وقد جاء في (مصنّف عبد الرزاق الصنعاني): قال إبراهيم: كانوا يستحبون أول ما يفتضح أن يعلموه: (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، يُكْرَرُونَهَا عَلَيْهِ فَيَكُونُ ذَلِكَ أَوَّلَ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ^(٢) يُلْقِنُونَهُ (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) فِي أَيَّامِهِ الْأُولَى؛ لِأَنَّهُ إِذَا عَاشَ عَلَى (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) وَفَقَّ لِلْمَوْتِ عَلَيْهَا.

وقد جاء في (مسند أحمد) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَادَ غُلَامًا يَهُودِيًّا كَانَ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرَضَ هَذَا الْغُلَامُ مَرَضَ الْمَوْتِ، فَجَاءَهُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «يَا غُلَامُ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» هُوَ يَهُودِيٌّ، وَأَبُوهُ قَاعِدٌ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَلَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ أَنْ يُلْقِنَهُ (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)؛ لِأَنَّهُ يُدْرِكُ أَهْمِيَّةَ (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ). فَنظَرَ الصَّبِيُّ إِلَى وَالِدِهِ، فَقَالَ لَهُ: أَطْعَ أَبَا الْقَاسِمِ. فَقَالَ الْغُلَامُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يُرَدِّدُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَخْرَجَهُ بِي مِنَ النَّارِ»^(٣).

فكيف يعيش أبناء المسلمين وهم لا يعرفون لـ(لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) معنى، ولا يعرفون شروطها، ونواقضها؟!!

إِنَّ (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) مَنْ عَرَفَهَا وَتَمَكَّنَتْ فِي قَلْبِهِ مَنَعَتْهُ مِنَ الشُّرْكِ، وَمِنْ الْوُقُوعِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب كلام الرب • يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، رقم (٧٥١٠)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) مصنّف عبد الرزاق (٧٩٧٧).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصل عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، رقم (١٣٥٦)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

في الشُّبهِ والشَّهَوَاتِ.

فقد جاء في (مسند أحمد) من حديث معاذٍ قال: أوصاني رسول الله ﷺ بعشر كلمات، من هذه العشر قال: «لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا وَإِنْ قُتِلْتَ وَحُرِّقْتَ» يعني: تَمَسَّكَ بِهَا إِلَى آخِرِ نَفْسٍ، «لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا وَإِنْ قُتِلْتَ وَحُرِّقْتَ، وَلَا تَعْقَنَّ وَالِدَيْكَ وَلَوْ أَمَرَكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ، وَلَا تَتْرُكَنَّ صَلَاةً وَاحِدَةً مُتَعَمِّدًا فَإِنَّ مَنْ تَرَكَ صَلَاةً وَاحِدَةً مُتَعَمِّدًا فَقَدْ بَرَّتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللَّهِ، وَلَا تُشْرَبَنَّ خَمْرًا؛ فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ فَاحِشَةٍ»^(١).

إذن: هذه الخطوة الأولى في غرس معاني العقيدة في نفوس أبنائنا، أن نُحْيِي في نفوسهم، وضمائرهم، وعقولهم (لا إله إلا الله).

الخطوة الثانية: تعليمهم محبة الله سبحانه، واستشعارهم قربته ومعنيته ورقاته. أي: أن يتعلم الأبناء محبة الله خالقهم الذي أعطاهم ومنحهم، واختار لهم الدين، واصطفاهم من الأمم فجعلهم من أمة محمد ﷺ.

قال ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كنتُ خلفَ رسولِ الله ﷺ يوماً فقال: «يَا غُلَامُ، إِنِّي أَعَلَّمْتُكَ كَلِمَاتٍ: أَحْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، أَحْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ مُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»^(٢) يُعَلِّمُهُ هَذِهِ

(١) أخرجه أحمد (٢٣٨/٥)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، رقم (٢٥١٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الأصول العقديّة وهو صغير السنّ.

قال سهل بن عبد الله التستري: كُنْتُ ابْنَ ثَلَاثِ سِنِينَ أَقَوْمُ اللَّيْلِ مَعَ خَالِي، فَقَالَ لِي خَالِي مُحَمَّدُ بْنُ سَوَارٍ: يَا سَهْلُ، أَلَا تَذْكُرُ اللَّهَ؟ قَالَ: كَيْفَ أَذْكُرُ اللَّهَ؟ قَالَ: قُلْ بِقَلْبِكَ: اللَّهُ مَعِي، اللَّهُ نَاطِرٌ إِلَيَّ، اللَّهُ شَاهِدٌ عَلَيَّ، رَدِّدْ ذَلِكَ بِقَلْبِكَ. فَرَدَّدَهَا حَتَّى اسْتَقَرَّتْ فِي قَلْبِهِ، فَعَاشَ عَلَيْهَا، وَكَبَرَ عَلَيْهَا حَتَّى وَجَدَ لَذَّتَهَا بَعْدَ ذَلِكَ، وَكَانَ خَالُهُ يَقُولُ: يَا سَهْلُ، مَنْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَهُ، وَأَنَّ اللَّهَ نَاطِرٌ إِلَيْهِ، وَأَنَّ اللَّهَ شَاهِدٌ عَلَيْهِ، أَيْعِصِيهِ؟! فَلَا تَعْصِيهِ^(١)، إِنَّهَا غَرْسٌ لِمَعَانِي الْعَقِيدَةِ فِي نَفُوسِ الْأَبْنَاءِ.

الخطوة الثالثة: تعليمهم محبة النبي ﷺ وسيرته، وأنه الأسوة والقدوة الأولى.

قال أنس رضي الله عنه: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَمَاذَا أَعَدَدْتَ لَهَا؟» قَالَ: لَا شَيْءَ، إِلَّا أَنِّي أَحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. قَالَ: «فَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحَبَبْتَ»، قَالَ أَنَسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرِحْنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحَبَبْتَ»، قَالَ أَنَسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَأَنَا أَحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ^(٢).

إنك لتأسى على أبناء المسلمين، وعلى بعض كبارهم أنهم لا يعرفون من

(١) أخرجه القشيري في الرسالة القشيرية (٥٩/١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي رضي الله عنه، رقم (٣٦٨٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، رقم (٢٦٣٩)، من حديث أنس رضي الله عنه.

سيرة النبي ﷺ شيئاً، أو لا يعرفون إلا نثفاً مما تعلموه في المدارس، وإن كنتُ أرجو من أجهزة التعليم عندنا وفي سائر المجتمعات أن يوجِدوا الموادَ الدراسيةَ التي تعلمُ أبناءنا سيرة النبي ﷺ من عامه الأولِ إلى أن يتخرَّجَ من الجامعة، فلا ينفكُ وهو يدرُسُ سيرة الرسول ﷺ أشرفِ الخلقِ، وأعظمِ الخلقِ، فيستحقُّ منَّا هذا أن نُعطيه مادةً تسيرُ مع الطالبِ من عامه الأولِ في دراسته إلى أن يتخرَّجَ.

الخطوةُ الرَّابِعةُ: ربطهم بكتابِ الله؛ فإنه إذا رُبطَ الأبناءُ بكتابِ الله تعليمًا وتعلُّمًا وفهمًا وتأملًا هُدُوا وحفظوا من الهلاكِ والضياعِ.

وقد جاءَ في حديثِ أبي شريحِ الخزاعيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عندَ ابنِ حبانٍ في (صحيحه) أن النبي ﷺ قال: «فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ» أي: حبلٌ مَتِينٌ «طَرَفُهُ بِيَدِ اللَّهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَاسْتَمْسِكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا، وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا»^(١).

وانظُرْ أيها الوالدُ، كَمْ لَكَ مِنَ الْأَجْرِ عِنْدَ اللَّهِ؟! فقد جاءَ عندَ الحاكمِ في (مُستدرَكه) من حديثِ بُريدةِ الأَسلميِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ، وَتَعَلَّمَهُ، وَعَمِلَ بِهِ؛ أُلْبَسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَاجًا مِنْ نُورٍ ضَوْؤُهُ مِثْلُ ضَوْءِ الشَّمْسِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لَا يَقُومُ بِهِمَا الدُّنْيَا فَيَقُولَانِ: بِمِ كُسينَا هذا؟ فَيُقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ»^(٢).

فعلى الوالدِ أن يُعنى بربطِ أبنائه بكتابِ الله، كما فعلَ الإمامُ العالمُ أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ حيثَ بعثَ بابنه حمادٍ إلى مَنْ يُعلِّمه القرآنَ، فلمَّا حفظَ حمادُ سورةَ الفاتحةِ

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٢٢) من حديث أبي شريح الخزاعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) المستدرک (١/٥٦٧).

دفع للمعلم خمسمائة درهم، فاستكثر المعلم، خمسمائة درهم على تعليم الفاتحة، فقال له أبو حنيفة **رَحِمَهُ اللهُ**: لا تستحقر ما علمت ولدي، ولو كان معنا أكثر من ذلك لدفعناه إليك تعظيماً للقرآن العظيم.

هذه هي أهم الخطوات لمن أراد أن يبني شخصية أبنائه بناءً عقدياً صحيحاً وهذه.

هذا وصلُّوا وسلِّموا -رحمكم الله- على نبي الهدى والرحمة محمد بن عبد الله كما أمر الربُّ الكريم في كتابه الكريم قائلًا: **﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾** [الأحزاب: ٥٦].

•• k ••

K

K

(١٦)

البناء العاطفي في نفوس الأبناء وأهميته

•• k ••

إِنَّ العَاطِفَةَ تُشكِّلُ مَسَاحَةً وَاسِعَةً فِي نَفوسِ أبْنَائِنَا، وَتُسَهِّمُ إِسْهَامًا مَبَاشِرًا فِي تَكْوِينِ شَخْصِيَّاتِهِمْ، فَإِنَّ أُشْبِعْتَ هَذِهِ العَاطِفَةَ أَوْ أُشْبِعْتَ هَذِهِ المَسَاحَةَ إِشْبَاعًا مُتَرَنِّيًا؛ أَسْفَرَ ذَلِكَ عَنِ شَخْصِيَّةٍ سَوِيَّةٍ مُتَزَنَةٍ، وَإِنْ حَصَلَ إِفْرَاطٌ أَوْ تَفْرِيطٌ فِي إِشْبَاعِ هَذِهِ المَسَاحَةِ ابْتُلِينَا بِشَابٍّ مَدَلَّلٍ لَا يَتَحَمَّلُ مَشَاقَّ الدُّنْيَا، فَإِنْ عُدِمَتِ العَاطِفَةُ عِنْدَ غَيْرِهِ ابْتُلِينَا بِشَابٍّ قَاسٍ عَنِيفٍ عَلَى مَنْ حَوْلَهُ.

وهناك أربعة نماذج للنبي ﷺ؛ إذ هو المرء الأول، وهو المرء الأفضل صلوات ربي وسلامه عليه، كيف استطاع أن يُشبع عاطفة أبنائه وأحفاده في نماذج مُشرِّفة جعلها الله تبارك وتعالى لي ولكم قُدوةً وأُسوةً نقتدي بها ونَتَأَسَّى.

النموذج الأول: فإنه ﷺ كان يملأ نفوس أبنائه وأحفاده بالرأفة والرحمة، وهكذا يشملهم برحمته وعطفه ورعايته، وكذا كلُّ أبٍ يحتاج أن يُجرح هذه الرحمات وأن يشمل أولاده بهذه العواطف.

قالت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا كما جاء في (صحيح البخاري): دَخَلَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَوَجَدَ النَّبِيَّ ﷺ يَقْبَلُ بَعْضَ أبْنَائِهِ، قَالَ: تُقَبَّلُونَ الصَّبِيَّانَ، فَمَا نُقَبِّلُهُمْ؟! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوْ أَمَلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ؟!»^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم (٥٩٩٨)، ومسلم:

ومن صور الرحمة أن يُقبَّل الأب أبناءه حتى لا يحتاجون في الغد إلى من يُقبِّلهم، ويملاً هذه العاطفة.

ففي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عند البخاري أيضاً - قال: قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ، فَقَالَ الْأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشْرَةَ مِنْ الْوَالِدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ»^(١) فَلَأَجَلَ أَنَّهُ لَمْ يَقْبَلْهُمْ وَلَمْ يُرْحَمْهُمْ.

وعند البخاري في كتابه (الأدب المفرد) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دَخَلَتْ امْرَأَةٌ فَقِيرَةٌ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَسْأَلُ شَيْئًا، وَمَعَهَا صَبِيَّهَا، فَأَعْطَتْهَا عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ثَلَاثَ تَمْرَاتٍ - هَذَا هُوَ الْمَوْجُودُ فِي بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ، مَا فِيهِ شَيْءٌ إِلَّا ثَلَاثُ تَمْرَاتٍ، لَا بُخْلًا - قَالَتْ: فَأَعْطَتِ الْمَرْأَةَ كُلَّ صَبِيٍّ لَهَا تَمْرَةً، وَأَمْسَكَتْ لِنَفْسِهَا تَمْرَةً، فَأَكَلَ الصَّبِيَّانِ التَّمْرَتَيْنِ وَنَظَرَا إِلَى أُمَّهُمَا - كَأَنَّهُمَا يَقُولَانِ: وَالتَّمْرَةُ الَّتِي فِي يَدِكَ؟ - قَالَتْ عَائِشَةُ: فَشَقَّتِ الْمَرْأَةُ التَّمْرَةَ نِصْفَيْنِ، فَأَعْطَتْ كُلَّ صَبِيٍّ لَهَا نِصْفَ تَمْرَةٍ، ثُمَّ خَرَجَتْ وَعَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَعَجَّبُ مِنْ هَذَا الصَّنِيعِ! فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَخْبَرَتْهُ بِالْمَرْأَةِ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَمَا يُعْجِبُكَ مِنْ ذَلِكَ؟ لَقَدْ رَحِمَهَا اللَّهُ بِرَحْمَتِهَا صَبِيَّهَا»^(٢).

كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك، رقم (٢٣١٧)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله، رقم (٥٩٩٧)، وفي باب رحمة الناس والبهائم، رقم (٦٠١٣)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ، رقم (٢٣١٨) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الأدب المفرد (٨٩) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قال أبو قتادة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - الحديث عند البخاري في (صحيحه) -:
 دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ حَامِلٌ أُمَامَةَ بِنْتِ زَيْنَبَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَانَ
 يُصَلِّي فَاِذَا سَجَدَ وَضَعَهَا، وَإِذَا قَامَ حَمَلَهَا ^(١). أَيُّ عِنَايَةٍ هَذِهِ! حَتَّى فِي أَنْتَاءِ صَلَاتِهِ
ﷺ كَانَ يَحْمِلُ أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَمَعَ ذَلِكَ هُوَ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي إِمَّا نَافِلَةً أَوْ فَرِيضَةً
 قَبْلَ أَنْ تُنْسَخَ هَذِهِ الْحَرَكَاتُ.

فإن قال قائل: ألا يوجد في بيت النبي ﷺ من يهتم بأمر أُمَامَةَ حَتَّى يُصَلِّيَ
 النبي ﷺ؟

فالجواب: بلى، إن المدينة - كل المدينة - تريد أن تخدم النبي ﷺ، لكنه أراد أن
 يُظهر هذه الرحمة والرفقة فيغرسها في نفس أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الأنموذج الثاني: كان ﷺ يداعب أبناءه وأحفاده، فهذا الرجل الذي يقول:
 أنا مشغول عن أبنائي، أو: أنا مشغول لأجل أبنائي، فلا يُجالسهم، ولا يُكلّمهم،
 ولا يُضاحكهم، ولا يُبازحهم، ولا يُلاعِبهم، فضلاً عن أن يستمع لهمومهم، وقد
 جاء عند الطبراني في (معجمه الكبير) من حديث يعلى بن مرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:
 خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَإِذَا بِالْحُسَيْنِ يَلْعَبُ مَعَ الصَّبِيَّانِ، فَأَسْرَعَ نَحْوَهُ نَبِيَّنَا ﷺ وَتَرَكَ
 الْقَوْمَ وَرَاءَهُ، ثُمَّ بَسَطَ يَدَيْهِ ﷺ لِلْحُسَيْنِ فَجَعَلَ يَمُرُّ مَرَّةً مِنْ هَاهُنَا، وَمَرَّةً مِنْ
 هَاهُنَا، يُلَاعِبُهُ وَيُضَاحِكُهُ، ثُمَّ أَخَذَهُ وَوَضَعَ إِحْدَى يَدَيْهِ تَحْتِ ذَقْنِهِ وَالْأُخْرَى
 خَلْفَ رَأْسِهِ عِنْدَ أُذُنِهِ ثُمَّ قَبَّلَهُ وَقَالَ: «حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، أَحَبَّ اللَّهُ مَنْ أَحَبَّ
 الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ سِبْطَانِ مِنَ الْأَسْبَاطِ» ^(٢).

(١) صحيح ابن حبان (١١٠٩)، من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأصله في الصحيحين.

(٢) المعجم الكبير (٢٢/٢٧٣ رقم ٧٠١)، من حديث يعلى بن مرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال رسول الله ﷺ هذا الكلام الذي يفيض عاطفةً أمام الناس، وهو الذي يشغله العالم كله، دعوةً وهدايةً واهتمامًا، ومع ذلك لم يشغل عن حفيده، فإذا به يسمعه هذه الكلمات، ليطرب نفسه ويشبع عاطفته بمثل هذا الاهتمام.

وإن تعجب فاعجب وأنت ترى هذا المشهد: يخرج رسول الله ﷺ وهو يحمل الحسن أو الحسين ليصلي بالناس إحدى صلاتي العشي فيضعه بجانبه ثم يكبر ويصلي، وفي أثناء سجوده ﷺ يطول السجود، يقول راوي الحديث -شداً **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**-: فخشينا على رسول الله ﷺ، قال: فرفعت رأسي أنظر، فإذا بالصبي قد ارتحل النبي ﷺ يلعب على ظهره، فتركه النبي ﷺ يلعب، قال: فرجعت، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته قال الناس: يا رسول الله، خشينا عليك أن يكون حدث لك أمر، أو قد أوجي إليك، قال: **«كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَلَكِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي، فَكَرِهْتُ أَنْ أَعْجَلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ»** (١).

وفي خلافة عمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** يولي رجلاً على ولاية، فيدخل هذا الرجل على عمر فيفاجأ أن أمير المؤمنين يداعب أحد أولاده ويقبله، فقال هذا الرجل لعمر: تفعل هذا وأنت أمير المؤمنين؟! فلو كنت أنا ما فعلته. قال عمر -الذي تخرج في مدرسة النبي ﷺ، الشجاع، القوي، الذي ما سلك فجاً إلا سلك الشيطان فجاً غير فجّه، فهو في البيت إنساناً آخر، مع أهله، مع أقاربه، مع أحبائه، هيئ، لئ -: فما ذنبي إن كان قد نزع من قلبك الرحمة؟! إن الله لا يرحم من عباده إلا الرحماء. ثم عزله من ولايته، وقال: أنت لا ترحم ولدك؛ فكيف ترحم الناس؟! (٢).

(١) أخرجه أحمد (٣/٤٩٣)، من حديث شداد بن الهاد **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

(٢) أخرجه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٢٧٠٩).

الأنموذج الثالث: كان رسول الله ﷺ يهدي الأبناء ويُعطيهم؛ لأنه يدركُ تمامًا أن الهدية تُؤثّر في النفس، وتُشبع رغباتها، حتى وإن كان صغيراً، فقد قال ﷺ - كما جاء في (الأدب المفرد) عند البخاري - : «**تَهَادُوا تَحَابُّوا**»^(١).

وجاء في (صحيح مسلم) قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن النبي ﷺ كان يُوتَى بأول الثمر، فكان يقول «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَفِي ثَمَارِنَا، وَفِي مُدْنَانَا، وَفِي صَاعِنَانَا**»، ثُمَّ يُعْطِيهِ أَصْغَرَ مَنْ يَحْضُرُهُ مِنَ الْأَوْلَادِ^(٢).

لقد أدرك النبي ﷺ أن هذه النفس بها مساحة واسعة من العاطفة، لا بُدَّ أن تُشبع، ولا بُدَّ أن يُهتَمَّ بها حتى يأتي هذا الإنسان فتتشكّل فيه هذه الشخصية المترنّة السويّة.

الأنموذج الرابع: جعل النبي ﷺ هذا الأنموذج خاصّة مع البنات؛ لأنّ مساحة العاطفة عند البنت أكبر من الولد؛ فتحتاج إلى إشباع واهتمام أكثر، وأن يُملأ هذا الجانب عند البنت أكثر من الولد؛ لئلا يأتي يوم تتسوّل العاطفة عند غير الآباء.

فيا أيها الآباء، إن لم تُملأ عواطف البنات، فسيأتي يوم يتسوّلون هذه العاطفة والمشاعر عند الآخرين، فاملؤوا عاطفة بناتكم وأخواتكم وإلا سيأتي اليوم الذي يبحثون عمّن يملأ عاطفتهم، وقد اهتَمَّ النبي ﷺ بهذا القسم وقال:

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب فضل المدينة، ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة، وبيان تحريمها، وتحريم صيدها وشجرها، وبيان حدود حرمها، رقم (١٣٧٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«اللَّهُمَّ إِنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفِينَ: الْيَتِيمَ وَالْمَرْأَةَ»^(١) فجعلها ضعيفةً.

نعم، لقد كانت المرأة في الجاهلية مكروهةً، منبوذةً ولم يهتم بهذا الجانب في حياتها، كما قال الله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾^(٥٨) يَنْوَرِي مِنَ الْقَوْرِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيْمَسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿[النحل: ٥٨-٥٩].

فجاء النبي ﷺ وقال: «لَا تَكْرَهُوا الْبَنَاتِ فَإِنَّهُنَّ الْمُؤَنَسَاتُ الْغَالِيَاتُ»^(٢) كما جاء في (مسند أحمد).

وانظر ماذا جعل النبي ﷺ من الحوافر لمن اهتمَّ بشأنِ البنتِ - والحديث في (صحيح مسلم) من حديث أنسٍ - قَالَ ﷺ: «مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ» «مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ دَخَلَتْ أَنَا وَهُوَ الْجَنَّةَ كَهَاتَيْنِ» وأشار بإصبعيه^(٣).

وفي (صحيح مسلم) من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ ابْتَلَىٰ مِنَ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ؛ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ»^(٤).

وقال ﷺ أيضا كما جاء في (صحيح ابن حبان) من حديث أبي سعيد الخدري: «مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ أَوْ ثَلَاثُ أَخَوَاتٍ، أَوْ بِنْتَانِ أَوْ أُخْتَانِ، فَأَحْسَنَ

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأدب، باب حق اليتيم، رقم (٣٦٧٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٥١)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الإحسان إلى البنات، رقم (٢٦٣١) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الإحسان إلى البنات، رقم (٢٦٢٩) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

صُحِبَتْهُنَّ» أي: كان صاحباً لَهُنَّ «وَأَتَقَى اللَّهُ فِيهِنَّ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١).

فحينما نقول: لا بُدَّ أَنْ نَمَلَأَ هَذَا الْجَانِبَ وَهَذِهِ الْمَسَاحَةُ فِي نَفُوسِ أبنائنا فَإِنَّا نَمَلؤها، فَتَسْتَفِيدُ مِنْ ذَلِكَ بِأَجُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِلَّا فَمَنْ ضَيَّعَ هَذَا الْجَانِبَ وَهَذِهِ الْمَسَاحَةَ وَلَمْ يَعْمَلْ عَلَى إِشْبَاعِهَا، جَاءَ هُوَ لِأَوْلَادِهِمْ وَهُمْ قُسَاةٌ يَحْمِلُونَ هَذَا الْعُنْفَ فِي نَفُوسِهِمْ مُجَاهَ آبَائِهِمْ وَالْمَجْتَمَعِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُؤْخَذَ بِهَذَا الْهَدْيِ الَّذِي أَتَى بِهِ نَبِيُّ الْهُدَى وَالرَّحْمَةِ ﷺ.

ثُمَّ صَلُّوا وَسَلِّمُوا -رَحِمَكُمُ اللَّهُ- عَلَى النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى، وَالرَّسُولِ الْمُجْتَبَى، كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَقَالَ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

• • k • •

(١) أخرجه الترمذي: أبواب البر والصلة، باب ما جاء في النفقة على البنات والأخوات، رقم (١٩١٦)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

K

K

(١٧)

أهمية البناء الأخلاقي في نفوس أبنائنا

•• k ••

يحتاج الأبناء إلى أن نغرس في نفوسهم القيم والآداب، لينشؤوا عليها فيكون لنا في المستقبل جيل مؤدّب يحمل القيم والأخلاق.

ورحم الله ابن القيم حينما قال في كتابه الماتع: «تحفة المودود بأحكام المولود»: «ومما يحتاج إليه الطفل غاية الاحتياج الاعتناء بأمر خلقه فإنه ينشأ على ما عوّده المربي في صغره»^(١).

وهذه التنشئة تبدأ وتسير على ما عوّده المربي في صغره؛ لذا قيل:

مشى الطاوس يوماً باختيارٍ	فقلّد شكل مشيته بنوه
فقال: علام تختالون؟ قالوا:	بدأت به ونحن مقلدوه
فخالف سيرك المعوجّ واعدل	فإنك إن عدلت معدلوه
أما تدري أبانا، كلُّ فرعٍ	يُجاري بالخطى من أدبوه
وينشأ ناشئ الفتيان منّا	على ما كان عوّده أبوه

فالتنشئة في الصغر تُنتج لنا جيلاً يُعين نفسه وأهله ومُجمّعه على كل خير، والتنشئة على القيم والآداب دينٌ.

(١) تحفة المودود (ص ٢٤٠).

قال ابنُ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - كما جاءَ عندَ البيهقيِّ في (شعبِ الإيَّانِ) لرجُلٍ: «أدبِ ابنَكَ فإنَّكَ مَسْؤُولٌ - يَعْنِي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ - عَن وَلَدِكَ مَاذَا أَدَّبْتَهُ؟ وَمَاذَا عَلَّمْتَهُ؟ وَإِنَّهُ مَسْؤُولٌ عَن بَرِّكَ وَطَوَاعِيَّتِهِ لَكَ»^(١).

والتنشئةُ في الصغرِ سهلةٌ مُتيسرةٌ، لا كما هي عندَ الكبرِ، وهذا مِن حَقِّ الأبناءِ، أَن يُزرَعَ في نفوسِهِمُ الأدبُ والقيمُ، وقديماً قالوا:

قَدْ يَنْفَعُ الْأَدَبُ الْأَحْدَاثَ فِي مَهَلٍ وَلَيْسَ يَنْفَعُ عِنْدَ الْكِبَرَةِ الْأَدَبُ
إِنَّ الْغُصُونَ إِذَا قَوْمَتَهَا اعْتَدَلَتْ وَلَنْ يَلِينَ إِذَا قَوْمَتَهُ الْخَشَبُ

قال ابنُ المباركِ رَحِمَهُ اللهُ: قَالَ لِي مَخَلَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ: «نَحْنُ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْأَدَبِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْحَدِيثِ»^(٢).

فانظروا إلى هذا الذي اهتمَّ بتنشئةِ أبنائِهِ يُعَلِّمُهُمْ أَكْثَرَ مِنْ لُغَةٍ، وَيَهْتَمُّ بِأَنْ يُودِعَهُمْ فِي أَحْسَنِ الْمَدَارِسِ الْأَجْنِبِيَّةِ، وَيَهْتَمُّ كَثِيرًا بِتَعْلِيمِهِمْ تَعَالِيمَ الْغَرَبِ الْكَافِرِ، وَيَنْسَى أَنْ يُؤَدِّبَهُمْ عَلَى آدَابِ الشَّرْعِ الْمَطْهَرِ وَقِيَمِهِ. وهاهنا أربعةُ حقولٍ يَنْبَغِي أَنْ نَرْكُزَ عَلَيْهَا وَنَحْنُ نُرَبِّي أَبْنَاءَنَا عَلَى الْأَدَبِ وَالْقِيَمِ:

الْحَقْلُ الْأَوَّلُ: أَنْ يُعَلَّمَ الْأَبْنَاءُ وَيُؤَدِّبُوا عَلَى بَرِّ الْوَالِدِينَ.

وَالأَصْلُ فِي ذَلِكَ قَوْلُ الْحَقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ

(١) شعب الإيَّان (١١ / ١٣٥).

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١١).

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلَا
نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ
رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

وقد أبصر أبو هريرة رضي الله تعالى رجُلين فقال لأحدهما: ما هذا منك؟ -
أي: ماذا يقربُ لك هذا؟- فقال: أبي. فقال: لا تسمِّه باسمه، ولا تمسِّ أمامه، ولا
تجلس قبله ^(١).

فهم يُعلِّمون أبناءهم كيف يتعاملون مع آبائهم، والذي لا يُعلِّمُ أبناءه كيف
يتعامل معه لا يأتي بعد ذلك فيلقي باللائمة عليهم، فيقولون: يا أبانا ما علَّمتنا،
وما درَّبتنا، وما فهَّمتنا.

وقد ابنُ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رجلاً من أهل اليمنِ يطوفُ بالبيتِ، حملَ أمه وراءَ
ظهره وهو يقولُ:

إِنِّي لَهَا بَعِيرُهَا الْمَذَلُّ إِنَّ أُذْعِرَتْ رِكَابَهَا لَمْ أُذْعِرِ

ثم التفت إلى ابنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقال: يا ابنَ عمرَ أتراني جزيتُها؟ قال: لا،
ولا بزفرةٍ واحدةٍ.

فلا بُدَّ أَنْ يُعَلِّمَ الْأَبْنَاءَ عَظَمَ حَقِّ الْأَبَاءِ.

الحقل الثاني: أَنْ يُعَلِّمَ الْأَبْنَاءَ قِيَمَةَ الْعُلَمَاءِ وَالْمُرَبِّينَ وَالْمُدْرِّسِينَ.

وَأَنْ يَتَعَلَّمُوا أَنَّ هَذَا الصَّنْفَ مِنَ النَّاسِ لَهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ. -أعني: العلماءُ

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٤٤).

الربانيين الصادقين - فتعرس في نفوس الأبناء محبة العلماء، وأن يُعلم هذا تعليماً؛ لأنه دينٌ.

وانظر إلى الأمم التي يُعزُّ فيها العلماء فإنها ترتقي وترتفع، حتى لو كانت أمم الغرب الكافر، وتدبر ما جرى في التاريخ وكيف كانت تعيش أوروباً في عصورها الوسطى حينما كانت تُقتل العلماء، وتحارب العلم، كيف كانت تعيش في جهل وظلام دامس، وانظر إليها الآن كيف تقدّمت وإلى أين وصلت؟

يكفيننا قول رسول الله ﷺ حيث قال: **«لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلِّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفَ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ»** (١).

فلا بدّ أن يُربى الأبناء على معرفة حق العلماء، ومن هؤلاء العلماء المدرّسون الناصحون، والمربون الأفاضل، ولا بدّ أن تبقى مكانتهم في النفوس عاليةً.

الحقل الثالث: الأدب مع الكبار.

سواء كبار السن أو كبار المقام والجاه والسلطان، هذا هو الذي جاء به شرعنا المطهر، فقد جاء في حديث أنس الذي رواه الترمذي في (سننه)، قال: جاء شيخ كبير يريد النبي ﷺ - وهناك كوكبة مضيئة من الصحابة حول النبي ﷺ - قال: فأبطأ القوم عنه أن يوسّعوا له؛ فإذا بالمربي الأول ﷺ يقول ويخاطب هؤلاء الذين أبطؤوا أن يوسّعوا لهذا الشيخ الكبير: **«لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيُوقِّرْ كَبِيرَنَا»** (٢).

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٨٤).

(٢) أخرجه الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الصبيان، رقم (١٩١٩)، من حديث

فانظر هذا الدين العظيم كيف يُربِّي هذه النفوس على الأدب مع كبار السنّ. ففي حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «يُوقَّرُ كَبِيرَنَا»، وفي حديث عبادة بن الصامتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الَّذِي تَقَدَّمَ قَالَ: «مُجِلُّ كَبِيرَنَا» بَلْ قَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ: «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ» أَي: مِنْ تَعْظِيمِ اللَّهِ «إِحْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ»^(١)؛ سِوَاءَ كَانَ وَالِدَكَ أَوْ بَعِيدًا عَنْكَ، فَلِهَذَا عِنْدَنَا احْتِرَامٌ، فَيُؤَدَّبُ الْأَبْنَاءُ أَنْ يُوقَّرُوا كَبِيرَ السَّنِّ.

الحقل الرابع: الأدب مع الأحكام الشرعية.

وهو أحدُ الحقول التي ينبغي أن تُزرع في نفوس أبنائنا، ويُبدَرَ ذاك البذر النافع، وهو أن يُؤدَّبَ الأبناء مع الأحكام الشرعية، وأن تسمع آذانهم: هذا حلالٌ، وهذا حرامٌ، وهذا يُجِلُّ لنا، وهذا يُحرِّمُ علينا، وأن يسمَعوا: هذا يجوزُ وهذا لا يجوزُ، وأن يترَبَّى الطفل الصغيرُ على: هذا حرامٌ لا تفعَلْهُ، ولا يُقالُ له: العرفُ والعادةُ وغيرها، وهذا يُمكن أن نقولهُ، وهو جيّدٌ، لكن لا بُدَّ أن نقولَ قبلَ ذلك: هذا حلالٌ وهذا حرامٌ.

إنَّ القاعدةَ التي تقولُ: نُريدُ أن نُنشِئَ مواطنًا صالحًا. قاعدةٌ خاطئةٌ، إنَّما نريدُ إنسانًا صالحًا، فالمواطنُ الصالحُ إذا كان في موطنه كان صالحًا، وإذا خرجَ عن موطنه تركَ الصلاحَ، إنَّما نُريدُه إنسانًا صالحًا، وتدبَّرْ هذه النهاجَ:

أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في تنزيل الناس منازلهم، رقم (٤٨٤٣)، من حديث أبي

موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

- أبصر رسول الله ﷺ صبياً صغيراً قد حُلِقَ بعضُ رأسه وترك بعضه، فلم يُقل: هذا صغيرٌ، ولا نريدُ أن نكسرَ خاطرَه، أو دع الأمورَ تمرَّ، وغدا يكبرُ ويتعلَّم، إنما نهي عن ذلك وقال: «**احلِقُوهُ كُلَّهُ أَوْ اترْكُوهُ كُلَّهُ**»^(١).

- جاء في (مُصَنَّف ابنِ أبي شَيْبَةَ): دخل على ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بعضُ أبنائه عليهم قمصٌ من حريرٍ، فقام ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وخرقَ هذه القمصَ وقال: انطلقوا إلى أممكم فلتكسكم غيرَ هذا^(٢).

وفي روايةٍ قال: إننا هذا للنساء^(٣). فعلى الرَّغم من أنَّهم صغارٌ في السنِّ إلا أنه يُرَبِّبهم على أن هذا حلالٌ وهذا حرامٌ، وهو يستذكرُ حديثَ النبي ﷺ الذي رواه الطبرانيُّ، من حديثِ زيدِ بنِ أرقمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**الذَّهَبُ وَالْحَرِيرُ حِلٌّ لِإِنَاثِ أُمَّتِي، وَحَرَامٌ عَلَى ذُكُورِهَا**»^(٤).

- وقد جلسَ عمرُ بنُ أبي سلمةٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في حجرِ النبي ﷺ فطأشت يده في الصَّحْفَةِ، قال: «**يَا غُلَامُ، سَمَّ اللهُ، وَكُلَّ بِيَمِينِكَ، وَكُلَّ مِمَّا يَلِيكَ**» فقالَ عمرُ: فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طُعْمَتِي بَعْدُ^(٥). فبالرغم من صغرِ سنِّه إلا أنَّه علَّمه الحلالَ والحرامَ،

-
- (١) أخرجه أبو داود: كتاب الترجل، باب في الذؤابة، رقم (٤١٩٥)، والنسائي: كتاب الزينة، باب الرخصة في حلق الرأس، رقم (٥٠٤٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.
- (٢) أخرجه ابن أبي شيبَةَ (٢٤٦٥٤).
- (٣) أخرجه ابن أبي شيبَةَ (٢٤٦٥٥).
- (٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٥/٢١١ رقم ٥١٢٥) من حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
- (٥) أخرجه البخاري: كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، رقم (٥٣٧٦)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما، رقم (٢٠٢٢) من حديث عمر بن أبي سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

فتربى عليها.

- وكان الحسن بن علي رضي الله عنهما صغيراً فمدَّ يده إلى تمرٍ واحدةٍ من تمر الصدقة، ليرفعها إلى فيه، فضربه رسول الله ﷺ وقال له: «كَنْحُ كَنْحُ أَرْمِ بِهَا أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ»^(١) أي: هذا حرامٌ بالنسبة لنا، فأنا وأل بيتي لا نأكل من الصدقة، رضي الله عنه.

وقال ابن المبارك رحمه الله: «مَنْ تَهَاوَنَ بِالْأَدَبِ عُوقِبَ بِحِرْمَانِ السُّنَنِ، وَمَنْ تَهَاوَنَ بِالسُّنَنِ عُوقِبَ بِحِرْمَانِ الْفَرَائِضِ، وَمَنْ تَهَاوَنَ بِالْفَرَائِضِ عُوقِبَ بِحِرْمَانِ الْمَعْرِفَةِ»^(٢).

فلا بُدَّ من العناية بالأدب في حياة أبنائنا، وهكذا كان سلف الأمة، فقد كانوا يقولون رحمه الله: «مَنْ قَصَرَ بِهِ حَسْبُهُ نَهَضَ بِهِ أَدْبُهُ»^(٣).

وأنشد شاعرهم قائلاً:

كُنْ ابْنَ مَنْ شِئْتَ وَاکْتَسِبْ أَدْبًا يُغْنِيكَ مَحْمُودُهُ عَنِ النَّسَبِ
لَيْسَ الْجَمَالُ بِأَثْوَابٍ تُزِينُنَا إِنَّ الْجَمَالَ جَمَالُ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ

- وقال مالك صاحب (الموطأ) رحمه الله لأحد طلابه الصغار -فتى من

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب ما يذكر في الصدقة للنبي ﷺ وآله، رقم (١٤٩١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ وعلى آله وهم بنو هاشم وبنو المطلب دون غيرهم، رقم (١٠٦٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٠١٧).

(٣) انظر: حلية الأولياء (٧/٢١٤).

قريشٍ -: يا بُنَيَّ تَعَلَّمِ الْأَدَبَ قَبْلَ أَنْ تَتَعَلَّمَ الْعِلْمَ^(١)، ثُمَّ يُرَدُّ قَائِلًا: قَدْ كَانَتْ أُمِّي تُعَمِّمُنِي وَتَقُولُ لِي: اذْهَبْ إِلَى رِبِيعَةَ - رِبِيعَةَ الرَّأْيِ شَيْخِ مَالِكٍ - وَتَعَلَّمْ مِنْ أَدَبِهِ قَبْلَ عِلْمِهِ^(٢).

إنها أمةٌ يأخذُ بعضها من بعضٍ، كلٌّ منهم يُوصي على الأدبِ قبلَ العلمِ.
وقال ابنُ القيمِ في (مدارجِ السالِكين): «وَأَدَبُ الْمَرْءِ: عُنْوَانُ سَعَادَتِهِ وَفَلَاحِهِ، وَقَلَّةُ أَدَبِهِ: عُنْوَانُ شَقَاوَتِهِ وَبَوَارِهِ؛ فَمَا اسْتُجْلِبَ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِمِثْلِ الْأَدَبِ، وَلَا اسْتُجْلِبَ حِرْمَانُهُمَا بِمِثْلِ قِلَّةِ الْأَدَبِ»^(٣).

هذا وصلُّوا وسلِّموا -رحمكم اللهُ- على نبيِّ الهدى والرحمة محمدِ بنِ عبدِ الله، كما أمرَ الربُّ الكريمُ في كتابه الكريمِ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَائِلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾** [الأحزاب: ٥٦].



(١) أخرجه ابن المظفر في غرائب مالك (٤٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٦ / ٣٣٠).

(٢) انظر: ترتيب المدارك (١ / ١٣٠)، الديباج المذهب (١ / ٩٨).

(٣) مدارج السالِكين (٢ / ٣٦٨).

K

K

(١٨)

القدوة الصالحة وصفاته

•• k ••

إِنَّ الْأُمَّةَ فِي حَاجَةٍ إِلَى قُدُواتٍ صَالِحَةٍ، وَأَوْلَادُنَا فِي حَاجَةٍ أَخْصَّ إِلَى هَذِهِ الْقُدُواتِ الصَّالِحَةِ؛ لِيَكُونُوا لَهُمْ كَالْمَنَارَاتِ الَّتِي يَهْتَدِي بِهَا السَّالِكُ فِي طَرِيقِهِ إِلَى اللَّهِ، مِنْ مِثْلِ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبَدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

فأولادنا في حاجة إلى قُدُواتٍ صَالِحَةٍ لا قُدُواتٍ وَرَقِيَّةٍ كَالْبَالوناتِ يُسْتَخْدَمُونَ فِي وَقْتِ الْحَاجَاتِ وَالْأَزْمَاتِ، ثُمَّ إِذَا فُرِغَ مِنْهُمْ مَأْلَهُمْ إِلَى سَلَةِ الْمَهْمَلَاتِ.

وهم في حاجة إلى قُدُواتٍ صَالِحَةٍ لا إلى قُدُواتٍ كَالإِمَّعاتِ يُجْرِّكونَ عَنْ بَعْدٍ، يُقَالُ لَهُمْ: قُولُوا. فَيَقُولُوا، يُقَالُ لَهُمْ: الزَمُوا الصَّمْتَ. فَيَصْمُتُوا.

وهم في حاجة إلى قُدُواتٍ حَقِيقِيَّةٍ، لا قُدُواتٍ وَهْمِيَّةٍ تَسْمَعُ بِهَا وَلَا تَرَاهَا، تَسْمَعُ ضَجِيجَها وَصُرَاخَها، وَلَكِنَّكَ لَا تَرَى لَهَا فِي أَرْضِ الْوَأَقِعِ نَفْعًا وَلَا فَائِدَةً.

إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ النُّفُوسَ وَجَعَلَهَا تُحِبُّ الْقُدُوةَ، وَفَطَّرَهَا عَلَى حُبِّ التَّاسِّيِّ وَالتَّقْلِيدِ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: ٢٤].

والقُدُوةُ فِي نَفْسِهِ يَتَطَلَّعُ إِلَى قُدُوةٍ أُخْرَى، فَهاهو نَبِيُّنا ﷺ مَعَ كَوْنِهِ هُوَ الْقُدُوةُ

وهو الأسوة تجد في سورة الأنعام أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يذكُر له ثمانية عشر نبياً يسرُّدهم له سرداً، ثم يقول له بعد ذلك: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَلْتَدَةَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وهو نبيُّ الله ﷺ يذكُر الله له هؤلاء الأنبياء الأطهار، ثم يقول له بعدما ذكرهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَلْتَدَةَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

فإذا كان نبينا ﷺ يؤمر بالافتداء بالأنبياء والصالحين فكيف بنا، وبأبنائنا؟! بل قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في سورة الأحقاف لنيه ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] أي: خذهم لك قدوة وأسوة.

وجعل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الافتداء مشروعاً، بل جعله الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى مطلوباً؛ فلذلك أمرنا أن ندعوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن نكون أئمة يُقتدى بنا، وجعل ذلك من صفات عباد الرحمن، فنحن نقرأ في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]؛ قال البخاري رَحِمَهُ اللهُ في صحيحه: «أئمة نُقتدى بِمَنْ قَبْلَنَا وَيُقْتَدَى بِنَا مَنْ بَعْدَنَا»^(١).

وفي (سُنن الترمذي) قال ﷺ وهو يأمرنا بالافتداء -والأمر يشمل أولادنا- : «اقتدوا باللذين من بعدي من أصحابي: أبو بكر، وعمر، واهتدوا بهدي عمّار، وتمسكوا بعهد ابن مسعود»^(٢)، والسبب: أنك إذا كنت قدوة صالحة فتأسى بك

(١) صحيح البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الافتداء بسنن رسول الله ﷺ.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب المناقب، باب مناقب عمار بن ياسر وكنيته أبو اليقظان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، رقم (٣٧٩٩)، من حديث حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الآخرون، وقدك الجيل القادم؛ فإنك مأجورٌ على كل ما يؤخذ منك في حرّكاتك وسكناتك، وفي أقوالك وأفعالك.

قال الحسن رَحِمَهُ اللهُ - كما جاء في كتاب (الزهد) لابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ -: مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ إِمَامًا لِأَهْلِهِ، إِمَامًا لِحَيِّهِ، إِمَامًا لِمَنْ وَرَاءَ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يُؤْخَذُ مِنْكَ إِلَّا كَانَ لَكَ مِنْهُ نَصِيبٌ^(١).

وعلى التقيض فهذا القدوة السيئة، كلما أخذ منه الجيل فهو في ميزان سيئاته، وقد رأى مالك بن دينار رَحِمَهُ اللهُ - كما جاء هذا في كتاب (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء) - رجلاً يُسِيءُ صَلَاتَهُ؛ فترحم مالك على عياله، فقالوا: عجبا لك يا أبا يحيى يسيء هذا صلاته وترحم عياله؟! قال: إنه كبيرهم ومنه يتعلمون^(٢).

فأولادنا في حاجة إلى قُدواتٍ، فأين القُدواتُ الذين يكونون كالمناراتِ لأبنائنا؟ جبلهم اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى واستودع في نفوسهم حبَّ التقليد، يبحثون عن الصادق، فأين الصادق؟ يبحثون عن الأمين، فأين الأمين؟ يبحثون عن المُخلص، فأين المُخلص؟ إنهم موجودون بيننا بفضلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولكننا نريد أكثر من ذلك، فالجيل تبحث أعينهم عن قُدواتٍ ينقادون وراءهم.

وهاهنا سوف أذكر بعض صفات القُدوة الصالحة:

الصفة الأولى: أنها تقول وتفعل ما تقول.

فلا يكون قولها في وادٍ وفعلها في وادٍ، فإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عاب على هؤلاء

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٨٥٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٥٣٢١).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣٨٣/٢).

قَالَ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣].

وقال سبحانه في سورة البقرة: ﴿تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وقال تعالى في شأن نبيه شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَكُمْ عَنْهُ إِنِّي أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

نعم، ما أجمل ما قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ - كما جاء في كتاب: «الزهد» لأحمد بن حنبل - حيث قال: «إِنَّ الْعَالِمَ إِذَا لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ زَلَّتْ مَوْعِظَتُهُ عَنِ الْقُلُوبِ» أي: ليس لها تأثير، «كَمَا يَزُلُّ الْقَطْرُ عَنِ الصِّفَا»^(١)، أي: لا يَنْتَفِعُ الصِّفَا بِمَا يَنْزِلُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَطْرِ.

ولذا قد قال نَبِيُّنَا ﷺ - كما جاء في (صحيح مسلم) من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يُوتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ - يَعْنِي: أَمْعَاءُهُ - فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ، مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: بَلَى، كُنْتُ أَمُرُّكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَأَكُم عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ»^(٢).

(١) الزهد (١٨٨٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة النار، رقم (٣٢٦٧)، ومسلم: كتاب الزهد، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، رقم (٢٩٨٩)، من حديث أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إِنَّهَا مُصِيبَةٌ عَظْمَى، كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمَعْلَمُ غَيْرُهُ هَلَّا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمِ
تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وَذِي الضَّنَى كَيْمَا يَصِحَّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمٌ
وَنَرَاكَ تُصَلِّحُ بِالرَّشَادِ عُقُولَنَا أَبَدًا وَأَنْتَ مِنَ الرَّشَادِ عَدِيمٌ
أَبَدًا بِنَفْسِكَ فَانْهَاهَا عَنْ عَيْهَا فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمٌ
لَا تَنْهَى عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ

وقد دخل العالمُ الفقيهُ المُربِّيُّ أبو عبدِ اللهِ مُحَمَّدُ بنُ إدريسَ الشافعيِّ رَحِمَهُ اللهُ بيتَ أميرِ المؤمنينِ هارونِ الرشيدِ رَحِمَهُ اللهُ، حينما طلبه، فمرَّ على مُؤدِّبِ أولادِ الرشيدِ أبي عبدِ الصمدِ، فقالوا: فُرْصَةٌ، هذا الشافعيُّ موجودٌ في القصرِ لِيَنْتَفِعَ بِهِ الجَمِيعُ، حتَّى مُؤدِّبُ أبناءِ أميرِ المؤمنينِ لا بُدَّ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهِ، فقالوا للشافعيِّ رَحِمَهُ اللهُ: لو أَوْصَيْتَهُ بِهِمْ -أي: لو أَوْصَيْتَ المُؤدِّبَ بأبناءِ أميرِ المؤمنينِ- فقال له الشافعيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «لِيَكُنْ أَوَّلُ مَا تَبَدُّأُ بِهِ مِنْ إِصْلَاحِ أَوْلَادِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِصْلَاحَ نَفْسِكَ، فَإِنَّ أَعْيُنَهُمْ مَعْقُودَةٌ بِعَيْنِكَ، فَالْحَسَنُ عِنْدَهُمْ مَا تَسْتَحْسِنُهُ، وَالْقَبِيحُ عِنْدَهُمْ مَا تَرَكْتَهُ، عَلَّمَهُمْ كِتَابَ اللهِ، وَلَا تُكْرَهُهُمْ عَلَيْهِ فَيَمْلُؤُهُ، وَلَا تَتْرُكُهُمْ مِنْهُ فَيَهْجُرُوهُ، ثُمَّ رَوَّهْمُ مِنَ الشَّعْرِ أَعْفَى، وَمَنْ الْحَدِيثِ أَشْرَفَهُ -كلماتٌ مَصْفُوفَةٌ- وَلَا تُخْرِجْنَهُمْ مِنْ عِلْمٍ إِلَى غَيْرِهِ حتَّى يُحْكِمُوهُ، فَإِنَّ أَرْدِحَامَ الْكَلَامِ فِي السَّمْعِ مَضَلَّةٌ لِلْفَهْمِ»^(١).

الصفةُ الثانيةُ: أَنْ يَكُونَ مُخْلِصًا فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ.

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩/١٤٧).

ولا يكون مُثَلًّا؛ فقد سئمنا من الممثلين الذين يتصنعون، إننا نريدُ قُدواتٍ حقيقيةً لا وهميةً، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وقد قيل لأبي حمدون بن أحمد: ما بال قولِ السلفِ أنفعُ من كلامنا؟ قال رَحِمَهُ اللهُ: «كانوا يتكلمون لعزِّ الإسلام، وِنجاةِ النفوسِ وِرِضا الرِّحمِ، ونحنُ نتكلمُ لعزِّ نفوسِنا، وطلبِ الدُّنيا، وِرِضا الخلقِ»^(١).

لذا قال ابنُ القيمِ في كتابه (الفوائد): «إنَّ العملَ بغيرِ إخلاصٍ ولا اقتداءٍ كالمُسافرِ يحملُ في جِرابِهِ رَمَلًا يُثقلُهُ ولا يَنفَعُهُ»^(٢).

الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ: هِيَ الثَّبَاتُ عَلَى الْمَبَادِي.

فلا تُغَيِّرُهُ الأيَّامُ، ولا تُزحِزِحُهُ الأحداثُ، بل يَبْقَى ثابتًا كما عَرَفْنَاهُ قَبْلَ عَشْرِينَ سَنَةً، وثَلَاثِينَ سَنَةً، لا يَتَغَيَّرُ، راسِخًا حَتَّى يَلْقَى اللهُ؛ لذا قال اللهُ تَعَالَى فِي سُوْرَةِ مَرْيَمَ عَنِ عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مريم: ٣٠-٣١]. أي: مُبَارَكًا هُنَا، وَمُبَارَكًا هُنَاكَ، وَمُبَارَكًا فِي هَذَا الزَّمَانِ، وَمُبَارَكًا فِي الزَّمَانِ الآتِي، فلا يَتَغَيَّرُ.

وقد دخل أبو مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَى حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَالَ: اعْهَدْ إِلَيَّ. قَالَ حُذَيْفَةُ: أَمَا أَتَاكَ اليَقِينُ؟ قَالَ: بَلَى، وَعِزَّةَ رَبِّي. قَالَ: فَاعْلَمْ أَنَّ الضَّلَالََةَ حَقَّ الضَّلَالََةِ أَنْ تَعْرِفَ مَا كُنْتَ تُنْكِرُ، وَأَنْ تُنْكِرَ مَا كُنْتَ تَعْرِفُ، وَإِيَّاكَ وَالتَّلَوْنَ فَإِنَّ

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠ / ٢٣١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣ / ٢٩٩).

(٢) الفوائد (ص ٤٩).

دينَ الله واحدٌ^(١). أي: لا تَكُنْ هنا بَلَوْنِ، وهناك بَلَوْنِ، وفي بلدك بَلَوْنِ، وفي بلد غيرك بَلَوْنِ، بل كُنْ ذا لَوْنٍ واحدٍ. وهكذا تكونُ القدواتُ الصالحةُ.

الصفةُ الرابعةُ: أَلَّا يَكُونَ القَدْوَةُ الصَّالِحَةُ في مواضعٍ وأماكنِ الرِّيبِ والشُّبهاتِ.

فلا يُوجَدُ نفسَه في أماكنِ الشُّبهِ، ولا يَضَعُ نفسَه في أماكنِ الرِّيبِ؛ حتَّى لا تُلقَى عليه الشُّبُهَةُ والرِّيبُ.

وقد جاءَ في (صحيح البخاري): كان رسولُ الله ﷺ يجلسُ في مُعتكِفه، فتَرَدَّدَ عليه نِساؤه، فجاءته صَفِيَّةُ بنتُ حُيَيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجَتُهُ ﷺ، فجلستُ عنده في المُعتكِفِ، فلمَّا أرادتُ أن تَخْرَجَ خَرَجَ مَعَهَا يَتَلَطَّفُ مَعَهَا ﷺ، حتَّى أوصلها إلى بابِ المسجدِ، وعندَ بابِ المسجدِ وهو يُودِّعُها مرَّ رجلانِ مِنَ الأنصارِ فأبصرا النبيَّ ﷺ ومعه امرأةٌ لم يعرفاها، وهي زوجته، فأسرعا الخُطى، فقال النبيُّ ﷺ: **«عَلَى رِسْلِكُمَا؛ إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ»** -أي: زَوْجَتِي. يريدُ أن يُخْرِجَ نفسَه مِنَ الشُّبُهَةِ- قالَا: سُبْحَانَ اللهِ، يا رَسولَ اللهِ! وكَبَّرَ عَلَيَّهَا. أي: لا يُمكنُ أن نَشَكَّ فيكَ يا رسولَ اللهِ، فقالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو يُبَيِّنُ لَهُمَ أَنَّ هَذَا مُمَكِّنٌ: **«إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنَ الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِّ، وَخَشِيتُ أَنْ يَقْدِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا»**^(٢) فلا تَضَعُ نفسَكَ في موضعِ الرِّيبِ.

(١) أخرجه نعيم بن حماد في الفتن (١٣٤)، وابن بطة في الإبانة (٢٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه (٢٠٣٨) ومسلم: كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رئي خاليًا بامرأة وكانت زوجته أو محرماً له أن يقول هذه فلانة ليدفع ظن السوء به، رقم (٢١٧٥)، من حديث أم المؤمنين صفية رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وهذا عمرٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - كما جاء في (موطأ مالك) - وهو في موسم الحج أو العمرة في منسكٍ من هذه المناسك يرى طلحة بن عبید الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يلبس ثوباً مصبوغاً، كأنه قد صبغ بالزعفران، والزعفران طيبٌ لا يجوز للحاج ولا للمُحرم عموماً، فقال عمرٌ: تلبس هذا يا طلحة؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنما هو مدرٌ - أي: ليس زعفراناً - قال عمرٌ: إنكم أيها الرهط - يعني: صحابة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أئمةٌ يقتدي بكم الناس، فلو أن رجلاً جاهلاً رأى هذا الثوب، لقال: إن طلحة بن عبید الله يلبس ثوباً مصبوغاً في الإحرام؛ فلا تلبسوه ^(١).

فأبعد نفسك عن الريبة، حتى لو كان هذا الأمر الذي تتخذه مباحاً إذا كان فيه ريبةٌ وشبهةٌ فعلى القدوات أن يترفعوا عن ذلك.

هذا وصلُّوا وسلِّموا - رحِمكم اللهُ - على نبيِّ الهدى والرحمة محمد بن عبد الله كما أمر الربُّ الكريم في كتابه الكريم قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

• • k • •

(١) الموطأ (١٠).

K

K

(٢٠-١٩)

بشارات وتحذيرات في زكاة المال

•• k ••

في شهر رمضان المبارك من كل عام تنشط النفوس المؤمنة، المنفقة، العليا، فتخرج زكاة أموالها، فيكثر الحديث في مثل هذه الأيام عن زكاة المال، وعن هؤلاء الذين تغلبوا على شح نفوسهم وعلى بخلها؛ فأخرجوا زكاة أموالهم طيبةً بذلك نفوسهم؛ لأنهم يدركون تمامًا أن هذه النفوس إذا تغلب عليها الإنسان فأخرج ما فيها من الشح والبخل؛ زكت ونمت وطهرت كما قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

لأنهم أدركوا تمامًا أن المزكي له اليد العليا؛ لأن يده يد المنفق، والسائل يده السفلى، كما أخبر بذلك نبينا ﷺ حينما قال في حديث ابن عمر رضي الله عنهما - عند البخاري -: «اليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا هي المنفقة والسفلى هي السائلة»^(١)؛ أدرك هؤلاء تمامًا أن الله تبارك وتعالى حينما قرن الزكاة بأعظم أركان الدين وهي الصلاة، فلا تقرأ في كتاب الله تبارك وتعالى في أغلب المواضع أمرًا بالزكاة إلا ووجدتها قد قرنت بالصلاة.

وفي ذلك رسالة لطيفة: اعلم أيها العبد المصلي أن الله تبارك وتعالى كما فرض

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، رقم (١٤٢٩)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

عليك الصلاة فرض عليك الزكاة، وكما ذهبت إلى بيته الحرام حاجًا، وسيأتيك شهر رمضان فتكون مع الصائمين، فاعلم أن الزكاة كذلك هي فرض؛ لذا هم يقرؤون في كتاب الله في مواضع متعددة وكثيرة أن الزكاة كلما جاءت قرنت بالصلاة، من ذلك:

قول الحق **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** في سورة البقرة: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وقوله تعالى في سورة النور: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

فهؤلاء الذين تغلبوا على شح نفوسهم أدركوا تمامًا أن الزكاة أساس من أسس الدين العظيم، وركن ركين في هذا الدين العظيم، كما أخبر بذلك النبي ﷺ - كما جاء في حديث ابن عمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** عند البخاري - قال: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ**»، فما أرادوا أن يفرطوا في واحدة من هؤلاء الخمس؛ لذلك أخرجوا زكاة أموالهم، قال: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**»^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم، رقم (٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام، رقم (١٦)، من حديث عبد الله بن عمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**.

فإن تعجب فاعجب من هذا المسكين الذي حرص على الصلاة فهو من المصلين، وحرص على الصيام فهو مع الصائمين، وكذلك جاء بالشهادتين قبل ذلك، وتراه حاجاً رباً في كل عام، لكنه إذا أتى عند الزكاة توقّف، وحرّت تلك النفس التي لم تتخلص من سُحِّها وبخلها.

لذا أحمل بشارات للمزكين، أولئك الذين ما زالوا يُزكون أموالهم منذ أن عرفوا بحكم الزكاة، فإن لهم حقاً علينا أن نذكرهم بهذه الفضيلة العظيمة للمتصدق بشكل عام، ماذا وعدهم النبي ﷺ؟ حتى إذا أخرجت هذا المال تُخرجه وأنت ترى هذا الحافر العظيم أمامك.

البشارة الأولى: المزكي حينما يُزكي فإن ذلك برهان على صدق إيمانه، وبرهان على تغلبه على سُحِّ نفسه.

فقد قال رسول الله ﷺ - كما جاء في حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم -: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمَلُّؤُ الْمِيزَانِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمَلُّانِ أَوْ تَمَلُّ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا»^(١).

والشاهد من الحديث: «وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ» أي: برهان على صدق إيمان هذا المتصدق الذي أخرج زكاة ماله، قلّت هذه الزكاة أو كثرت، كما سيأتي.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم (٢٢٣)، من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

البشارة الثانية: بالزكاة والصدقات تنزل البركات من الله تبارك وتعالى، وقد دل على ذلك ما جاء في (صحيح البخاري) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا. وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلْفًا**»^(١)، فهذا الذي يُزكي يخلف عليه بخير، والمتصدق يخلف الله عليه بخير، فتتمو أمواله، ويبارك له في ماله وعياله وصحته، ويبارك له في أوقاته، ويبارك له من حيث لا يعلم.

البشارة الثالثة: الفوز بالجنة، يفوز بها المزكي والمتصدق، ولا نحتاج بعد هذه البشري بشرى أخرى.

فقد جاء عند البخاري في حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، قال طلحة: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي مَاذَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ؟ قَالَ: «**الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ شَيْئًا**» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الصِّيَامِ. قَالَ: «**شَهْرَ رَمَضَانَ، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ شَيْئًا**» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي بِمَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الزَّكَاةِ. قَالَ: فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: وَالَّذِي أَكْرَمَكَ لَا أَتَطَوَّعُ شَيْئًا، وَلَا أَنْقُصُ مِمَّا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ شَيْئًا - أَي: سَأَفْعَلُ الْفَرَائِضَ فَقَطْ، وَمِنْ ذَلِكَ الزَّكَاةُ - قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ**» أَوْ: «**دَخَلَ الْجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ**»^(٢).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَكَى﴾، رقم (١٤٤٢)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك، رقم (١٠١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب الزكاة من الإسلام، رقم (٤٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الصلوات، رقم (١١)، من حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.

البشارةُ الرابعةُ: أَنَّ بِالزَّكَاةِ تُكْفَرُ السَّيِّئَاتُ، فَبِالزَّكَاةِ وَالصَّدَقَاتِ تُكْفَرُ السَّيِّئَاتُ.

وقد قال الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢]، فَبِالزَّكَاةِ تُكْفَرُ السَّيِّئَاتُ.

وقد جاءَ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ فِي (سُنَنِهِ) مِنْ حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ كَعْبُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ! الصَّلَاةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الحَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ»^(١)، فَكَلَّمَا أَحْطَأَ الْإِنْسَانُ جَاءَتْ زَكَاتُهُ وَصَدَقَاتُهُ تُطْفِئُ تِلْكَ الحَطَايَا وَالذُّنُوبَ وَالسَّيِّئَاتِ.

البشارةُ الخامسةُ: انْظُرْ إِلَى حَالِنَا فِي أَيَّامِ الحَرِّ، كَيْفَ نَهْرَبُ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ، وَنَبْحَثُ عَنِ الظِّلِّ الظَّلِيلِ، نُوَارِي فِيهِ أَجْسَادَنَا، وَرَبِّمَا بَحَثْنَا عَنْ ظِلِّ نُوَارِي فِيهِ سَيَارَاتِنَا وَنَحْنُ نُصَلِّي، وَرَبِّمَا ذَهَبْنَا إِلَى مَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ، ذَهَبْنَا لِنَبْحَثَ عَنِ الظِّلِّ لِنَعَالِنَا - أَجَلَّكُمْ اللَّهُ -؛ كُلُّ ذَلِكَ لِحَاجَتِنَا إِلَى الظِّلِّ.

فكَيْفَ إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ، وَكَانَتِ الشَّمْسُ عَلَى رُؤُوسِ الخَلَائِقِ بِقَدْرِ مِيلٍ؟! وَبَدَأَ النَّاسُ يَعْزِقُونَ، وَبَدَأَ مَنْسُوبُ العَرَقِ يَرْتَفِعُ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَصِلُ مَنْسُوبٌ

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ: أَبْوَابُ السَّفَرِ، بَابُ مَا ذَكَرَ فِي فَضْلِ الصَّلَاةِ، رَقْمٌ (٦١٤)، مِنْ حَدِيثِ كَعْبِ ابْنِ عُجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

العرق إلى كعبته، ومنهم إلى رُكبتيه، ومنهم إلى حَقْوَيْهِ، ومنهم مَنْ يُلجِئُهُ العرقُ إجمالًا، في ذلك المشهدِ العَصِيبِ واليومِ العَصِيبِ.

فهناك أناسٌ تحتَ ظلِّ صدقاتِهِمْ، لا يتأذَّونَ بهذا الحرِّ، وهؤلاءِ هم المُتصدِّقونَ الَّذِينَ أخرجوا زكاةَ أموالِهِمْ وصدقاتِهِمْ؛ لذا جاءَ في (مُسندِ أحمدَ) مِن حديثِ عَقَبَةَ بنِ عامرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ» أَوْ قَالَ: «يُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ»^(١) وَهُوَ مَشْهُدٌ عَظِيمٌ، وَكَلَّمَا كَثُرَتْ هَذِهِ الصَّدَقَاتُ وَالزُّكُوتُ، كَانَ الظِّلُّ أَكْبَرَ وَأَعْظَمَ.

والحديثُ المشهورُ عندَ البخاريِّ من حديثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ» وَذَكَرَ مِنْ ذَلِكَ: «وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ سِئَالُهُ مَا تُنْفِقُ بِيَمِينِهِ»^(٢).

البشارة السادسة: أَنَّ الزكاةَ هِيَ الكَنْزُ المَدَّخَرُ فِي حِسابِكَ، فَحِينَما تَذْهَبُ إِلَى هَذَا الصَّرَافِ أَوْ إِلَى مَصْرِفِكَ، وَتَأْخُذُ مَالًا، فَتَقْتَطِعُ مِنْ مَالِكَ جِزْءًا تَزْكِي بِهِ أَوْ تَصَدِّقُ بِهِ، فَأَنْتَ تُخْرِجُهُ مِنْ هُنَا لِيُدْخَرَ لَكَ هُنَاكَ، وَفَرَقٌ بَيْنَ الِادِّخَارِ هُنَا، وَالِادِّخَارِ هُنَاكَ؛ لِأَنَّ الِادِّخَارَ هُنَاكَ يَنْمُو وَيَزِيدُ وَيَرْبُو.

فَقَدْ جَاءَ فِي (صَحِيحِ البُخاريِّ) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ - وَلَا يَصْعَدُ إِلَى اللهِ إِلَّا الطَّيِّبُ - فَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَرْبِّيَهَا

(١) أخرجه أحمد (٤ / ١٤٧)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم (٦٦٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١).

لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلَوْهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ»^(١)، هذا وهي تمرة فكيف بالذي له الآن عشرون سنةً، أو ثلاثون سنةً وهو يُزكي أمواله طيبةً بذلك نفسه.

البشارة السابعة: الزكوات والصدقات تقي من الآفات والنكبات، وكلنا مُعرَّضٌ إلى هذه النكبات والآفات، والشور والمحن، فمن أخرج زكاة ماله وُقِيَ شرَّها.

فقد جاء في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الطبراني في (معجمه الأوسط) قال: جاء رجلٌ فقال للنبي ﷺ: يا رسول الله، أرأيت إذا أدى رجلٌ زكاة ماله؟ قال ﷺ: «مَنْ أَدَى زَكَاةَ مَالِهِ، فَقَدْ ذَهَبَ عَنْهُ شَرُّهُ»^(٢).

وفي حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عند الطبراني أيضًا، قال ﷺ: «صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ، وَالصَّدَقَةُ خَفِيًّا تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ»^(٣).

والبشائر في ذلك كثيرةٌ لهؤلاء الذين صعدوا على شح نفوسهم فبدلوا طيبةً بذلك تلك النفوس.

وهناك بعض الناس كانوا يحسبون زكاة أموالهم عند دوران الحول، فيجدونها سبعين دينارًا، أو مائة دينارٍ، فيسهل عليهم إخراجها، أما اليومُ زادت أموالهم، وتضخمت، وكثرت، وتعددت الحسابات، فلمَّا جاؤوا يحسبون زكاة أموالهم فإذا بها كثيرةٌ، قد تكون ثلاثين ألفَ دينارٍ، أو خمسين ألفَ دينارٍ، أو مائتي

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب الصدقة من كسب طيب، رقم (١٤١٠)، ومسلم: كتاب

الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) المعجم الأوسط (١٥٧٩).

(٣) المعجم الأوسط (٦٠٨٦).

ألف دينار، فإذا بهم يتراجعون.

كانوا يوماً من الأيام يَحْتُونُ على الزكاة، ويرغبون فيها، ويذكرون زملاءهم بالزكاة، والآن توقفوا، فالزكاة صارت كثيرة، بدأت نفوسهم تتلکأ وتراجع.

فهناك بعض الناس إلى الآن لا يُزَكِّي، وقد أعطاه الله من الخير، مع أنه يُصَلِّي ويصوم ويحج، وهو من أبناء الإسلام، لكن عند الزكاة يتوقف ولا يستطيع، فيقال لهذا المتردد، الذي تخلف هذه النصوص الثلاثة:

النص الأول: قال الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُوْرَةِ التَّوْبَةِ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ**

الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٥﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥]، فأين المخرج والنجاة؟ وهذا الذي يجمع، ثم يجمع، ثم يجمع، سيذهب عنه يوماً من الأيام، فلمن يدخر؟ ثم من أعطى هذا المال إلا الله سبحانه.

النص الثاني: جاء عند الطبراني في (معجمه الصغير) من حديث أنس

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ **ﷺ** قَالَ: «**مَنْعُ الزَّكَاةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي النَّارِ**»^(١) مهما عاش في الدنيا: ستين سنة، أو سبعين سنة، مصيره إلى النار، وإن كنا قد ذكرنا هذه البشائر السبع للمزكين؛ فمن حق أولئك المتخلفين المترددين أن نذكرهم بهذا الأمر.

النص الثالث: قد جاء في حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند البخاري، أن النبي

ﷺ قَالَ: «**مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مِثْلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا**» أي: تُعباناً

(١) المعجم الصغير (٩٣٥).

«أَقْرَعُ لَهُ زَبِيَّتَانِ يُطَوِّفُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلَهْزِمَتَيْهِ - يَعْنِي: شِدْقَيْهِ - ثُمَّ يَقُولُ:»
 هذا الثعبانُ الشجاعُ الأقرعُ الذي تساقطَ شعرُ رأسه من سَمِّهِ «أَنَا مَالِكٌ، أَنَا
 كَنْزُكَ». ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْآيَاتِ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ
 يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠] (١).

وهاهنا مسائلٌ عن الزَّكَاةِ:

نقول: ما من نعمةٍ ننعُمُ بها إلا وهي من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، إذ يقول المولى
 سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وقد جعلنا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُسْتَخْلَفِينَ على هذه النعم، وأمرنا بالإِنْفَاقِ منها
 فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ
 ءَامِنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧].

ثم وعدنا وبشّرنا بالثوابِ العظيم، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي بِبَسْطِ
 الرِّزْقِ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ، وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ
 الرَّزَاقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

وصحَّ عنه ﷺ كما جاء في (صحيح مسلم) من حديث أبي سعيد الخدريِّ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ
 تَعْمَلُونَ» (٢).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، رقم (١٤٠٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الرقائق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة

وأذكر هنا أربع مسائل تتعلق بالزكاة:

المسألة الأولى: أن الزكاة عبادة في الأمم السابقة، فهي ليست لهذه الأمة فحسب؛ فقد قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۗ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۗ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢-٧٣].

وقال سبحانه: ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكَتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۖ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤-٥٥].

فهذه الزكاة التي نتقرب بها إلى ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى هي ليست من خصائص هذه الأمة، بل هي عبادة في سائر الأمم ممن سبق.

المسألة الثانية: أن مانع الزكاة يتسبب في ضرر الأفراد والجماعات.

أمّا على مستوى الأفراد، فأعظم هذه الأضرار ما يكون في يوم القيامة، وقد سبق أن المزكي الذي يخرج زكاة ماله ينعم في يوم القيامة، ورأينا هناك يستظل في ظل صدقته، أمّا هذا الفرد الذي لا يزكي فقد قال عنه رسول الله ﷺ - والحديث في (صحيح مسلم) - من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَا مِنْ صَاحِبٍ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِي عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَكْوَى بِهَا جَنْبَهُ، وَجَبِينَهُ، وَظَهْرَهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ عَلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى

النَّارُ^(١).

أي: يُوتَى بهذا المالِ فيُجعلُ كالصحنِ ويوقدُ عليه من نارِ جهنمَ حتَّى إذا اشتدَّ نارُها، واشتدَّت حرارتُها؛ كُويَ بها جبينُه وجنبُه وظهرُه، فإذا بردت أُعيدت عليه، ليستَ دقائق ولا أيامًا ولا شهورًا. دعك من عذابِ الدنيا قدَّ يُصبرَ عليه، لكن هذا العذابُ الأليمُ يستطيع الصبر عليه.

ولمَّا تُوفِّي رسولُ الله ﷺ واستُخلفَ أبو بكرٍ رضي الله عنه، ارتدَّت بعضُ القبائلِ، وامتنعت عن أداءِ الزكاةِ، فقامَ لهم أبو بكرٍ رضي الله عنه، وجَهَّزَ لهم جيشًا يُقاتلهم على تخلفهم عن هذه العبادَةِ، وقفَ عمرُ رضي الله عنه في وجهه، وقال: كيف تقاتل من قال: لا إله إلا الله؟ فقال أبو بكرٍ رضي الله عنه: «والله لأقاتلنَّ من فرَّق بينَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهَا»^(٢).

فالأمرُ ليس سهلًا، فإنه رضي الله عنه سيقاتلهم لأنهم تخلفوا عن أداءِ هذه العبادَةِ العظيمةِ.

ومانعُ الزكاةِ يُلحقُ الضررَ بنفسه، ويُلحقُ الضررَ بغيره، وانظر هذه الرواياتِ العظيمةَ:

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، رقم (١٤٠٢)، مسلم: كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، رقم (٩٨٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم (١٣٩٩-١٣٤٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، رقم (٢٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قد جاء عن الطبراني في (معجمه الأوسط) من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، يقول: قال رسول الله **ﷺ**: «**مَا مَنَعَ قَوْمَ الزَّكَاةِ إِلَّا ابْتِلَاهُمُ اللَّهُ بِالسَّنِينِ**»^(١) أي: بالقحط.

وعند الحاكم في (مستدرکه) رواية أخرى قال رسول الله **ﷺ**: «**وَمَا مَنَعَ قَوْمَ الزَّكَاةِ إِلَّا حَبَسَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْقَطْرَ**»^(٢) أي: تتأثر السماء فلا تنزل منها هذه الخيرات والبركات، وتصاب هذه الأرض بالقحط.

وفي رواية ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** قال رسول الله **ﷺ**: «**وَمَا مَنَعَ قَوْمَ زَكَاةِ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا**»^(٣).

فانظر إلى خطورة منع الزكاة كيف يكون؟! فإن الذي لا يُزكي ظالم لنفسه، وظالم لغيره، وللظلم آثار على الفرد والمجتمع.

وفي (شعب الإيمان) للبيهقي يستمع أبو هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** لرجل يجلس بجانبه، يقول: «**إِنَّ الظَّالِمَ لَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ**» أي: ليس هناك ضررٌ مُتَعَدٍّ، فقال أبو هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «**بَلَى، وَاللَّهِ -أَي: بلى، إِنَّ الظَّالِمَ يَضُرُّ نَفْسَهُ وَغَيْرَهُ- حَتَّى الحُبَارَى لَتَمُوتَ فِي وَكْرِهَا هَذَا لَأَلَّا لَظَلَمَ الظَّالِمُ**»^(٤) أي: يتضايق طائر الحبارى من ظلم الظالم ويموت بضغفه وهزاله.

(١) المعجم الأوسط (٤٥٧٧، ٦٧٨٨).

(٢) المستدرک (١٢٦/٢).

(٣) أخرجه ابن ماجه: كتاب الفتن، باب العقوبات، رقم (٤٠١٩)، من حديث ابن عمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**.

(٤) شعب الإيمان (٧٠٧٥).

وقال مجاهدٌ **رَحِمَهُ اللهُ**: «إِنَّ الْبَهَائِمَ تَلْعَنُ عُصَاةَ بَنِي آدَمَ إِذَا اشْتَدَّتِ السَّنَةُ، وَأُمْسِكَ الْمَطَرُ، وَتَقُولُ: هَذَا بِشُؤْمِ بَنِي آدَمَ»^(١).

وقال عكرمة **رَحِمَهُ اللهُ**: «دَوَابُّ الْأَرْضِ وَهَوَامُّهَا حَتَّى الْحَنَافِسُ وَالْعَقَارِبُ، يَقُولُونَ: مَنَعْنَا الْقَطْرَ بِذُنُوبِ بَنِي آدَمَ»^(٢).

فهذا الضررُ مُتَعَدِّ بِسَبَبِ ظَلَمِ الظَّالِمِ حِينَما تَخَلَّفَ عَنِ أَدَاءِ الزَّكَاةِ.

المسألة الثالثة: الزكاة واجبة على الجميع، من مَلِكٍ نِصَابًا، وَحَالَ عَلَيْهِ الْحَوْلُ وَجَبَ عَلَيْهِ بِنَفْسِهِ أَنْ يُخْرِجَ زَكَاةَ مَالِهِ، حَتَّى الصَّغِيرُ الَّذِي لَمْ يَبْلُغِ الْحُلُمَ، وَحَتَّى الْمَجْنُونُ فَعَلَى وَلِيِّهِ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ مَالِهِ الزَّكَاةَ.

وهنا أقول لبعض الأبناء والشباب: إذا كنتَ تَمْتَلِكُ فِي رِصِيدِكَ وَفِي حِسَابِكَ مَالًا خَاصًّا بِكَ فَأَخْرِجْ زَكَاةَ مَالِكَ، وَلَا تَتَخَلَّفْ، وَلَا تَقُلْ: إِنَّ الْمَخَاطَبَ هُمُ الْكِبَارُ فَقَطْ، فَكُلُّ مَنْ مَلَكَ مَالًا وَحَالَ عَلَيْهِ الْحَوْلُ وَجَبَتْ فِيهِ الزَّكَاةُ وَلَا بُدَّ مِنْ إِخْرَاجِهَا، قَالَ اللهُ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾** أَي: كُلِّهِمْ **﴿صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾** [التوبة: ١٠٣].

ومع الأسفِ بعضُ الآباءِ إذا وَجَدَ مِنْ أَحَدِ أَبْنَائِهِ مِمَّنْ يَمْلِكُ أَرْصَدَةً فِي حِسَابَاتِهِ، وَقَدْ تَأَثَّرَ بِهَذَا الْكَلَامِ وَوَعَى وَانْتَبَهَ وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ زَكَاةَ مَالِهِ. قَالَ لَهُ وَالِدُهُ أَوْ الْوَالِدَةُ: احْفَظْ مَالَكَ، أَنْتَ مَا زِلْتَ صَغِيرًا، وَلَوْ أَرَادَ أَنْ يُسَافَرَ بِهَا لِيَلْعَبَ وَيَتَلَدَّدَ، وَيَقْضِي شَهْوَاتِهِ هُنَا وَهَنَاكَ لَمَا قِيلَ لَهُ مِثْلُ هَذَا الْكَلَامِ.

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٢/ ٧٣٤).

(٢) أخرجه الطبري في التفسير (٢/ ٧٣٤).

وقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِيهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]، فكلُّ واحدٍ سيُحاسَبُ بمُفْرَدِهِ، والدُّكُّ ووالدُتُّك، هؤلاء الذين يصدُّونك عن هذه العبادة سيُفَرِّون منك يومَ القيامة، وستُفَرُّ منهم أنت يومَ القيامة.

وقد جاء في (سُنن أبي داود) أنَّ امرأةً دخلت على النبي ﷺ ومعها ابنتها وفي يَدِ ابنتها مَسَكَتَانِ غَلِيظَتَانِ مِنْ ذَهَبٍ -أي: أساور- فقال النبي ﷺ للأُمِّ: «أَتَوَدِّينَ زَكَاةَ هَذَا؟» قَالَتْ: لَا، قَالَ: «أَيْسُرُكَ أَنْ يُسَوِّرَكَ اللَّهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَوَارِينَ مِنْ نَارٍ؟» قَالَ: فَخَلَعَتْهُمَا فَالْقَتْهُمَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: هُمَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ ^(١).

فالبَدَارَ البَدَارَ! يَا مَنْ لَا يَزَالُ مُتَرَدِّدًا، وَمَنْ لَا يَزَالُ يُرَاجِعُ نَفْسَهُ، وَمَنْ لَا يَزَالُ يَنْظُرُ فِي أَمْوَالِهِ لِيَعْلَمَ أَنَّ هَذَا الْمَالَ فِيهِ حَقٌّ، وَحَقُّهُ هَذِهِ الزَّكَاةُ.

المسألة الرابعة: اجعل زكاتك لله تعالى، ولا تطلب منها حظًا من حظوظ الدنيا، ولا تدفعها رياءً وسُمعةً، ولا تدفعها لتحصّل حظوظًا من حظوظ الدنيا، ويكون هو المقصد الأساس والأوّل، فإنّ المنّ بالصدقة أو المراءاة بالزكاة مؤذِنٌ بحبوط العمل، فقد قال الله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْتَغُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الزكاة، باب الكنز ما هو، رقم (١٥٦٣)، والترمذي: كتاب الزكاة، باب ما جاء في زكاة الحلي، رقم (٦٣٧)، والنسائي: كتاب الزكاة، باب زكاة الحلي، رقم (٢٤٧٩)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فإذا دَفَعْتَ مِنْ هَذَا الْمَالِ فَلَا تَحْرِضُ أَنْ يِرَاكَ فُلَانٌ أَوْ يَسْمَعَ بِكَ فُلَانٌ، وَتَجْتَهِدَ فِي إِحْضَارِ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ حِينَمَا تُزَكِّي، وَتَجْمَعُ حَوْلَكَ آلَاتِ التَّصْوِيرِ، وَتَطْلُبُ مِنْ هَذَا وَهَذَا أَنْ يَتَحَدَّثَ عَنْ عَطِيَّتِكَ وَزَكَاتِكَ، وَرُبَّمَا مَنْ بَهَا الْبَعِيدُ وَسَمَّاها غَيْرَ الزَّكَاةِ؛ فَسَمَّاها مَنِحَةً أَوْ سَمَّاها غَيْرَ ذَلِكَ، فَاجْعَلْهَا لِلَّهِ سَبْحَانَهُ، نَعَمْ قَدْ تُعْلَنُ بَهَا لِتُحَرِّكَ بَهَا الْخَامِلِينَ الْقَاعِدِينَ، فَهَذَا مَقْصِدٌ حَسَنٌ، فَعَلِيَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُبَادَرَ إِلَى تَصْحِيحِ نِيَّتِهِ.

وَأَقُولُ أَيْضًا لِلْقَائِمِينَ عَلَى الْجَمْعِيَّاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَالصَّنَادِيقِ الْخَيْرِيَّةِ، وَالْمَرَاكِزِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ: أَرْجُوكُمْ، لَا تَجْعَلُوا مِنْ هَذِهِ الزَّكَّاتِ الَّتِي تَجْمَعُونَهَا إِذْ لَوْلَا وَاسْتِغْلَالًا لِلْفَقِيرِ، خَاصَّةً فِي مَوْسَمِ الْإِنْتِخَابَاتِ وَالْمُحَاصَصَاتِ، فَلَا تُدْخِلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ فِي اسْتِغْلَالِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، لِتَضْمَنُوا بِهَا صَوْتَ فُلَانٍ أَوْ فُلَانِي؛ فَإِنَّ هَذَا حَرَامٌ.

فاجعلْ زَكَاتِكَ لِلَّهِ تَعَالَى؛ سِوَاءُ كُنْتَ أَنْتَ الدَّافِعَ، أَوْ أَنْتَ الْوَكِيلَ، أَوْ الْوَسِيطَ، أَوْ الْعَامِلَ عَلَيْهَا، وَلَا تَجْعَلْهَا لِتَحْصَلَ بِهَا مَكَاسِبَ الدُّنْيَا، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْإِنْسَانِ: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُزِيدُكُمْ جَزَاءً وَلَا نُكْفِرُكُمْ بِهِ ۝٩﴾ [الإنسان: ٨-٩]، أَي: لَا نُزِيدُ مِنْكُمْ شُكْرًا، فَالَّذِي يُعْطَى وَيُرِيدُ أَنْ يُقَالَ لَهُ: شُكْرًا. فَإِنَّ فِي عَطِيَّتِهِ خِلَافًا، يَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ فِيهَا: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُزِيدُكُمْ جَزَاءً وَلَا نُكْفِرُكُمْ بِهِ ۝٩﴾ [الإنسان: ٩-١٠]، وَيَخْرُجُ أَيْضًا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿فَوَقَّهَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهَهُمْ نَصْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١١-١٢].

قال ابن تيمية **رَحْمَةُ اللَّهِ** في (مجموع الفتاوى): «وَمَنْ طَلَبَ مِنَ الْفُقَرَاءِ - أَي: بعدَ أَنْ يُعْطِيَهُمْ - الدَّعَاءَ أَوْ الشَّنَاءَ خَرَجَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ»^(١).

فكيف بالذي يطلبُ أصواتهم، ويقولُ: الَّذِي مَعَنَا نُعْطِيهِ، وَالَّذِي لَيْسَ مَعَنَا لَا نُعْطِيهِ، فليحذر من هذا؛ فَإِنَّ هَذَا الْمَالَ مَالُ اللَّهِ.

هذا وصلُّوا وسلِّموا على رسولِ الله كما أمرَ اللهُ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** في كتابه الكريمِ قائلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

• • k • •

(١) مجموع الفتاوى (١١/١١١).



(٢١)

وصايا بين يدي رمضان

• • k • •

إن المتأمل في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ يجد أن الوصايا تتكرر فيها، وذلك لأهمية الوصايا، ومدى تأثيرها في حياة الموصى.

الوصية الأولى: أجب النداء فأقبل.

فقد أخبرنا النبي ﷺ - كما جاء عند الترمذي في (سننه) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: «إِذَا كَانَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ، وَمَرَدَةُ الْجِنِّ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ، وَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ، وَاللَّهُ عَتَقَاءُ مِنَ النَّارِ، وَذَلِكَ كُلُّ لَيْلَةٍ»^(١).

وهو مشروعٌ استثنائيٌّ عظيمٌ، مغبونٌ هذا الذي يفرط فيه، ففيه تُصَفَّدُ الشياطينُ ومردةُ الجنِّ، فلا عُذْرَ لهذا الذي يُعَلِّقُ أخطاءه ومصائبه وبلاويَه على الشيطانِ، وستُغْلَقُ أبوابُ الجحيمِ فلا يُفْتَحُ منها بابٌ، ويُنادي المنادي: يا باغي الخيرِ أقبلْ! فمَنْ بَلَغَهُ اللهُ شهرَ رمضانَ فقد بَلَغَهُ أعظمَ المشاريعِ الاستثنائيةِ، وما عليك إلا أن تستثمرَ في الحسناتِ.

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الصوم، باب ما جاء في فضل شهر رمضان، رقم (٦٨٢)، والنسائي: كتاب الصيام، باب فضل شهر رمضان، رقم (٢٠٩٧-٢١٠٦)، وابن ماجه: كتاب الصيام، باب ما جاء في فضل شهر رمضان، رقم (١٦٤٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَكُنْ مِنَ الْمُقْبِلِينَ عَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَمِنَ الْمُشْمَرِينَ، أَلَا تَذْكُرُونَ فَلَانًا كَانَ
مَعَنَا فِي الْعَامِ الْمَاضِي وَمَاتَ؟! أَلَا تَذْكُرُونَ فَلَانَةً كَانَتْ تُصَلِّيْ مَعَنَا صَلَاةَ التَّرَاوِيحِ،
وَتَجْلِسُ مَعَنَا عَلَى مَائِدَةِ الْإِفْطَارِ، وَتُصَلِّيْ وَتَذْكُرُ اللَّهَ، إِنَّهَا الْآنَ حَبِيْسَةٌ قَبْرِهَا، لَيْسَ
ثَمَّ إِلَّا عَمَلُهَا، قَدْ أَكُونُ أَنَا أَوْ أَحَدُكُمْ فِي الْعَامِ الْقَادِمِ كَذَلِكَ، فَاسْتَمِرُّ هَذِهِ
الْفُرْصَ.

الْوَصِيَّةُ الثَّانِيَّةُ: حَقِّقِ التَّقْوَى.

فَالْغَايَةُ الْعُظْمَى مِنَ الصِّيَامِ تَحْقِيقُ التَّقْوَى، بِلِ الْغَايَةُ الْعُظْمَى مِنْ كُلِّ عِبَادَةِ
تَحْقِيقُ التَّقْوَى، قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ
وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٩٧]، فَالْغَايَةُ مِنَ الْعِبَادَةِ تَحْقِيقُ التَّقْوَى.

وَمِنْ ذَلِكَ الصِّيَامُ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فَسَأَلْ نَفْسَكَ فِي مَسَاءِ كُلِّ يَوْمٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَاسْأَلْ نَفْسَكَ فِي نَهَارِ كُلِّ يَوْمٍ
مِنْ رَمَضَانَ: هَلْ حَقَّقْتَ التَّقْوَى أَمْ لَا؟ وَقَدْ يَسْأَلُ سَائِلٌ وَيَقُولُ: أَنَا لَا أَعْرِفُ
التَّقْوَى؟

أَقُولُ: جَاءَ فِي كِتَابِ (الزُّهْدِ الْكَبِيرِ) لِلْبَيْهَقِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّ عَمَرَ بْنَ عَبْدِ
الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَبَانَ لَنَا مَا هِيَ التَّقْوَى وَمَعْنَاهَا، فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَيْسَ تَقْوَى اللَّهِ
بِصِيَامِ النَّهَارِ، وَلَا بِقِيَامِ اللَّيْلِ، وَالتَّخْلِيطِ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ تَقْوَى اللَّهِ تَرْكُ مَا
حَرَّمَ اللَّهُ وَأَدَاءُ مَا افْتَرَضَ اللَّهُ»^(١). هَذِهِ هِيَ تَقْوَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

(١) أخرج البيهقي في الزهد الكبير رقم (٩٦٤).

فهذا الذي يصومُ نهاره ولا يُصليُّ ما افترضَ اللهُ عليه، كأنَّ يُصليَّ الفجرَ ويناظُ فيفوتُ عليه صلاةُ الظهرِ وقد تكونُ صلاةُ الجمعةِ، ولا يُصليُّ العصرَ، وبالكادِ يقومُ لصلاةِ المغربِ، ثم في نهايةِ الشهرِ يقولُ: شهرُ رمضانَ خفيفٌ علينا، الحمدُ لله لم نتعبْ فيه. كيف يتعبُ هذا وهو نائمٌ؟! فهذه هي ليستِ التقوى أبداً، إنَّها التقوى تركُ ما حرمَ اللهُ، وأداءُ ما افترضَ اللهُ.

الوصيةُ الثالثةُ: احذرُ سُراقَ رمضانَ.

أنتَ تصومُ وهناك من يريدُ أن يسرقَ منكَ رمضانَ، ويريدُ أن يفوتَ عليك هذه الفرصَ والفضائلَ.

وقد بيَّن لنا رسولُ اللهِ ﷺ الكثيرَ من فضائلِ رمضانَ:

فقد قال: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» رواه البخاريُّ^(١).

وقال: «مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَعَدَ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا» رواه البخاريُّ^(٢).

وقال: «مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ جَعَلَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ خُنْدَقًا كَمَا بَيْنَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب قيام ليلة القدر من الإيمان، رقم (٣٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان، وهو التراويح، رقم (٧٦٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب فضل الصوم في سبيل الله، رقم (٢٨٤٠)، ومسلم: كتاب الصيام، باب فضل الصيام في سبيل الله لمن يطيقه، رقم (١١٥٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» رواه الترمذي^(١).

وقال: «مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ بَاعَدَ اللَّهُ مِنْهُ جَهَنَّمَ مَسِيرَةَ مِئَةِ عَامٍ». رواه النسائي^(٢).

أرأيت هذه الأجور؟ إنَّ هناك مَنْ سِيحَاوُلُ أَنْ يُبْطِطَكَ عَنِ الصِّيَامِ، فَهُنَاكَ مَنْ يَقُولُ لَكَ: لَا تَصُمْ، فغداً تكبرُ إن شاء الله وتصومُ، وهذه الرسائل تُوجِّهُ لبعض الصغار والشباب خاصةً.

وهناك من شياطين الإنسِ مَنْ يَسْعَى أَنْ يَجْعَلَكَ مِنَ الْمُفْطِرِينَ لَا مِنَ الصَّائِمِينَ، وَيُزِينُ لَكَ الْقُبْحَ، وَيَقُولُ: نَجْتَمِعُ بَعْدَ الظُّهْرِ وَتَتَغَدَّى جَمِيعًا، وَسَنَجْعَلُ لَنَا مَكَانًا فِي الْعَمَلِ نَأْكُلُ فِيهِ. وهذا واقعٌ للأسف.

لكن انظر ماذا قال النبي ﷺ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُجْتَرِّئِينَ عَلَى الْإِفْطَارِ فِي نَهَارِ رَمَضَانَ، فِي حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -الذي رواه ابن حبان- يقول: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ أَتَانِي رَجُلَانِ فَأَخَذَا بِضُبُعِي، فَأَتَيَا بِي جَبَلًا وَعَرًّا، فَقَالَ لِي: اصْعُدْ» قَالَ: «حَتَّى إِذَا كُنْتُ فِي سَوَاءِ الْجَبَلِ إِذَا أَنَا بِصَوْتِ شَدِيدٍ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا الصَّوْتُ؟ قَالَ: هَذَا عَوَاءُ أَهْلِ النَّارِ. ثُمَّ انْطَلَقَا بِي فَإِذَا أَنَا بِقَوْمٍ مُعَلَّقِينَ بِعَرَاقِبِهِمْ، مُشَقَّقَةً أَشْدَّاقُهُمْ، تَسِيلُ أَشْدَاقُهُمْ دَمًا، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَقِيلَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ

(١) أخرجه الترمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الصوم في سبيل الله، رقم (١٦٢٤)، من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه النسائي: كتاب الصيام، باب ثواب من صام يوماً في سبيل الله عَزَّجَلَّ، رقم (٢٢٥٤)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يُفْطِرُونَ قَبْلَ تَحِلَّةِ صَوْمِهِمْ»^(١)، فكيف بالذي لا يصوم أصلاً.

الوصية الرابعة: في هذا الشهر المبارك كُنْ من أوتاد المساجد.

فاجعل لك وقتاً تكون فيه في المسجد، خمس ساعات في اليوم أو ست ساعات، وفرغ نفسك، وخفف من الغفلة واللهو، واجلس مع كل فريضة ساعة في المسجد، وكن وتدًا في المسجد.

وقد قال النبي ﷺ كما جاء في (مسند أحمد) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ لِلْمَسَاجِدِ أَوْلَادًا الْمَلَائِكَةُ جُلَسَاؤُهُمْ، إِنْ غَابُوا يَفْتَقِدُونَهُمْ، وَإِنْ مَرَضُوا عَادُواهُمْ، وَإِنْ كَانُوا فِي حَاجَةٍ أَعَانُوهُمْ»^(٢).

الوصية الخامسة: عليكم بالشافع المشفع.

إنها وصية لك أن تستثمر هذا الوقت، وهذه الأنفاس، فليكن أغلب وقتك مع الشافع المشفع، اجعله في يديك أكثر من جوالك، وأكثر من صحيفتك، وأكثر من كتابك، واجعله في يديك في أغلب الوقت، ودعك من أن يقول الناس: هذا مُرَاءٍ، أو غير مُرَاءٍ، فهذه وساوس شيطانٍ. أقصد بذلك القرآن الكريم.

فقد قال النبي ﷺ - كما جاء في (مسند أحمد) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ، مَنَعْتَهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ، فَشَفَّعْنِي فِيهِ. وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَنَعْتَهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ،

(١) أخرجه النسائي في الكبرى رقم (٣٢٧٣)، وابن حبان رقم (٧٤٩١)، من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٤١٨/٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَشَقُّعِي فِيهِ» قَالَ: «فَيْشَقَّعَانِ»^(١).

تأمل قوله: «مَنْعَتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ» أي: أن ليَّله مع القرآن، لا أقول: لا يشاهد تلك المشاهد الآثمة في مختلف وسائل الإعلام، بل عطَّله القرآن عن النوم المباح، فيأتي يوم القيامة فيجد هذا المحامي وهذا الشافع صيامًا وقرآنًا.

الوصية السادسة: احرص على حسناتك من لسانك.

نحن في نهار رمضان وفي ليله نجمع الحسنات؛ من صيامٍ ومن صدقاتٍ ومن قيامٍ ومن دعاءٍ، لكنَّها قد تذهب بسبب هذا اللسان، وينطبق علينا قول النبي ﷺ: «كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الظَّمَأُ! وَكَمْ مِنْ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهْرُ!»^(٢).

أي: يأتي يوم القيامة فلا يجد حسناتٍ، والسبب هو هذا اللسان وما يحدثه من إحراقٍ للحسنات، فنبينا ﷺ يقول - كما جاء في (صحيح البخاري) -: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ وَالْجَهْلَ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»^(٣).

وعند البخاري في كتابه (الأدب المفرد): قيل: يا رسول الله، إن فلانة تقوم الليل، وتصوم النهار، وتفعل، وتصدق، وتؤدي جيرانها بلسانها؟ - فميزانها فيه كفة فيها صيامٌ وقيامٌ وأفعالٌ وصدقاتٌ، والكفة الأخرى فيها إيداءٌ للجار - قال

(١) أخرجه أحمد (١٧٤/٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن ماجه: كتاب الصيام، باب ما جاء في الغيبة والرفث للصائم، رقم (١٦٩٠)، وأحمد

(٢/٤٤١) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور، رقم (١٩٠٣)، من حديث أبي

هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ﷺ: «لَا خَيْرَ فِيهَا، هِيَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»^(١).

فانظر إلى هذه السيئة كم أحرقت من الحسنات هاهنا.

وقال رسول الله ﷺ أيضًا: «أَتَدْرُونَ مِنَ الْمُفْلِسِ؟» قالوا: يا رسول الله: المفلِسُ فينا مَنْ لا دِرْهَمَ له ولا مَتَاعَ. قَالَ: «الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاتِهِ، وَصِيَامِهِ، وَزَكَاتِهِ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيَقْعُدُ» أي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ «فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْتَصَّ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»^(٢).

ثم أوصيكم -مُحذِّراً نفسي وإياكم- من خُدعة كُبرى تَحْصُلُ لَنَا فِي كُلِّ عَامٍ، وَنُحذِّرُ مِنْهَا فِي كُلِّ عَامٍ، وَهِيَ الْمُسَابِقَاتُ الرَّمْضَانِيَّةُ الَّتِي تَأْتِي بِهَا بَعْضُ الْفَضَائِلَاتِ، وَهِيَ نَوْعٌ مِنَ الرِّبَا، وَلَكَ أَنْ تَتَصَوَّرَ إِنْسَانًا صَائِمًا فِي نَهَارِ رَمَضَانَ يَأْكُلُ رَبًّا فِي اللَّيْلِ!

فيقولون لك: تَتَّصِلُ وَنَحْنُ نَسْحَبُ عَلَى هَذِهِ الْأَرْقَامِ، فَقَدْ تَفَوَّزَ مَعَنَا، وَقَدْ تَخَسَّرَ، أَي: تَخَسَّرَ هَذَا الْمَبْلُغَ الَّذِي هُوَ تَكْلِفَةُ الْإِتِّصَالِ الزَّائِدَةُ الَّتِي قَدْ تُؤْهِلُكَ لِلْفَوْزِ. وَهَذَا رَبًّا، وَالرِّبَا خَطِيرٌ، يَكْفِي أَنْ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: كَمَا جَاءَ فِي (مُسْنَدِ أَحْمَدَ)

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم (١١٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨١)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص، رقم (٢٤١٨) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عن الربا: «دِرْهَمٌ رَبًّا يَأْكُلُهُ الرَّجُلُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَشَدُّ مِنْ سِتِّ وَثَلَاثِينَ زَنِيَةً»^(١). فهذا صائمٌ ويقعُ في خَطِيئَةٍ هِيَ عِنْدَ اللَّهِ أَشَدُّ مِنْ سِتِّ وَثَلَاثِينَ زَنِيَةً، وهؤلاء يتصيّدون لنا في نهارِ رَمَضانَ.

لذا قالَ عبدُ اللهِ بنُ المَبَارِكِ رَحِمَهُ اللهُ: «رَدُّ دِرْهَمٍ مِنْ شُبْهَةٍ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِمِئَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَمِئَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَمِئَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ» حَتَّى بَلَغَ إِلَى سِتِّ مِئَةِ أَلْفٍ^(٢).

إِذَنْ هَذِهِ وَصَايَا أَوْصَيْتُ بِهَا نَفْسِي وَإِيَّاكُمْ سَائِلِينَ الْمَوْلَى الْكَرِيمَ الْعَظِيمَ أَنْ يُبَلِّغَنَا شَهْرَ رَمَضانَ وَنَحْنُ فِي صِحَّةٍ وَعَافِيَةٍ وَأَمْنٍ وَإِيْمَانٍ.

هَذَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا - رَحِمَكُمُ اللهُ - عَلَى نَبِيِّ الْهُدَى وَالرَّحْمَةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، كَمَا أَمَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ قَائِلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَزِدْ وَبَارِكْ عَلَى عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَاعْرِضْ عَلَيْهِ صَلَاتِنَا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.



(١) أخرجه أحمد (٢٢٥/٥) من حديث عبد الله بن حنظلة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) إحياء علوم الدين (٢/٩١).

K

K

(٢٢)

أسباب العتق من النار

•• k ••

العتق من النار جعله الله تبارك وتعالى خاصية في شهر رمضان المبارك، وقد تقدم شيء من ما ورد فيه من أحاديث، ومن ذلك:

ما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه - عند البزار -: أن النبي ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى عتق كل يوم وليلة»^(١).

وعند ابن ماجه: قال ﷺ في حديث جابر رضي الله عنه: «إن الله عند كل فطر عتق، وذلك في كل يوم وليلة»^(٢).

وهذا من فضل الله تبارك وتعالى أن يعتق رقاب عبده في هذا الشهر المبارك.

فهل فكرت يوماً ما أن تكون أحد الفائزين بهذا العتق من النار؟ فقد فاز بها أبو بكر رضي الله عنه، كما جاء في (سنن الترمذي) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دخل أبو بكر على رسول الله ﷺ فقال: «أنت عتيق الله من النار»^(٣).

وفاز بها الصالحون، ونسأل المولى تبارك وتعالى أن يجعلنا وإياكم ووالدينا من الفائزين بها، والسبب أن الذي يزرع عن النار هو من الفائزين، يقول الحق

(١) أخرجه البزار رقم (٩٦٢/ كشف الأستار)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن ماجه: كتاب الصيام، باب ما جاء في فضل شهر رمضان، رقم (١٦٤٣)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب المناقب، باب ١٧، رقم (٣٦٧٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ولكن الفوز بهذا الفضل الذي هو العتق من النار ليس ضربة حظ، أو خبط عشواء، إنما هو جهد وبذل وعطاء حتى يصل الإنسان إلى هذه المرتبة، لذا جعل الله تبارك وتعالى للعتق من النار أسباباً، أو جزها في هذه الأسباب الستة:

السبب الأول - وإن شئت فقل: الوسيلة الأولى للعتق من النار - التوحيد الخالص.

وهو أن يعيش الإنسان على التوحيد الخالص، وأن يموت على ذلك، قال الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ الزَّمَرِ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢-٣]، فالله تبارك وتعالى لا يقبل من عبد ديناً مشوباً بشيء آخر، إنما يقبل الدين الخالص من شوائب الشرك والشبه والشهوات.

لذا قال رسول الله ﷺ، كما جاء في حديث عتب بن مالك الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عند البخاري - قال: «لَنْ يُؤَافِيَ عَبْدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. يَتَّبِعِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ»^(١) أي: يقولها ويتبع هذا القول بالعمل. وقد قيل لذي النون المصري رَحِمَهُ اللَّهُ: كيف يعلم العبد أنه من المخلصين؟

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب العمل الذي يتبع به وجه الله، رقم (٦٤٢٢-٦٤٢٣)، من حديث عتب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال: «إِذَا بَدَلَ الْمُجْهَدُ فِي الطَّاعَةِ»^(١). فالإخلاص ليس أمانياً وأفكاراً وأوهاماً، وإنما هو حضورٌ - كما سيأتي بعد قليل - وعملٌ وجهدٌ ولأواءٌ.

السبب الثاني: التبكيرُ إلى الصلواتِ، والعنايةُ بها.

فقد قال رسولُ الله ﷺ، كما جاء في حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -عند الترمذي-: «مَنْ صَلَّى لَهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا فِي جَمَاعَةٍ يُدْرِكُ التَّكْبِيرَةَ الْأُولَى كُتِبَ لَهُ بَرَاءَتَانِ: بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ، وَبَرَاءَةٌ مِنَ النَّفَاقِ»^(٢)، أي: لا يقول: ننتظر ونصبر. فتذهبُ الركعةُ الأولى والثانية، وهذا لا شكَّ جهْدٌ مِنْ فاعِله.

وقال أيضًا رسولُ الله ﷺ في حديثِ حَنْظَلَةَ الْأَسِيدِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -كما جاء عند أحمدَ في (مُسْنَدِهِ)-: «مَنْ حَافَظَ عَلَى الصَّلَاةِ الْخَمْسِ؛ عَلَى وُضُوئِهَا، وَمَوَاقِيَتِهَا، وَرُكُوعِهَا، وَسُجُودِهَا، يَرَاهَا حَقًّا لَهِ عَلَيْهِ، حُرْمَ عَلَى النَّارِ»^(٣). أي: لا يُصَلِّي الفجرَ في جماعةٍ ويُفَرِّطُ في العصرِ، أو يُصَلِّي الظُّهْرَ ولا يُصَلِّي المغربَ، بل يُحَافِظُ عَلَى الصَّلَاةِ الْخَمْسِ، وَهَذَا جَهْدٌ وَعَمَلٌ وَلَيْسَ بِأَمَانِيٍّ.

وكذا قال رسولُ الله ﷺ -كما في (صحيحِ مُسْلِمٍ)-: «لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا»^(٤) يعني: الفجرَ والعصرَ.

(١) انظر: غيث النفع في القراءات السبع للصفافسي (ص ٦٥٦).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب في فضل التكبيرة الأولى، رقم (٢٤١)، من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٤/٢٦٧)، من حديث حنظلة الأسيدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٤)، من حديث عمارة بن ربيعة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

السبب الثالث: البكاء من خشية الله.

إذا خلوت بنفسك وبدأت تبكي من خشية الله، ومن خشية الوقوف بين يدي الله، وخشية المصير في القبر: كيف تكون؟ هل في نعيم أو في جحيم؟ فهذه الدموع التي سكت خشية الله وليست على مسلسلٍ دراميٍّ، أو على فريقٍ مهزومٍ، إنما بكاءٌ من خشية الله، قال فيها النبي ﷺ - كما جاء عند الترمذي - من حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا يَلْجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ»^(١)**، أي: كما أنه لا يمكن أن يعود اللبن في الضرع بعد حلبه، فكذلك لا يمكن أن يدخل رجل النار وقد بكى من خشية الله.

وقال النبي ﷺ أيضًا في حديث ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عند الترمذي -:**
«عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢).

وفي حديث أبي أمامة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ - كما جاء عند الترمذي - قال:**
«لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ قَطْرَتَيْنِ وَأَثَرَيْنِ: قَطْرَةٌ مِنْ دُمُوعٍ فِي خَشْيَةِ اللَّهِ، وَقَطْرَةٌ دَمٍ تَهْرَأُقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَمَّا الْأَثَرَانِ: فَأَثَرٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَثَرٌ فِي فَرِيضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ»^(٣).

(١) أخرجه الترمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الغبار في سبيل الله، رقم (١٦٣٣)، والنسائي: كتاب الجهاد، باب فضل من عمل في سبيل الله على قدمه، رقم (٣١٠٨)، من حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.**

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله، رقم (١٦٣٩)، من حديث ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.**

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل المرابط، رقم (١٦٦٩)، من

وَقَدْ يَتَصَوَّرُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ الْبُكَاءَ ضَعْفٌ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ الْبُكَاءَ خَشِيةٌ مِنْ اللَّهِ لَيْسَ ضَعْفًا، وَإِنَّمَا تَضَعُّفٌ لِلْخَالِقِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وهذا سيّد الخلق ﷺ؛ يقول عنه مُطَرِّفٌ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي فِي صَدْرِهِ أَزِيْرٌ كَأَزِيْرِ الرَّحَى مِنَ الْبُكَاءِ»^(١)، وفي رواية: «كَأَزِيْرِ الْمِرْجَلِ»^(٢) يَرَاهُ يُصَلِّي وَيَسْمَعُ لَصَوْتِهِ صَوْتًا مَبْحُوحًا قَدْ امْتَرَجَ بِالْبُكَاءِ، فَكَانَ كَالرَّحَى مِنَ الْبُكَاءِ.

وَتَصَفُّ لَنَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا صَلَاةَ النَّبِيِّ ﷺ - كما في (صحيح ابن حبان) - فتقول: «فَيَقُومُ فِي اللَّيْلِ فَيُصَلِّي» وَإِنَّمَا يُصَلِّي ﷺ فِي اللَّيْلِ بِمُفْرَدِهِ، تَقُولُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ حِجْرُهُ»، قَالَتْ: «ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ لِحِيَّتِهِ»، قَالَتْ: «ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ الْأَرْضِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ بِلَالٌ يُؤَذِّنُهُ لَصَلَاةِ الْفَجْرِ، فَرَأَهُ يَبْكِي فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ تَبْكُ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟» - أي: مِنْ ذَنْبِكَ - قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةُ آيَةٌ، وَيَلُّ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ وما بعدها]»^(٣).

وَحِينَما دَخَلُوا عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ فِي مَرَضِهِ، إِذَا بِهِ يَبْكِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،

حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب البكاء في الصلاة، رقم (٩٠٤)، من حديث عبد الله بن

الشخير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه النسائي: كتاب السهو، باب البكاء في الصلاة، رقم (١٢١٤)، من حديث عبد الله بن

الشخير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه ابن حبان رقم (٦٢٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ويشتدُّ بكأوه، فيقولون: يا أبا هريرة: لم تبك؟ قال: «أما إني لا أبكي على دُنْيَاكُمْ هذه، ولكن أبكي على بُعدِ سَفَرِي، وقِلَّةِ زَادِي، وأني أَمَسَيْتُ في صُعودٍ ومَهَبَطَةٍ إلى جَنَّةٍ ونارٍ، ولا أدري إلى أيِّهما يُؤْخَذُ بي»^(١)، هذا وهو أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ صاحبُ النبي ﷺ!

السببُ الرابعُ: حُسْنُ الخَلْقِ وحُسْنُ التَعَامُلِ مع الآخِرِينَ.

وهي المصيبةُ التي تعيشها الأمةُ اليومَ، فحُسْنُ التَعَامُلِ مع الخَلْقِ - كلِّ الخَلْقِ -، فقد قال رسولُ الله ﷺ: «حُرِّمَ عَلَى النَّارِ» أي: هذا عَتِيقٌ مِنَ النَّارِ «كُلُّ هَيِّنٍ لَيْنٍ سَهْلٍ قَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ»^(٢)، أي: هيِّنٌ في تَعَامُلِهِ، لَيْنٌ، سَهْلٌ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ، لَيْسَ بِجَافٍ وَغَلِيظِ الطَّبَعِ وَحَادٍّ، بَعِيدٍ عَنِ النَّاسِ، مُتَرَفِّعٍ عَلَى النَّاسِ، وَإِنَّمَا فِي هَذِهِ الْأَخْلَاقِ الْعَالِيَةِ الرَّاقِيَةِ.

السببُ الخامسُ: ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى.

إِنَّ مِنَ الْأَذْكَارِ الْوَارِدَةِ ذِكْرًا يُعْتَقُ صَاحِبَهُ مِنَ النَّارِ، فَحَرِيٌّ بِالْمُسْلِمِ أَنْ يَتَعَرَّفَ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ، وَأَنْ يُرَدَّدَ هَذَا الْحَدِيثُ، وَأَنْ يُكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ.

فقد جاء في حديثِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -عندَ الْحَاكِمِ فِي (مُسْتَدْرِكِهِ)-: أَنْ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُكَ وَأَشْهَدُ مَلَائِكَتَكَ وَحَمَلَةَ عَرْشِكَ، وَأَشْهَدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، وَحَدَّكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ. مَنْ قَالَهَا مَرَّةً أَعْتَقَ اللَّهُ ثَلَاثَةً مِنْ

(١) أخرجه أحمد في الزهد رقم (٨٣١).

(٢) أخرجه أحمد (٤١٥/١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

النَّارِ، وَمَنْ قَالَهَا مَرَّتَيْنِ أَعْتَقَ اللَّهُ ثُلُثِيهِ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ قَالَهَا ثَلَاثًا أَعْتَقَ اللَّهُ كُلَّهُ مِنَ النَّارِ»^(١).

أرأيتم مثل هذا الذكر، ومثل هذا الخير الذي يُسدى إلينا، فأين العامِلون؟!
السبب السادس: دُبَّ عَنْ عَرَضِ أَخِيكَ.

وَكَمْ نَحْنُ فِي حَاجَةٍ إِلَى ذَلِكَ، خَاصَّةً فِي مَجَالِسِنَا، وَفِي أَحَادِيثِنَا، وَقَدْ جَاءَ فِي
(مُسْنَدُ أَحْمَدَ) مِنْ حَدِيثِ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ دَبَّ
عَنْ لَحْمِ أَخِيهِ بِالْغَيْبَةِ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُعْتِقَهُ مِنَ النَّارِ»^(٢).

فَإِنْ كُنْتَ فِي مَجْلِسٍ وَذَكَرَ فُلَانٌ -أَخُوكَ- بِسُوءٍ، فَدُبَّ عَنْ عَرَضِهِ، يَكُنْ
حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُعْتِقَ رَقَبَتَكَ مِنَ النَّارِ، لَا تُسَايِرِ الْآخَرَ فِي الْوُقُوعِ فِي لَحُومِ
إِخْوَانِكَ، فَإِنَّكَ تَقَعُ فِي إِثْمٍ عَظِيمٍ، أَمَّا هَذَا الذَّابُّ عَنْ أَعْرَاضِ إِخْوَانِهِ يَأْتِي هَذَا
الْحَدِيثُ بَيْنَ يَدَيْهِ: «كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُعْتِقَ رَقَبَتَهُ مِنَ النَّارِ»، فَاللَّهُمَّ أَعْتِقْ رَقَابَتَنَا
وَرَقَابَ وَالِدِينَا مِنَ النَّارِ.

هَذَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا -رَحِمَكُمُ اللَّهُ- عَلَى نَبِيِّ الْهُدَى وَالرَّحْمَةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ
اللَّهِ، كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ الْكَرِيمُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ قَائِلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى
النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

• • k • •

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (١/٥٢٣)، من حديث سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٦/٤٦١)، من أسماء بنت يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.



(٢٣)

وسائل تحصيل البركة

•• k ••

الناس في شهر رمضان يتلمسون أمرًا يفتقدونه طوال العام، ويحسون به، ويفرحون به، ويتلذذون به، فهم يدركون معنى البركة، ويتحسسونها ويتلذذون بها، ويدركون أهميتها، يتحسسون البركة في أوقاتهم فيقول الواحد منهم: سبحان الله، كيف يُبارك لي في الوقت؟! أقرأ من القرآن في رمضان ما لا أقرأه طوال العام بعد رمضان.

ويجدون بركة في طعامهم فيقولون: نتلذذ بالطعام في رمضان ما لا نتلذذ به بعد رمضان، ويحسون بالبركة في الوقت، فيقول أحدهم: أجلس مع أولادي وأهلي في رمضان ما لا أجلسه طوال العام. وقُل مثل ذلك في الوقت الذي يُتاح في الزيارات، وذلك لأن رسول الله ﷺ قال: «قَدْ جَاءَكُمْ رَمَضَانُ شَهْرٌ مُبَارَكٌ»^(١).

فجعل الله تبارك وتعالى في رمضان البركة، وهي أمرٌ مطلوبٌ، فكم يصيح الناس اليوم من انعدام البركة، يقولون: لا نجد بركة في الوقت، أو لا نجد بركة في المال، أو لا نجد بركة في الراتب، أو لا نجد بركة في الولد، أو لا نجد بركة في الصحة، يفتقدون البركة، فيأتي رمضان يقول لهم: إن البركة موجودة، لكنكم أنتم انصرفتم عنها، لم تأخذوا بأسبابها.

(١) أخرجه النسائي: كتاب الصيام، باب فضل شهر رمضان، رقم (٢١٠٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والبركة هي: ثبوت الخير ودوامه، ولا قيمة لحياة بلا بركة، فأني طعم مالٍ ليس فيه بركة! أو ولد ليس فيه بركة! أو وقت ليس فيه بركة! أو طعام ليس فيه بركة.

لذا أمر الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** بتحصيل أسباب البركة قال: **﴿ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْ لِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾** [المؤمنون: ٢٩].

وقد كان رسول الله **ﷺ** يُكثِرُ أَنْ يَقُولَ: **«اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ»** (١).

وكان **ﷺ** يُعَلِّمُ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** كَلِمَاتٍ يَقُولُهَا كُلَّ لَيْلَةٍ فِي دَعَاءِ الْقُنُوتِ: **«اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِي مَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِي مَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِي مَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِي مَا أَعْطَيْتَ»** (٢).

فالكلام أن هذا الزمان ليس فيه بركة لا يصح؛ حيث يتحدث الناس في المجالس أنه لا توجد بركة، وفي البيوت تقول الأم: لا توجد بركة. والطالب في المدرسة يقول: لا توجد بركة. والمعلم يقول: لا توجد بركة في الوقت. وهذا الكلام لا يصح، ولو تحدثنا من اليوم إلى قيام الساعة بأنه لا توجد بركة، لن نحصل البركة، فقد جعل الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** أسباباً لكل شيء.

(١) أخرجه النسائي في الكبرى رقم (١٠٣٧٠)، من حديث رفاعة الزرقى **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الوتر، باب القنوت في الوتر، رقم (١٤٢٥)، والترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء في القنوت في الوتر، رقم (٤٦٤)، والنسائي: كتاب قيام الليل، باب الدعاء في الوتر، رقم (١٧٤٥)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء في القنوت في الوتر، رقم (١١٧٨)، من حديث الحسن بن علي **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**.

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْأَلْ مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ^(١)

ووسائل تحصيل البركة كثيرة، فدع عنك الكلام وخذ بهذه الوسائل، إذا أردت أن يبارك لك في عمرك، وفي وقتك، وفي مالك، وفي ولدك.

الوسيلة الأولى: تحقيق الإيمان والتقوى.

فحقق الإيمان الصحيح والتقوى الصحيحة، وهذا الكلام لم يقله فيلسوف أو عبقرى، أو منظر، أو دارس بناء على دراسة، أو عالم في مختبر، إنما قاله الذي خلق السموات والأرض، فقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، أي: لو حققوا الإيمان والتقوى لفتح عليهم البركات من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

فإن قلت لأحدكم: حقق التقوى، يبارك لك في وقتك. قال لك: ما هي التقوى؟

وقد ذكرنا قول عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ حينما قال: «ليس تقوى الله بصيام النهار، ولا بقيام الليل، والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله، وأداء ما افترض الله»^(٢)، هذه هي التقوى التي على إثرها تتحقق البركة.

وقد يقول لك بعض الناس: نحن مشغولون بالسعي على رزق عيالنا. ويترك الصلاة والصيام والتقوى، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يقول في الحديث القدسي: يَا

(١) البيت لأبي العتاهية، انظر: ديوانه (ص ٢٣٠).

(٢) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير رقم (٩٦٤).

ابن آدم تفرغ لِعِبَادَتِي أَمَلًا صَدْرَكَ غِنَى وَأَسَدًا فَفَرَكَ، وَإِلَّا تَفَعَلْ مَلَأْتُ صَدْرَكَ
شُغْلًا وَلَمْ أَسُدَّ فَفَرَكَ»^(١).

الوسيلة الثانية: الدعاء بالبركة.

فَمَنْ أَرَادَ الْبِرْكَهَ فَلْيَطْلُبْهَا مِنْ اللَّهِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ بَارِكْ لِي فِي كَذَا. وَذَكَرْنَا قَبْلَ
قَلِيلٍ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا﴾، وَحَدِيثَ النَّبِيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ
اِنْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ»^(٢)، وَكَانَ يَدْعُو ﷺ بِالْبِرْكَهَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحِينَ وَفِي غَيْرِهِمَا: أَنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا جَاءَتْ بِابْنِهَا أَنَسٍ
صَغِيرًا فِي السَّنِّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا أَنَسُ ابْنِي أَتَيْتُكَ بِهِ
يَخْدُمُكَ فَادْعُ اللَّهَ لَهُ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ، أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيهَا أَعْطَيْتَهُ»، قَالَ
أَنَسُ بَعْدَ أَنْ كَبِرَ فِي السَّنِّ: فَوَاللَّهِ إِنَّ مَالِي لَكَثِيرٌ، وَإِنَّ وَلَدِي وَوَلَدَ وَلَدِي لِيَتَعَادُونَ
عَلَى نَحْوِ الْمِئَةِ الْيَوْمِ^(٣)، أَي: إِذَا تَزَوَّجَ هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ يُصْبِحُونَ مَدِينَةً بِبِرْكَهَةِ دُعَاءِ
النَّبِيِّ ﷺ.

لَكِنَّا الْيَوْمَ - مَعَ الْأَسْفِ - لَمْ نَأْخُذْ بِهَذِهِ الْوَسِيلَةِ، وَأَخَذْنَا بِنَقِيضِهَا، فَنَسْمَعُ
مِنَ الْآبَاءِ مَنْ يَقُولُ لِابْنِهِ: لَا بَارِكَ اللَّهُ فِيكَ. أَوْ لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي السَّاعَةِ الَّتِي جِئْتَ
فِيهَا. فَتُسْتَجَابُ الدَّعْوَةُ وَلَا يُبَارَكُ لَهُ فِيهَا!.

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة، باب ٣٠، رقم (٢٤٦٦)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب
الهم بالدنيا، رقم (٤١٠٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه النسائي في الكبرى رقم (١٠٣٧٠)، من حديث رفاعة الزرقني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الدعاء بكثرة الولد مع البركة، رقم (٦٣٨٠)، ومسلم:
كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٤٨١)، من حديث
أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وآخر يدعو على زمانه بعدم البركة، يقول: لا برك الله في هذا الزمان. أو لا برك الله في هذه الساعة. أو لا برك الله في هذا العمل. فتستجاب الدعوة وتمحق البركة.

لذا كان رسول الله ﷺ يدعو بالبركة؛ فإذا دخل على المتزوج قال: «**بَارَكَ اللهُ لَكَ، وَبَارَكَ عَلَيْكَ، وَجَمَعَ بَيْنَكُمَا فِي خَيْرٍ**»^(١)، فترك دعوى الجاهلية؛ حيث كانوا يقولون للمتزوج: بالرِّفَاءِ والبنين. فنهى نبينا ﷺ عن ذلك^(٢).

وعلمنا رسول الله ﷺ كذلك إذا اشترى أحدنا شيئاً أن يدعو بالبركة، فقال: «**إِذَا اشْتَرَى أَحَدُكُمْ بَعِيرًا، فَلْيَأْخُذْ بِذُرْوَةِ سَنَامِهِ، وَلْيَدْعُ بِالْبَرَكَةِ**»^(٣)، فالبركة من الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**، يُباركُ لك في هذا المركوب.

الوسيلة الثالثة: الصدق في المعاملة والوضوح فيها.

قال عليه الصلاة والسلام: «**الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيْنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا**»^(٤)، فإذا أردت أن تبيع وتشتري فكن

(١) أخرجه أبو داود: كتاب النكاح، باب ما يقال للمتزوج، رقم (٢١٣٠)، والترمذي: أبواب النكاح، باب ما جاء فيها يقال للمتزوج، رقم (١٠٩١)، وابن ماجه: كتاب النكاح، باب تهنئة النكاح، رقم (١٩٠٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن ماجه: كتاب النكاح، باب تهنئة النكاح، رقم (١٩٠٦)، وأحمد (٢٠١/١) واللفظ له، من حديث عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب النكاح، باب في جامع النكاح، رقم (٢١٦٠)، وابن ماجه: كتاب التجارات، باب شراء الرقيق، رقم (٢٢٥٢) واللفظ له، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا بين البيعان ولم يكتما ونصحا، رقم (٢٠٧٩)، ومسلم: كتاب البيوع، باب الصدق في البيع والبيان، رقم (١٥٣٢)، من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه.

صادقاً وبين ما في السلعة، سيارة كانت أو بيتاً أو عقاراً.

وهذا المال من أخذه بحق بُورك له فيه، كما قال النبي ﷺ قال: «فَمَنْ يَأْخُذُ مَالًا بِحَقِّهِ يُبَارِكُ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ يَأْخُذُ مَالًا بِغَيْرِ حَقِّهِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ»^(١).

الوسيلة الرابعة: ارض بما قسم الله لك.

أي: ارض بكل ما أعطاك الله، فكلما رضيت بُورك لك في هذا العطاء.

لكن حال الناس اليوم بالرغم من هذه النعم المتوافرة بين أيدينا؛ حيث يُولد الإنسان في مُستشفيات بالمجان، وإذا كبر دخل مدارس بالمجان، وتعالج في عيادات بالمجان، وتُهيأ له الوظيفة، وإذا خرج منها له جعل له راتب للتقاعد، فهي حياة مرفهة بفضل الله تبارك وتعالى، وبالرغم من ذلك يتذمر الناس، فتُنزع البركة.

وقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْتَلِي عَبْدَهُ بِمَا أَعْطَاهُ، فَمَنْ رَضِيَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ، بَارَكَ اللَّهُ لَهُ فِيهِ وَوَسَّعَهُ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ»^(٢) أي: تُنزع البركة، فحقيق الرضا في كل عطاء يُنعم الله به عليك.

الوسيلة الخامسة: أن تكون في الموضع الذي دعا النبي ﷺ لأهله بالبركة.

ومن ذلك: البكور، وقضاء الحوائج في وقت البكور، وطلب العلم في أول

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتامى، رقم (١٤٦٥)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، رقم (١٠٥٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢٤/٥)، من حديث رجل بني سليم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الصباح، وطلب التجارة في أول الصباح، فقد قال النبي ﷺ: «**بُورِكَ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا**»^(١).

ولا يزال يتردد في مسامعنا بيت من الشعر كان يقوله الآباء، وصار مثلاً في الناس، يقولون:

كَمْ فَاتَ رَقَادَ الضُّحَى مِنْ غَنِيْمَةٍ فَاتَتْ وَرَقَادَ الضُّحَى مَا دَرَى بِهَا

الوسيلة السادسة: الاجتماع على الطعام وذكر اسم الله عليه تنزل فيه البركة.

فقد جاؤوا إلى النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله، إنا نأكل ولا نشبع. قال **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَلَعَلَّكُمْ تَأْكُلُونَ مُتَفَرِّقِينَ»** أي: هذا يأكل في مكان، وهذا يأكل في مكان، وهذا يأكل في مكان. قالوا: نعم. قال: **«فَاجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ، وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ، يُبَارِكْ لَكُمْ فِيهِ»**^(٢).

الوسيلة السابعة: وجود الأكبر من بيننا.

فكبار السن، وكبار الجاه، وكبار العلم كلما كانوا معنا تنزلت البركة؛ لهذا الذي عنده في بيته كبير سن فليحرص عليه، لا يخرج منه كما يفعل بعض الأثقياء

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الابتكار في السفر، رقم (٢٦٠٦)، والترمذي: كتاب البيوع، باب ما جاء في التبكير بالتجارة، رقم (١٢١٢)، وابن ماجه: كتاب التجارات، باب ما يرجى من البركة في البكور، رقم (٢٢٣٦)، من حديث صخر بن وداعة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الأطعمة، باب في الاجتماع على الطعام، رقم (٣٧٦٤)، وابن ماجه: كتاب الأطعمة، باب الاجتماع على الطعام، رقم (٣٢٨٦)، من حديث وحشي بن حرب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

مَنْ أخرج أباهُ أو أمَّهُ، من بيته الَّذي بناه، ومن مملكتِهِ الَّتِي صنعها والدُّهُ طوالَ عُمُرِهِ؛ فتخرُجُ البركةُ، ولا يُباركُ له في حياتِهِ الزوجيةِ، ولا يُباركُ له في أولادِهِ، ولا يُباركُ له في مالِهِ.

وقَد قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «البركةُ معَ أكابِرِكُمْ»^(١)، فهذا الَّذي تراهُ أكبرَ منك سَنًا هو أسبقُ منك تجرِبَةً في الحياةِ، وأسبقُ منك إسلامًا، وأكثرُ منك صلاةً وهُدًى وتُقى، فهذا عنده من أسبابِ البركةِ ما يجعلُك تستمسِكُ به، وتَجعلُ له الحظَّ الأوفرَ في البيتِ، والمكانَ الأوسعَ في البيتِ، والقبولَ والرِّضا له في البيتِ عندَ الجميعِ؛ لأنَّ البركةَ معَ أكابِرِكُمْ، ومن أرادَ البركةَ فلا بُدَّ أن يُحصَلَ أسبابُها.

فاللَّهُمَّ بارِكْ لنا في أعمارِنَا، وبارِكْ لنا في أرزاقِنَا، وبارِكْ لنا في أولادِنَا، وبارِكْ لنا في جميعِ ما أنعمتَ به عَلَيْنَا.

هذا وصلُّوا وسلِّموا -رحمكم اللهُ- على نبيِّ الهدى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ اللَّهِ، كما أمرَ الربُّ الكريمُ في كتابهِ الكريمِ قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

• • k • •

(١) أخرجه ابن حبان رقم (٥٥٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

K

K

(٢٤)

فتح أبواب السماء

•• k ••

تقدّم بنا حديثُ النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ فَتَّحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ». رواه البخاري^(١)، وقد جعل المولى تبارك وتعالى للسماء سقفا محفوظا لا يُمكنُ أن يُعبرَ من سماءٍ إلى سماءٍ إلا بإذنِ الله عن طريقِ هذه الأبوابِ، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وقال: ﴿وَفُتِحَتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبا: ١٩].

ويُقصُّ علينا رسولُ الله ﷺ رحلةَ المعراجِ حينما عُرجَ به مع جبريلَ عليه السلام: أمَّهما كانا يقفانِ عندَ كلِّ سماءٍ يستفتِحون حتى يُفتحَ لهما، فجاء في (صحيح مسلم): أن النبي ﷺ قال: «ثُمَّ عُرِّجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ»، قال: «فُفْتُحَ لَنَا»^(٢).

فَعَلِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ لِهَذِهِ السَّمَوَاتِ أَبْوَابًا لَهَا أَوْقَاتٌ تُفْتَحُ فِيهَا، وَلِهَا دَعَوَاتٌ تَفْتَحُ عِنْدَهَا، وَلِهَا أَعْمَالٌ تُفْتَحُ مِنْ خِلَالِهَا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب هل يقال: رمضان أو شهر رمضان؟، رقم (١٨٩٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾، رقم (٧٥١٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله؟ إلى السموات وفرض الصلوات، رقم (١٦٢)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أما الأوقات التي تُفتح فيها أبواب السموات فهي:

الوقت الأول: حينما يؤذن المؤذن وحينما يُقيم الصلاة.

وثمره ذلك أن الدعاء هاهنا يُستجاب، فقد جاء في (مسند أبي داود الطيالسي) من حديث أنس رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا نُودِيَ بِالصَّلَاةِ، فَتَحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَاسْتُجِيبَ الدُّعَاءُ»^(١).

وفي شأن الإقامة يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم - كما جاء في (مسند أحمد) من حديث جابر رضي الله عنه -: «إِذَا نُوبَّ بِالصَّلَاةِ، فَتَحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَاسْتُجِيبَ الدُّعَاءُ»^(٢). فالعقل المستثمر هو الذي يستثمر هذا الوقت ويوقن تماماً أنه حينما يؤذن المؤذن يبدأ فتح باب السماء، وتبدأ استجابة الدعوات، فإذا فرغ المؤذن من أذانه دعا الله وسأل حاجته وسأله.

الوقت الثاني: عند منتصف الليل في كل ليلة.

وذلك في رمضان وفي غير رمضان، فإنه تُفتح أبواب السماء عند منتصف الليل.

فقد جاء في حديث عثمان بن أبي العاص الثقيفي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تُفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ نِصْفَ اللَّيْلِ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: هَلْ مِنْ دَاعٍ فَيُسْتَجَابُ لَهُ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَيُعْطَى سُؤْلُهُ؟ هَلْ مِنْ مَكْرُوبٍ فَيَفْرَجَ عَنْهُ؟ فَلَا يَبْقَى مُسْلِمٌ

(١) أخرجه الطيالسي رقم (٢٢٢٠)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٣/٣٤٢)، من حديث جابر رضي الله عنه.

يَدْعُو بِدَعْوَةٍ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ لَهُ»^(١).

إنَّها فرصةٌ عظيمةٌ! والناسُ بينَ نائمٍ عنها ولاهٍ، وصنفٍ ممَّنِ عَرَفَ كيفَ يستثمرُ مثلَ هذهِ المواعظِ، فيجعلُها منهجًا في حياته، بدأ يدعو عندَ مُتَصفِ الليلِ حتَّى ولو دقائق، ثنتين أو ثلاثًا.

قال رسولُ الله ﷺ: «فَيُنَادِي مُنَادٍ: هَلْ مِنْ دَاعٍ فَيُسْتَجَابُ لَهُ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَيُعْطَى سُؤْلُهُ؟ هَلْ مِنْ مَكْرُوبٍ فَيَفْرَجَ عَنْهُ»، فليَسألِ العبدُ من خيري الدنيا والآخرة، وكَمَ لنا من الحوائجِ وأبوابِ السماءِ مَفتوحةً، والمُنَادِي يقولُ: ادْعُ يُسْتَجَبْ لَكَ؟!

الوقتُ الثالثُ: يوما الاثنين والخميسِ.

فقد جاءَ في حديثِ أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -عندَ أحمدَ في (مُسْنَدِهِ)-: قال رسولُ الله ﷺ: «تُفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءٌ، فَيَقُولُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا»^(٢)، أي: يُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا شَحِنَ قَلْبُهُ وَفَوَّادَهُ عَلَى أَخِيهِ، فَيَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «أَنْظِرُوا» أي: أُخِّرُوا «هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا».

فهذه أوقاتٌ تُفْتَحُ فيها أبوابُ السماءِ، وهناك دعواتٌ تُفْتَحُ فيها أبوابُ السماءِ، منها:

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٩/٥١ رقم ٨٣٩١)، من حديث عثمان بن أبي العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢/٤٦٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الدعوة الأولى: أحد أدعية الاستفتاح.

فَقَدْ جَاءَ فِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: صَلَّيْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ - فِي دُعَاءِ الْاسْتِفْتَاكِ - : اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا، وَسُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا. فَلَمَّا فَرَعَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ صَلَاتِهِ قَالَ: «مَنْ الْقَائِلُ كَلِمَةً كَذَا وَكَذَا؟» قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «عَجِبْتُ لَهَا، فُتِحَتْ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ»^(١). إِنَّهُ ذَكَرَ مُبَارَكٌ يَقُولُهُ الْإِنْسَانُ عِنْدَ اسْتِفْتَاكِ الصَّلَاةِ.

الدعوة الثانية التي تُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، بَلْ تُفْتَقُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ فَتَقًا:

مَا جَاءَ فِي كِتَابِ (التوحيد) لابن خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. مُخْلِصًا بِهَا رُوحَهُ وَجَهَ اللَّهِ، مُصَدِّقًا بِهَا لِسَانَهُ وَقَلْبُهُ إِلَّا فُتِقَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ فَتَقًا، حَتَّى يَنْظُرَ الرَّبُّ إِلَى قَائِلِهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَحَقَّ لِعَبْدِهِ إِذَا نَظَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يُعْطِيَهُ سُؤْلَهُ»^(٢).

الدعوة الثالثة: دعوة المظلوم.

فَقَدْ جَاءَ فِي (مُسْنَدِ أَحْمَدَ) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَصَحَّحَ هَذَا الْحَدِيثَ أَحْمَدُ شَاكِرٌ رَحِمَهُ اللَّهُ - : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللَّهُ فَوْقَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل قول الحمد لله حمدا كثيرا طيبا، رقم

(٦٠١)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه ابن خزيمة في التوحيد رقم (٦١٨)، من حديث يعقوب بن عاصم، قال: حدثني

رجلان من أصحاب النبي ﷺ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الغَمَامِ، وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ: بِعِزَّتِي لَا نُنْصِرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ»^(١).
 فدعوة المظلوم تُفتح لها أبواب السماء كما قال ﷺ لمعاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في
 (صحيح البخاري) -: «اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»^(٢).
 وكما جاء في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يقول ﷺ: «اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهَا
 تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ كَأَنَّهَا شَرَارَةٌ»^(٣).

كذلك تُفتح أبواب السماء عند عمليين عظيمين من أعمال الصلاة:
 ”حينما يُؤدَّن المؤدَّن لصلاة الظهر، فقد كان رسول الله ﷺ بعد أن يُؤدَّن
 للظهر على وجه الخصوص يقوم فيصلي أربع ركعات، فيسأل عن ذلك، فيقول:
 «إِنَّهَا سَاعَةٌ تُفْتَحُ فِيهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَأُحِبُّ أَنْ يَصْعَدَ لِي فِيهَا عَمَلٌ صَالِحٌ»^(٤).
 ” وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عند ابن ماجه - قال:
 صلينا مع النبي ﷺ صلاة المغرب، فلما انتهى من صلاته ﷺ، رجع من رجع إلى
 بيته وعقب من عقب - والمعقب هو الذي ينتظر الصلاة بعد الصلاة - فإذا برَسُولِ
 اللَّهِ ﷺ يأتي مُسرِعاً قد حفزه النفس - فإذا به يحمل لهم بشارَةً، ويحمل لمن عمل
 عملهم - قال: «أَبَشِّرُوا، هَذَا رَبُّكُمْ قَدْ فَتَحَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ السَّمَاءِ، يُبَاهِي بِكُمْ

(١) أخرجه أحمد (٤٤٥/٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب
 الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٩/١)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء في الصلاة عند الزوال، رقم (٤٧٨) من حديث
 عبد الله بن السائب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المَلَائِكَةُ، يَقُولُ: انظُرُوا إِلَى عِبَادِي قَدْ قَضَوْا فَرِيضَةً، وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ أُخْرَى»^(١).

إنَّهَا أَعْمَالٌ يَسِيرَةٌ وَهِيَ عَظِيمَةٌ عِنْدَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَالْعَاقِلُ الذَّكِيُّ الْمُسْتَمِرُّ مَنْ أَخَذَ بِهَا بِحِظٍّ وَافِرٍ.

وكذلك تُفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ فِي غَيْرِ رَمَضَانَ، وَتُفْتَحُ لِهَذِهِ الْأَعْمَالِ الْجَلِيلَةِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ، وَكَذَلِكَ تُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ فِي وَجْهِ الْبَعْضِ، وَفِي وَجْهِ بَعْضِ الدَّعَوَاتِ، وَمَسْكِينٌ مَنْ أُغْلِقَ بَابُ السَّمَاءِ فِي وَجْهِهِ، وَمَنْ تُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ فِي وَجْهِهِ:

- الْعَبْدُ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا؛ فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا صَعِدَتْ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا؛ ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا، فَتَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَسَاغًا رَجَعَتْ إِلَى الَّذِي لَعَنَ، فَإِنْ كَانَ لِذَلِكَ أَهْلًا وَإِلَّا رَجَعَتْ إِلَى قَائِلِهَا»^(٢)، فَانظُرْ إِلَى خَطْوَةِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِنَا.

- وَآخِرُ تُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهُ أَيْضًا، إِنَّهُ ذَاكَ الْمَسْئُولُ الَّذِي عُيِّنَ فِي مَنَصِبِهِ وَمَكَانِهِ لِحُدْمَةِ النَّاسِ، فَأَغْلَقَ بَابَ مَكْتَبِهِ عَنِ حَوَائِجِ النَّاسِ، فَالْجِزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، هُوَ يُغْلَقُ بِأَبِهِ هُنَا وَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ هُنَاكَ.

فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا جَاءَ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ فِي (سُنَنِهِ): «مَا مِنْ إِمَامٍ يُغْلِقُ

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب المساجد والجماعات، باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة، رقم (٨٠١) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في اللعن، رقم (٤٩٠٥)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بَابُهُ دُونَ ذَوِي الْحَاجَةِ، وَالْحَلَّةِ، وَالْمَسْكَنَةِ، إِلَّا أَغْلَقَ اللَّهُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ دُونَ خَلَّتِيهِ،
وَحَاجَّتِيهِ، وَمَسْكَنَّتِيهِ»^(١).

فَأَبْوَابُ السَّمَاءِ تُفْتَحُ فِي رَمَضَانَ، وَتُفْتَحُ فِي غَيْرِ رَمَضَانَ، وَالْعَاقِلُ مَنْ اسْتَشَمَرَ
هَذَا الْخَيْرَ الْعَظِيمَ.

هَذَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا -رَحِمَكُمُ اللَّهُ- عَلَى نَبِيِّ الْهُدَى وَالرَّحْمَةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ
اللَّهِ، كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ الْكَرِيمُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ قَائِلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى
النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

• • k • •

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الأحكام، باب ما جاء في إمام الرعية، رقم (١٣٣٢) من حديث عمرو
بن مرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

K

K

(٢٥)

وصايا في وداع رمضان

•• k ••

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ فَلَا يُغَرِّ بِطَيْبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ
 هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتَهَا دَوْلُ مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَانُ
 وَهَذِهِ الدَّارُ لَا تُبْقِي عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَدُومُ عَلَى حَالٍ لَهَا شَانٌ^(١)

اللَّهُمَّ أَعِدْ عَلَيْنَا رَمَضَانَ سِنِينَ عَدِيدَةً، وَأَزْمِنَةً مَدِيدَةً، وَنَحْنُ وَأَهْلُنَا وَبِلَادُنَا
 وَقِيَادَتُنَا فِي عِزَّةٍ وَرِفْعَةٍ، وَأَمْنٍ وَإِيمَانٍ، وَسَلَامَةٍ وَإِسْلَامٍ.

كَانَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا كَانَ آخِرُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ نَادَى بِصَوْتِهِ قَائِلًا: «يَا
 لَيْتَ شِعْرِي، مَنْ هَذَا الْمَقْبُولُ فَتُهْنِيهِ، وَمَنْ هَذَا الْمَحْرُومُ فَتُعْزِيهِ؟»^(٢).

وَكَذَلِكَ كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُرَدِّدُ: «أَيُّهَا الْمَقْبُولُ: هَنِيئًا لَكَ، وَأَيُّهَا
 الْمَرْدُودُ: جَبَرَ اللَّهُ مُصِيبَتَكَ»^(٣).

إِنَّهَا وَصَايَا ثَلَاثٍ فِي وَدَاعِ رَمَضَانَ.

الْوَصِيَّةُ الْأُولَى: عَلَيْكَ بِالرَّجَاءِ وَالْوَجَلِ، وَدَعْ عَنكَ الْغُرُورَ وَالْأَمْنَ.

قَدْ مَلَأْنَا رَمَضَانَ بِالصِّيَامِ وَالْقِيَامِ، وَمَلَأْنَاهُ بِالِدَعْوَاتِ وَالصَّدَقَاتِ،

(١) الأبيات لأبي البقاء الرندي، انظر: نفع الطيب (٤/٤٨٧).

(٢) ذكره ابن رجب في لطائف المعارف (ص ٣٧٧).

(٣) أخرجه الشجري في الأمالي الخميسية رقم (١٦١٢/ترتيبه).

وَصُنُوفٍ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْعِبَادَاتِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَعِيشُ الْمُؤْمِنُ فِي حَالٍ وَجَلٍ يَدْعُو لَيْلَ نَهَارَ بِالْقَبُولِ، وَلَا يَأْمَنُ، وَلَا يَغْتَرُّ بِمَا قَدَّمَ، كَيْفَ وَقَدْ قَالَ الْحَقُّ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾** [المؤمنون: ٦٠-٦١].

وقد جاء في (سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ) عَنْ أُمِّنا عَائِشَةَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** قَالَتْ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: **﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾** أَهْمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: «لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ **﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾**»^(١).

فهذه وصيَّتي لنفسي ولك: أَنْ تَعِيشَ فِي حَالَةٍ مِنَ الرَّجَاءِ وَالْوَجَلِ، وَتَرْجُو اللَّهَ أَنْ يَقْبَلَ مِنْكَ، وَتَخَافُ أَنْ تُرَدَّ عَلَيْكَ الطَّاعَةُ فَتَدْعُو اللَّهَ عَلَى الدَّوَامِ.

يقول الحسن **رَحِمَهُ اللَّهُ** - عَنْ هَوَّلَاءِ الَّذِينَ امْتَدَّحَهُمُ اللَّهُ - قَالَ: «عَمِلُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَاجْتَهَدُوا فِيهَا، وَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ عَلَيْهِمْ»، ثُمَّ قَالَ **رَحِمَهُ اللَّهُ**: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ جَمَعَ إِحْسَانًا وَخَشِيَّةً، وَالْمُنَافِقُ جَمَعَ إِسَاءَةً وَأَمْنًا»^(٢).

فَمِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَجْمَعَ إِحْسَانًا بِالطَّاعَاتِ وَخَشِيَّةً أَلَّا تُقْبَلَ مِنْهُ؛ لِذَا كَانَ السَّلْفُ **رَحِمَهُمُ اللَّهُ** يَدْعُونَ اللَّهَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ، يَقُولُونَ: «اللَّهُمَّ بَلِّغْنَا شَهْرَ رَمَضَانَ»، ثُمَّ يَدْعُونَهُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ: أَنْ يَتَقَبَّلَهُ مِنْهُمْ^(٣).

(١) أخرجه الترمذي كتاب: تفسير القرآن، باب ومن سورة المؤمنون، رقم (٣١٧٥).

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد رقم (٩٨٥)، وانظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/٥٠٧).

(٣) أخرجه قوام السنة في الترغيب والترهيب رقم (١٧٦١) من طريق معلى بن الفضل قال: «كانوا

يَدْعُونَهُ فِي رَمَضَانَ وَسَوَائِلِ وَذِي الْقَعْدَةِ وَذِي الْحِجَّةِ وَمُحَرَّمٍ وَصَفَرٍ، سِتَّةَ أَشْهُرٍ وَهُمْ يَقُولُونَ: «اللَّهُمَّ سَلِّمْ إِلَيْنَا رَمَضَانَ، وَسَلِّمْ لَنَا إِلَى رَمَضَانَ، وَتَسَلِّمْهُ مِنَّا مُتَقَبَّلًا»^(١).

ليسَ فِي دُعَاءِ الْقَنُوتِ فَحْسَبُ، وَلَا فِي الْوَتْرِ فَحْسَبُ، إِنَّهَا سِتَّةَ أَشْهُرٍ وَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ الْقَبُولَ.

يَقُولُ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَأَنْ أَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَقَبَّلَ مِنِّي مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]»^(٢).

وَكَمْ هُوَ عَظِيمٌ ذَلِكَ الْحَدِيثُ الَّذِي جَاءَ فِي (صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَقُولُ ﷺ: «لَنْ يُدْخَلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدَّدُوا وَقَارِبُوا»^(٣)، هَذَا وَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَعَلَامَ الْغُرُورِ وَالْأَمْنِ وَالْإِدْلَالِ بِالنِّعَمِ وَالطَّاعَاتِ؟!!

يَخْتَصِرُ لَنَا هَذِهِ الْوَصِيَّةَ الرَّجُلُ الْعَابِدُ، الْعَارِفُ، الْخَائِفُ الَّذِي عَرَفَ دُرُوبَ

يدعون الله عز وجل ستة أشهر أن يبلغهم شهر رمضان ويدعون الله ستة أشهر أن يتقبل منهم». (١) ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في شرح عمدة الفقه - كتاب الصيام (٤٠/١) عن يحيى بن أبي كثير قال: «كان من دعائهم: اللهم سلمني لرمضان، وسلم لي رمضان، وتسلمه مني متقبلاً». (٢) حلية الأولياء (١٧/٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب تمنى المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الطاعة، ومكامنِ الحسنة؛ الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فقال: «كُونُوا لِقَبُولِ الْعَمَلِ أَشَدَّ اهْتِمَامًا مِنْكُمْ بِالْعَمَلِ، أَلَمْ تَسْمَعُوا قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]»^(١).

أرأيتم هذه الأعمال التي قدّمناها في رمضان، فالمسلم العاقل الحصيف هو الذي يهتم بقبول العمل أشدَّ اهتمامًا من العمل.

الوصية الثانية: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

فالعبادة ليست في رمضان، والصلاة ليست في رمضان، والخوف والخشية والعفة ليست في رمضان فحسب، بل هي في كل العام، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أي: حتى يأتيك الموت.

يقول الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ لِعَمَلِ الْمُؤْمِنِ أَجَلًا دُونَ الْمَوْتِ»، ثم قرأ: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(٢).

فذاك الشخص الذي في نفسه الآن: خائف وطائع ومُحْسِنٌ، ثم إذا انقضى رمضان عاد إلى غيّه وتمردّه، إنه لم يسكين.

وهذا الذي ختم في رمضان عددًا من الختمات، وحضر جميع الصلوات، وهو قد صوّر في نفسه، ونوى في قلبه أنه بعد رمضان سيتركس وسيعود، هو مسكين.

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لنا: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الإخلاص والنية رقم (١٠).

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد رقم (٩٨٥)، وانظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/٥٠٧).

أَنْكَثًا ﴿ [النحل: ٩٢]، هذه امرأة خرقاء في الجعرانة في مكة، كانت تغزل من أول النهار إلى آخر النهار وأول الليل، وتجمع غزلاً، فإذا جاء الليل أفسدت ما غزلت^(١).

فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْعَامِلِ لِلطَّائِعِ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا ﴾.

ويقول لنا في سورة الحج: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾ أي: على الحافة، وعلى طرف، أي: عبادته متارحة ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الحج: ١١].

لذا قال نبينا ﷺ - كما جاء في الصحيحين - لعبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: « يَا عَبْدَ اللَّهِ، لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ، فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ »^(٢)، أي: كان معنا في المساجد في الصلوات، يُحذِّرُ مِنْ هَذَا الْإِنْتِكَاسِ.

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - كما جاء في البخاري -: سئل النبي ﷺ: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله؟ قال: « أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ »^(٣).

فالعبرة ليست في الكثرة ولا في القلة، إنما العبرة في الديمومة، أي: المداومة

(١) تفسير مقاتل بن سليمان (٢/ ٤٨٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه، رقم (١١٥٢)، ومسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقاً، رقم (١١٥٩).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب الجلوس على الحصير ونحوه، رقم (٥٨٦١)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة العمل الدائم، رقم (٧٨٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

على العملِ.

وهذه الوصية أيضًا اختصرها رجلٌ عارفٌ مُبصرٌ عابدٌ، وهو كعبُ بنُ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَهُوَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ إِذَا خَرَجَ رَمَضَانُ عَصَى رَبَّهُ فَصِيَامُهُ عَلَيْهِ مَرْدُودٌ، وَبَابُ التَّوْفِيقِ فِي وَجْهِهِ مَسْدُودٌ»^(١).

فهذا المسكينُ الَّذِي هُوَ الْآنَ صَائِمٌ وَهُوَ يُعِدُّ الْعُدَّةَ لِيَوْمِ الْعِيدِ كَيْفَ يَعْصِي اللَّهَ صِيَامُهُ عَلَيْهِ مَرْدُودٌ، وَبَابُ التَّوْفِيقِ فِي وَجْهِهِ مَسْدُودٌ.

الْوَصِيَّةُ الثَّلَاثَةُ: اخْتِمَ بِخَيْرٍ؛ فَإِنَّ الْأَعْمَالَ بِالْخَوَاتِيمِ.

وخاتمةُ الإنسانِ ليسَ نهايةَ رمضانَ، وإنما خاتمةُ العبدِ قبلَ موته، فعلى العاملِ أن يعملَ حتى يُخْتِمَ له بخيرٍ.

وفي (صحيح البخاري) من حديثِ أمِّنا عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ»^(٢).

وقال ﷺ أيضًا - كما جاء في (صحيح ابن حبان) -: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَسَلَهُ» قيل: وما عسَلَه؟ قال: «يُفْتَحُ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ بَيْنَ يَدَيْ مَوْتِهِ حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ»^(٣)، أي: تُعَسَلُ حَيَاتُهُ الْأَخِيرَةُ وَأَنْفَاسُهُ الْأَخِيرَةُ إِذَا كَانَ عَلَى خَيْرٍ وَعَلَى صَالِحٍ.

(١) انظر: لطائف المعارف لابن رجب ط. دار ابن خزيمة (ص ٤٨٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب القدر، باب العمل بالخواتيم، رقم (٦٦٠٧)، من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه ابن حبان رقم (٣٤٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه ابن حبان رقم (٣٤٢ و ٣٤٣).

فعلَى العاملِ أَنْ يَعْمَلَ إِلَى نِهَائِهِ الشَّوْطِ وَإِلَى نِهَائِهِ الْمِضْمَارِ، وَلَا يَقِفَ هُنَا عِنْدَ هَذِهِ الْمَوَاسِمِ، وَيُنْتَهِي مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ - كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ أَحْمَدَ -: «لَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تُعْجَبُوا بِأَحَدٍ، حَتَّى تَنْظُرُوا بِمَا يُحْتَمُّ لَهُ، فَإِنَّ الْعَامِلَ يَعْمَلُ زَمَانًا مِنْ عُمُرِهِ، وَبُرْهَةً مِنْ دَهْرِهِ بِعَمَلٍ صَالِحٍ لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا سَيِّئًا»^(١).

اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكُورِ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكُورِ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نُرَدَّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِيْمَانِنَا.

هَذَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا - رَحِمَكُمُ اللَّهُ - عَلَى نَبِيِّ الْهُدَى وَالرَّحْمَةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ الْكَرِيمُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ قَائِلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

• • k • •

(١) أخرجه أحمد (١٢٠/٣) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



(٢٦)

التَّقْوَى

•• k ••

التَّقْوَى هي زادُ الْمُؤْمِنِينَ، كما قَالَ الْحَقُّ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ:
﴿وَتَكَرَّوْا فِإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى وَأَتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

والتَّقْوَى لِبَاسُ الصَّالِحِينَ كما قَالَ الْحَقُّ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: **﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤْرِي سَوْءَ تِكْمٍ وَرِيشًا ۗ وَلِبَاسُ النَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾** [الأعراف: ٢٦].

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَلْبَسْ ثِيَابًا مِنَ التَّقْوَى تَقَلَّبَ غُرْبَانًا وَإِنْ كَانَ كَاسِيًا
 وَخَيْرُ خِصَالِ الْمَرْءِ طَاعَةُ رَبِّهِ وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ كَانَ اللَّهُ عَاصِيًا

والتَّقْوَى وَصِيَّةُ اللَّهِ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** لِلأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، كما قَالَ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** فِي سُورَةِ النِّسَاءِ: **﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ۗ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾** [النساء: ١٣١].

وَهِيَ وَصِيَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُتَمَثِّلَةً فِي وَصِيَّتِهِ لِأَبِي ذَرٍّ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** وَللأُمَّةِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ؛ جَاءَ فِي (سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ): أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَوْصَى أَبَا ذَرٍّ فَقَالَ: **«اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّبِيَّةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقِ حَسَنٍ»** (١).

(١) أخرجه الترمذي كتاب: البر والصلة، باب ما جاء في معاشره الناس، رقم (١٩٨٧).

وفي رواية الإمام أحمد **رَحْمَةُ اللَّهِ**: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي سِرِّ أَمْرِكَ وَعَلَانِيَتِهِ»^(١).

وَقَدْ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ - كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ فِي كِتَابِهِ (الدُّعَاءُ) - فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْصِنِي، قَالَ: «أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فَإِنَّهُ جِمَاعُ كُلِّ خَيْرٍ»^(٢).

وَالتَّقْوَى هِيَ وَصِيَّةُ الصَّالِحِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَهَا هُوَ الْفَارُوقُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُوصِي ابْنَهُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فَإِنَّهُ مِنْ اتَّقَاهُ وَقَاهُ، وَمَنْ أَقْرَضَهُ جَزَاهُ، وَمَنْ شَكَرَهُ زَادَهُ، فَاجْعَلِ التَّقْوَى نُصْبَ عَيْنِكَ وَجِلَاءَ قَلْبِكَ»^(٣).

وَالتَّقْوَى كَمَا عَرَّفَهَا ابْنُ تَيْمِيَّةَ **رَحْمَةُ اللَّهِ** فِي كِتَابِهِ (مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى) قَالَ: «وَالتَّقْوَى تَجْمَعُ فِعْلَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَتَرَكَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»^(٤)، وَهُوَ مِنْ أَجْمَعَ التَّعَارِيفِ.

وَلِلتَّقْوَى أَصْلٌ، وَأَصْلُهَا: أَنْ تَعْلَمَ مَا تَتَّقِي، ثُمَّ تَتَّقِي.

نَقَلَ مَعْرُوفُ الْكَرْخِيُّ **رَحْمَةُ اللَّهِ** عَنِ بَكْرِ بْنِ خُنَيْسٍ **رَحْمَةُ اللَّهِ** قَالَ: «كَيْفَ يَكُونُ مُتَّقِيًّا مَنْ لَا يَدْرِي مَا يَتَّقِي؟!» ثُمَّ قَالَ مَعْرُوفٌ **رَحْمَةُ اللَّهِ**: إِذَا كُنْتَ لَا تُحْسِنُ تَتَّقِي أَكَلْتَ الرَّبَا، وَإِذَا كُنْتَ لَا تُحْسِنُ تَتَّقِي لِقَيْتِكَ امْرَأَةً فَلَمْ تَغْضُ بِصَرَكَ، وَإِذَا كُنْتَ لَا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨١/٥).

(٢) أخرجه الطبراني في الدعاء رقم (١٨٥٨).

(٣) أخرجه أبو عبيد في الخطب والمواعظ رقم (١٣٧).

(٤) مجموع الفتاوى (٥٢٦/٨).

تُحَسِّنُ تَتَّقِي وَصَعْتَ سَيْفِكَ عَلَى عَاتِقِكَ»^(١).

خَلَّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى
وَاصْنَعْ كَمَا شِ فَوْقَ أَرْزِ ضِ الشُّوكِ يَحْذِرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى^(٢)

وَمِنْ أَسْبَابِ التَّقْوَى، وَسَعَى الصَّالِحِينَ لِتَحْقِيقِهَا أُمُورٌ:

أَوَّلًا: الْفَوْزُ بِمَحَبَّةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

فَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَكَفَى هَذَا الْأَمْرُ شَرَفًا، وَوَاللَّهِ، لَوْ وَقَفْنَا عِنْدَ هَذَا الْأَمْرِ وَمَا انْتَقَلْنَا إِلَى غَيْرِهِ لَكَفَانَا؛ فَإِنَّ مَنْ اتَّقَى اللَّهَ أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَعُودَ إِلَى كِتَابِ رَبِّكَ فَتَقْرَأْهُ لِتَجِدَ أَنَّ هَذَا الْأَصْلَ يَتَكَرَّرُ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ.

مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

فَإِذَا أَحَبَّكَ اللَّهُ فَلَا خَوْفَ عَلَيْكَ، فَقَدْ جَاءَ فِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ): أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيْلَ، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ. فَيَحِبُّهُ جِبْرِيْلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ. فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ» قَالَ: «ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»^(٣).

(١) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/٤٠٢).

(٢) الأبيات لابن المعتز، انظر: ديوانه (ص ٢٩).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٩)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدا حبه لعباده، رقم (٢٦٣٧)، من حديث أبي هريرة

وقَد قَالَ هَرْمٌ بِنُ حَيَّانَ رَحِمَهُ اللهُ: «مَا أَقْبَلَ عَبْدٌ بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ إِلَّا أَقْبَلَ اللهُ تَعَالَى بِقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ، حَتَّى يَرِزُقَهُ مَوَدَّتَهُمْ وَرَحْمَتَهُمْ»^(١).

فَسَعِيدٌ هَذَا الَّذِي أَحَبَّهُ اللهُ؛ لِذَا تَجَدُّهُ مَقْبُولًا، مَرْضِيًّا عَنْهُ فِي السَّمَاءِ وَفِي الْأَرْضِ.

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمَعَ مَالٍ وَلَكِنَّ التَّقِيَّ هُوَ السَّعِيدُ
وَتَقْوَى اللهِ خَيْرُ الزَّادِ ذَخْرًا وَعِنْدَ اللهِ لِلتَّقِيِّ مَزِيدٌ^(٢)

ثَانِيًا: الْفَوْزُ بِالْجَنَّةِ:

فَمَنْ أَحَبَّهُ اللهُ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ، تَجَدُّ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ كَثِيرًا: أَنْ مَنْ اتَّقَى اللهُ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَلَكِنْ حَسَبْنَا هَذِهِ الْآيَاتِ، قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَجْرِ: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَعَيْونِ ﴿٤٥﴾ أَدْخُلُوهَا يَسْلَمِ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر: ٤٥-٤٨].

كَذَلِكَ فِي سُورَةِ الدُّخَانِ تَجَدُّ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّتٍ وَعَيْونِ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الدخان: ٥١-٥٤].

كَذَلِكَ قَالَ فِي سُورَةِ الطُّورِ: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكَهَيْنَ بِمَا

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه أحمد في الزهد رقم (١٢٨٣).

(٢) البيتان للحطية. انظر: ديوانه (ص ٤٧).

ءَانَهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّهْمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾
مُتَكِبِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ [الطور: ١٧-٢٠].

فإذا قرأت في سورة القمر قرأت قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

ثالثاً: تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب والخطايا:

وهذا أيضاً نقرأه في كتاب ربنا تبارك وتعالى؛ فالحق سبحانه وتعالى يقول في سورة الحديد: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفَايَيْنَ مِن رَّحْمَتِهِ وِيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِر لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد: ٢٨].

وفي سورة المائدة يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾ [المائدة: ٦٥].

والآيات في هذا الباب كثيرة جداً لكنها تحتاج من يتأمل فيها.

رابعاً: إن في التقوى تيسيراً للأمر وتفريحاً للهموم:

وقد نص الله تبارك وتعالى على هذا الأصل العظيم فقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِن أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ [الطلاق: ٤].

وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ ءَاعْطَىٰ وَءَاتَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ ٱلَّذِينَ يُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الليل: ٥-٧].

إنها أدلة واضحة في كتاب الله تبارك وتعالى تدعونا إلى تطلّب هذه الخلة العظيمة

والحِصْلَةُ الرَّائِعَةُ، وَالْمَطْلَبُ الْمُهِمُّ فِي حَيَاةِ الْمُؤْمِنِ وَهِيَ تَحْقِيقُ التَّقْوَى، كَيْفَ لَا! وَرَسُولُنَا ﷺ كَانَ يَدْعُو رَبَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ هَذَا الْأَمْرَ وَهُوَ سَيِّدُ الْأَتْقِيَاءِ صَلَوَاتِ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، يَتَكَرَّرُ دُعَاؤُهُ كَمَا جَاءَ فِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ) فِيَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتَّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى»^(١).

ويقول: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكَّهَا أَنْتَ خَيْرٌ مِنْ زَكَّاهَا»^(٢).

ويقول في حالِ سَفَرِهِ: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى»^(٣).
 إِنَّهَا مَطْلَبُ كُلِّ مُؤْمِنٍ حَرِيصٍ مُبْتَغٍ هَذِهِ الْأَجُورَ الْمُتَابِعَةَ.
 اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكَّهَا أَنْتَ خَيْرٌ مِنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيِّهَا وَمَوْلَاهَا.

خَامِسًا: لِنَحْظِي بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

فَالْمُتَّقُونَ مَرْحُومُونَ، فَإِذَا رَحِمَكَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَلَا خَوْفٌ عَلَيْكَ، وَلَا يَعْتَرِيكَ حُزْنٌ أَبَدًا.

قَالَ الْحَقُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۗ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾
 [الأعراف: ١٥٦].

-
- (١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، رقم (٢٧٢١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
- (٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، رقم (٢٧٢٢)، من حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
- (٣) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره، رقم (١٣٤٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقد جاء في (مُستدرِك الحَاكِم) مِن حَدِيثِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ -يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ- مِئَةَ رَحْمَةٍ، كُلُّ رَحْمَةٍ مِلْءُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَقَسَمَ مِنْهَا رَحْمَةً بَيْنَ الْخَلَائِقِ؛ بِهَا تَعْطِفُ الْوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا، وَبِهَا يَشْرَبُ الْوَحْشُ وَالطَّيْرُ الْمَاءَ، وَبِهَا يَتْرَاحِمُ الْخَلَائِقُ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ قَصَرَهَا عَلَى الْمُتَّقِينَ وَزَادَهَا تِسْعًا وَتِسْعِينَ»^(١).

إِنَّهُمْ الْمُتَّقُونَ الَّذِينَ فَازُوا بِهَذِهِ الْأُجُورِ.

هَذَا وَصَلُّوا وَسَلَّمُوا -رَحِمَكُمُ اللَّهُ- عَلَى نَبِيِّ الْهُدَى وَالرَّحْمَةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ الْكَرِيمُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

• • k • •

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤/٢٤٧)، من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه.

K

K

(٢٧)

الطريق إلى التقوى

•• k ••

الطريقُ إلى التَّقْوَى لا بُدَّ له من مَحَطَّاتٍ، ولا بُدَّ له من أسبابٍ يأخذُ بها أولُو الألبابِ إذا أرادوا النِّجاةَ.

تَحَدَّثَ عن التَّقْوَى في درسيْن؛ لأهمِّيَّةِ هذا الموضوعِ؛ حيثُ إنَّنا نعيشُ في زمنٍ فِتْنَةٍ يركبُ بعضها على بعضٍ؛ لذا قالَ طلقُ بنُ حبيبٍ رَحِمَهُ اللهُ: «إذا وَقَعَتِ الفِتْنَةُ فأطْفِئُوها بالتَّقْوَى» أي: من أعظمِ أسبابِ إطفاءِ الفِتْنِ إحياءُ هذه الشَّعيرةِ العظيمةِ. قالوا: وما التَّقْوَى؟ قالَ: «أنَّ تعملَ بطاعةِ اللهِ، على نورٍ من اللهِ، تَرجو ثوابَ اللهِ، وأنَّ تتركَ معصيةَ اللهِ، على نورٍ من اللهِ، تخافُ عِقَابَ اللهِ»^(١).

قالَ أبو حامدٍ الغزاليُّ رَحِمَهُ اللهُ - وهو يُبيِّنُ أنَّه لا بُدَّ من الأخذِ بالأسبابِ وطَرِقِ الأبوابِ التي تُوصِلُ إلى التَّقْوَى وطريقِ التَّقْوَى -: «من أرادَ أن يَتَّقِيَ اللهُ فليُراعِ الأعضاءَ الخمسةَ فإِنَّهنَّ الأصولُ: العينُ، والأُذنُ، واللسانُ، والقلبُ، والبطنُ»^(٢).

وهذا ما قاله نبيُّنا ﷺ كما جاء في (سُنن التِّرْمِذِيِّ) من حديثِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقد قالَ ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ» قالَ: قُلْنَا: يا رسولَ اللهِ، إنَّا

(١) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير رقم (٩٦٥).

(٢) روضة الطالبين وعمدة السالكين للغزالي طبع ضمن مجموعة رسائل الغزالي (ص: ١٤٣).

نَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ. قَالَ: «لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الْإِسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ: أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَتَتَذَكَّرَ الْمَوْتَ وَالْبَلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ»^(١).

والطريق إلى التقوى يمرُّ عبرَ هذه المحطَّات الأربعة:

الأولى: محبةُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

أي: أن يكونَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في قلبك له الحبُّ الأوَّل، وكلُّ حبٍّ يأتي بعدَ محبةِ الله، ويكونُ في الله، فلا تتقدَّم محبةً على محبةِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهذا الَّذي قاله المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يقولُ أبو سليمانَ الدارانيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «لَمَّا ادَّعَتْ قُلُوبُ مَحَبَّةِ اللَّهِ أَنْزَلَ اللَّهُ لَهَا مِحْنَةً: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢]»^(٢).

فالجميعُ يقولونَ الآنَ: نحنُ نُحِبُّ اللَّهَ، ليسَ عندنا شكُّ في هذا، المتكلمُ والسامعُ، لكنَّ هذه دعاوى، والدعاوى ما لم يقمَ عليها بيناتٌ فأصحابُها أديعَاء.

فالدليلُ الساطعُ والبرهانُ على هذه الدَّعوى أن يَرى في سلوكنا وتصرفاتنا برهاناً على محبةِ الله باتِّباعِ رسولِ الله ﷺ الَّذي بلغَ رسالةَ الله، وإلا كما قيلَ:

تَعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تَزْعُمُ حُبَّهُ هَذَا مُحَالٌ فِي الْقِيَاسِ بَدِيعٌ

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب ٢٤، رقم (٢٤٥٨)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٢٢).

لو كان حُبُّكَ صادقًا لأطعته **إِنَّ الْمَحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعٌ^(١)**

واللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَوَعَّدَ الَّذِينَ يَتَخَلَّوْنَ عَنِ هَذِهِ الشَّعِيرَةِ -مَحَبَّةِ اللَّهِ- أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَسْتَبْدِلُ الْجَلِيلَ كُلَّهُ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ وَلَا يُعْجِزُهُ، قَالَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وهناك محبوباتٌ ثمانية هي أكثرُ المحبوباتِ لِنُفُوسِنَا وَأَلْصَقُهَا بِقُلُوبِنَا، لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ بَعْدَ مَحَبَّةِ اللَّهِ، وَذَكَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ هَذِهِ الْمَحْبُوبَاتِ الثَّمَانِيَةَ، فَقَالَ سَبْحَانَهُ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

فمحبَّةُ اللَّهِ لَهَا طَعْمٌ يَجِدُهُ الْعَبْدُ فِي قَلْبِهِ، فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ مِقْدَارَ مَحَبَّةِ اللَّهِ فِي قَلْبِكَ سَتَجِدُ لَذَلِكَ طَعْمًا فِي قَلْبِكَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا جَاءَ فِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ): «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ طَعْمَ الْإِيمَانِ؛ مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْتَدَفَ فِي النَّارِ»^(٢).

(١) البيتان لابن المبارك. انظر: ديوانه (ص: ١٤٦-١٤٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم (١٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، رقم (٤٣)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد جمعت امرأة من السلف أبناءها وأوصتهم بهذه الوصية البليغة - ذكرها ابن رجب الحنبلي **رَحْمَةُ اللَّهِ** في كتابه (جامع العلوم والحكم) - فقالت لهم: «تعودوا حبَّ الله وطاعته»، أي: أنَّ الإنسانَ يحتاجُ أن يتعودَ ذلك «فإنَّ المتقينَ ألفوا الطاعة، فاستوحشت جوارحهم من غيرها، فإن عرَّض لهم الملعونُ بمعصية» أي: الشيطانُ «مرَّت المعصيةُ بهم مُحْتَشِمَةً، فهُمْ لها مُنْكَرُونَ»^(١).

فقالت لهم: «تعودوا حبَّ الله» وذلك لأنَّ هذا ممَّا يقودُ إلى تقوى الله.

المحطة الثانية: استشعارُ رقابةِ الله:

أي: أن يستشعرَ العبدُ أن الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** يعلمُ بالخطرة التي تردُّ عليه قبل أن ترد.

يقول الحارثُ المحاسبيُّ **رَحْمَةُ اللَّهِ** وهو يعرفُ لنا المراقبةَ، قال: «المراقبةُ: علمُ القلبِ بقربِ الرَّبِّ»^(٢).

أي: أن يعلمَ الإنسانُ أن الله مُطَّلِعٌ عليه في سرِّه وجهره، فقد قال النبي **ﷺ** لأبي ذرٍّ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «أوصيكُ بتقوى الله في سرِّ أمرِك وعلانيته» كما جاء عند أحمد في (مسنده) ^(٣).

والحديثُ المشهورُ عند البخاري: قال: وما الإحسانُ؟ قال: «أنَّ تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٤)، ولا يمكنُ أن يقولَ الإنسانُ: سأعملُ

(١) جامع العلوم والحكم (٢/٣٤٧).

(٢) الوصايا للمحاسبي (ص: ٣١٣).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١٨١).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي **ﷺ** عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم:

أشياء في الخفاء لا يعلم بها الناس، فإن العبد إذا عمل عملاً في الخفاء أظهره الله للناس في يوم من الأيام، ولا بُدَّ.

لذا قال بعض السلف: «ما أسرَّ عبدٌ سريرةً إلا ألبسه الله رداءها، إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر»^(١)، أي: لا بُدَّ أن تظهر ويراه الناس، فهذا الذي يُقارع المعاصي والذنوب في الخلوات وهو يظن أن الله لا يطلع عليه، فقد وقع في منكرٍ أعظم من الخطيئة.

قال ابن الجوزي **رَحِمَهُ اللهُ** في كتابه (صيد الخاطر): «رأيت أقواماً من المنتسبين إلى العلم أهتموا بنظر الحق **عَزَّجَلَّ** إليهم في الخلوات» أي: أهتم إذا كانوا أمام الناس خرجوا بلباس التقوى والصالح والزهد والتدين والفضائل، لكنهم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها. قال: «فمحا محاسن ذكرهم في الخلوات، فكانوا موجودين كالمعدومين»^(٢).

فمن الخطر أن يعامل الإنسان ربه أقل مما يعامل الرجل الصالح من قومه، يستحي أن يظهر أمام فلان وفلان، ويستحي أن يقول الخطأ أمام فلان وفلان، لكنه إذا خلا بمحارم الله انتهكها، ولم يراعِ نظر الحق **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب

كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٩)، من حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**.

(١) وقد روي مرفوعاً إلى النبي **ﷺ**؛ أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢/ ١٧١ رقم ١٧٠٢) من حديث جندب بن عبد الله **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**. ولكنه ضعيف جداً. انظر: السلسلة الضعيفة للألباني (٢٣٧).

(٢) صيد الخاطر (ص: ١٤٨).

ولا تحسبن الله يغفل ساعةً ولا أن ما يخفى عليه يغيب^(١)

المحطة الثالثة: من أراد أن يصل إلى مقام التقوى وأن يشارك المتقين في منازلهم فليحاسب نفسه، ويقودها قودًا حتى تنقاد وتخضع، فنفسنا متمرّدة، تتوق إلى المعصية؛ لذا قال الحق سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

فالإنسان يحتاج أن يعيش في حالة صراع مع هذه النفس، وفي حالة كبح. يقول مصطفى السباعي **رَحِمَهُ اللهُ** في كتابه (هكذا علمتني الحياة): «إذا همت نفسك بالمعصية فذكرها بالله» أي: خوفها بالله وقل لها: يا نفس هناك قبر، ووقوف بين يدي الله، وهناك نار تُلظّي «فإذا لم ترجع فذكرها بأخلاق الرجال» أي: قل لها: عيب، أنا أربأ بك أن تفعلي هذا الفعل. قال: «فإذا لم ترجع فذكرها بالفضيحة إذا علم بها الناس»^(٢).

هكذا يتابع نفسه من مرحلة إلى مرحلة حتى يكفها عن فعل المعاصي، هذا إذا أراد أحدنا أن يصل إلى مقام التقوى.

وَاتَّقِ اللَّهَ فَتَقْوَى اللَّهُ مَا جَاوَرَتْ قَلْبَ امْرِئٍ إِلَّا وَصَلْ
لَيْسَ مَنْ يَقْطَعُ طَرِقًا بَطَلًا وَإِنَّمَا مَنْ يَتَّقِي هُوَ الْبَطْلُ^(٣)

(١) البيتان لأبي العتاهية، انظر: ديوانه (ص ٣٤).

(٢) هكذا علمتني الحياة (ص: ٣٩).

(٣) البيتان لابن الوردی، انظر: جواهر الأدب للهاشمي (٢/٤٣٧).

المحطة الرابعة: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَصَلَ إِلَى مَقَامِ الْمُتَّقِينَ فَلْيَحْذَرْ حَبَائِلَ الشَّيْطَانِ
اللَّعِينِ:

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَنَا عَنِ الشَّيْطَانِ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾
[فاطر: ٢٥]، فَقَدْ قَالَ الشَّيْطَانُ لِلْمَوْلَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَمَا أَخْبَرَنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ
الْأَعْرَافِ: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَيَسَّرُ لَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ
أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ فَلَا بُدَّ أَنْ يَعْمَلَ جَاهِدًا فِي وَجْهِ هَذِهِ الْمَكَائِدِ وَالْحَبَائِلِ،
وَقَدْ جَاءَ رَجُلٌ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فَقَالَ: هَلْ يَنَامُ إِبْلِيسُ؟ قَالَ: «لَوْ نَامَ
إِبْلِيسُ لَوَجَدْنَا الرَّاحَةَ»^(١).

وَكُونُهُ لَا يَنَامُ يَحْتَاجُ مِنَ الْعَبْدِ أَنْ يُغَالِبَهُ وَيُصَارِعَهُ، وَيَتَّخِذُهُ عَدُوًّا مُبِينًا، كَمَا
أَمَرَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِذَلِكَ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ.

هَذَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا - رَحِمَكُمُ اللَّهُ - عَلَى نَبِيِّ الْهُدَى وَالرَّحْمَةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ
اللَّهِ، كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ الْكَرِيمُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ قَائِلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى
النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

• • k • •

(١) أخرجه أحمد في الزهد رقم (١٥٠٦).



(٢٨)

الحذر من جبال الشيطان

•• k ••

كَانَتْ الْبِدَايَةُ حِينَمَا خَلَقَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حِينَمَا غَضِبَ الشَّيْطَانُ
وَامْتَنَعَ عَنِ السُّجُودِ، وَحَصَلَتِ الْعِدَاوَةُ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ
صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ
﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۗ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُمْ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾
قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ
يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ [الأعراف: ١١-١٥].

فبدأ الشيطان يهدد ويتوعد: سأفعل بهم وسأفعل، كما قال سبحانه في سورة
الأعراف: ﴿قَالَ فِيمَا آغَايَيْتِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُنَّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ
وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ۗ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرَجْنَا مِنْهَا مَذْمُومًا
مَذْحُورًا ۗ لَمَّا تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ [الأعراف: ١٦-١٨].

وفي سورة الإسراء جاء في تهديده ووعيده: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ
عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٣﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ
تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفْزِرُّ مِنْ أَسْطَعَتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ
وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكِهِمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتِهِمْ ۗ وَمَا يَعِدُهُمُ
الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ
وَكَيْلًا ﴿٦٥﴾ [الإسراء: ٦٢-٦٥].

وبدأ الشيطان اللعين يُنفذ تهديده ووعيده، وأول ما بدأ بدأ بأينا آدم عليه السلام كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَتَادَمُ أَسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجَكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩) فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ۗ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ [الأعراف: ١٩-٢٣].

فأمر الرب تبارك وتعالى أن يهبط الجميع إلى الأرض، وأهبطت العداوة معها إلى يوم الدين، قال سبحانه: ﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤].

ولا يمكن أن نسلم من تهديده ووعيده وفخاخه إلا بالاعتصام بهدي الله عز وجل، هكذا قال لنا ربنا تبارك وتعالى: ﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ [البقرة: ٣٨-٣٩]، فهما فريقان: فريق استمسك بالهدى فنجا، وفريق كفر وكذب فمأله النار.

فعداوة الشيطان للإنسان لا تتوقف، وتبدأ من أول خروجه إلى الدنيا واستنشاقه لهوائها، فقد جاء في (صحيح ابن حبان): أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ إِلَّا يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ فَيَسْتَهْلُ صَارِحًا» أي: هذا الصراخ الذي نسمعه من الصبي حين ولادته هي غمزة من الشيطان تقول له: أنا عدوك من الآن **إِلَّا**

مَرِيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ وَابْنَهَا، إِنَّ شَيْئَكُمْ أَفْرُؤُوا: ﴿وَإِنِّي أَعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]»^(١).

وتستمر هذه العداوة إلى أن يموت الإنسان ويتوقف عنه آخر نفس في هذه الدنيا، ففي (سنن أبي داود) أن النبي ﷺ كان يدعو فيقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَدْمِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ التَّرَدِّي، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْغَرَقِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْحَرْقِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَرَمِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَمُوتَ فِي سَبِيلِكَ مُدْبِرًا، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَمُوتَ لَدِيغًا»^(٢).

والشاهد من هذا الحديث: «وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ»، أي: لا فكاك حتى عند الموت، ففي آخر لحظة عند الإنسان يأتيه الشيطان ليتخبَّطه ويصرفه عن صراط الله المستقيم.

إن الشيطان يُحْضِرُ جُنُودَهُ فِي كُلِّ صَبَاحٍ، فَلَدَيْهِ طَابُورُ صَبَاحٍ، وَلَدَيْهِ حَوَافِزُ وَجَوَائِزُ لِمَنْ أَضَلَّ أَكْثَرَ مِنْ بَنِي آدَمَ، فَقَدْ جَاءَ فِي (صحيح ابن حبان) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَصْبَحَ إِبْلِيسُ بِثَّ جُنُودَهُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَضَلَّ الْيَوْمَ مُسْلِمًا أَلْبَسْتُهُ التَّاجَ، قَالَ: فَيَخْرُجُ هَذَا فَيَقُولُ: لَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى طَلَّقَ أَمْرَاتَهُ. فَيَقُولُ الشَّيْطَانُ: أَوْشَكَ أَنْ يَتَزَوَّجَ. فَيَجِيءُ هَذَا فَيَقُولُ: لَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى عَقَّ وَالِدِيهِ. قَالَ: فَيَقُولُ: أَوْشَكَ أَنْ يَبْرَّ. وَيَجِيءُ هَذَا فَيَقُولُ: لَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى أَشْرَكَ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿وَإِنِّي أَعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، رقم (٤٥٤٨)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام، رقم (٢٣٦٦)، وابن حبان رقم (٦٢٣٥) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب في الاستعاذة، رقم (١٥٥٢)، والنسائي: كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من الترددي والهدم، رقم (٥٥٣١)، من حديث أبي اليسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَيَقُولُ: أَنْتَ أَنْتَ. وَيَجِيءُ هَذَا فَيَقُولُ: لَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى زَنَيْ، فَيَقُولُ: أَنْتَ أَنْتَ. وَيَجِيءُ هَذَا فَيَقُولُ: لَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى قَتَلَ. فَيَقُولُ: أَنْتَ أَنْتَ. وَيُلبِسه التَّاجُ»^(١).

إنَّها العداوةُ المُستمرَّةُ إلى يومِ القيامةِ، والإعدادُ لهذه العداوةِ، وهناك أهدافٌ رئيسةٌ عندَ الشيطانِ، وهناك أهدافٌ مرحليَّةٌ عنده.

والهدفُ الرئيسُ عندَ الشيطانِ أَنْ يَسْحَبَ البعيدَ إلى جَهَنَّمَ، فقد قال اللهُ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾** [فاطر: ٢٥]، هذا هو الهدفُ الرئيسُ عندَ إبليسَ، لكنَّه إلى أن يصلَ إلى هذا الهدفِ لديه أهدافٌ مرحليَّةٌ، وأهدافٌ ضمنيَّةٌ تُوصِلُ إلى هذا الهدفِ الرئيسِ، منها:

أولاً: الدعوةُ إلى الكُفْرِ:

فهو يدعو صراحةً إلى الكُفْرِ والإلحادِ، وهو لا يدعو الكافرَ، إنَّما يدعو المسلمَ المُستمسكَ بدينه الحيِّ بِذِكْرِ اللهِ؛ كما قال **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾** [الحشر: ١٦].

أرأيتَ هذه الوقائعَ والأحداثَ والصوَرَ والممارساتِ مِنْ بعضِ أبناءِ المسلمين التي تنقلهم من النورِ إلى الظلماتِ، ومن الإيمانِ إلى الكُفْرِ، كهؤلاء الذين وقَّعوا في عبادةِ البقرِ والشجرِ والحجرِ، وهؤلاء الذين وقَّعوا في عبادةِ الإنسانِ، وعبادةِ النُّظامِ، وعبادةِ غيرهم من دونِ اللهِ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**، هؤلاء إنَّما أضلَّهُمُ الشيطانُ

(١) أخرجه ابن حبان رقم (٦١٨٩) من حديث أبي موسى **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**.

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦].

ثانياً: الصدُّ عن الطاعة.

فإنه إذا لم يستطع أن يجعل الإنسان كافراً صدّه عن الطاعة، وقد جاء في (مسند أحمد): أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرَفِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ: أَتُسَلِّمُ وَتَذُرُ دِينَكَ، وَدِينَ آبَائِكَ، وَأَبَاءَ أَبِيكَ؟!» قَالَ: «فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهَجْرَةِ فَقَالَ: أَتَهَاجِرُ وَتَذُرُ أَرْضَكَ، وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطَّوْلِ؟! فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ: هُوَ جَهْدُ النَّفْسِ، وَالْمَالِ، فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ، فَتُنْكِحُ الْمَرْأَةَ، وَيُقَسِّمُ الْمَالَ؟! فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ» فقال رسول الله ﷺ: «فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ»^(١).

فلن يدع الشيطان طريقاً يوصلنا إلى الجنة إلا وسيقعدُ عليه، ويصدنا عن سبيل الله، فمن عصاه نجا، ومن أطاعه هلك.

ثالثاً: يُفسدُ على الإنسان طاعته.

فإنه إن لم يستطع أن يُحوّل العبد للكفر، أو يُحوّل بينه وبين الطاعة أفسد عليه طاعته، كما قال عثمان بن أبي العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها عليّ. -أي: يُحاول أن يُفسد عليه الطاعة- قال ﷺ: «ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ: خَنْزَبٌ. فَإِذَا

(١) أخرجه أحمد (٤٨٣/٣) من حديث سبرة بن أبي فاكه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَحْسَسْتُهُ فَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنْهُ، وَاتَّقِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا»، قَالَ عَثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَهُ اللَّهُ عَنِّي^(١).

إِذْ مِنَ الْعَدَاوَةِ مِنَ الشَّيْطَانِ تَسْتَلْزِمُ مِنَ الْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ يَقْظَانَ عَلَى الدَّوَامِ.

وَالشَّيْطَانُ فِي تَنْفِيذِ تَهْدِيدَاتِهِ وَمَا تَوَعَّدَ بِهِ يَسْتَعِدُّ بِسَائِلٍ وَأَدْوَاتٍ لِإِضْلالِ بَنِي آدَمَ، وَهَذِهِ الْوَسَائِلُ مُتَعَدِّدَةٌ وَكَثِيرَةٌ، أَذْكَرُ مِنْهَا: وَسِيلةُ التَّرْيِينِ؛ فَهُوَ يُزَيِّنُ الْقَبِيحَ، وَيُحَسِّنُ الْبَاطِلَ، أَوْ يُقَبِّحُ الْحَقَّ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حِينَما ذَكَرْنَا ما شَاهَدَهُ هُدْهُدُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَجَدْتُهَا﴾ أَي: مَلِكَةً سَبَأَ بَلْقَيْسَ ﴿وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤]، فَهُمْ قَدْ تَرَكَوا اللَّهَ وَسَجَدُوا لِلشَّمْسِ.

وَمَا نَرَاهُ الْآنَ مِنْ انْتِكَاسٍ لِلْفِطْرَةِ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ هُوَ تَرْيِينٌ لِلْبَاطِلِ؛ أَرَأَيْتَ هَذَا الْمُدْخِنَ وَقَدْ زَيَّنَ لَهُ الشَّيْطَانُ هَذِهِ السَّيْجَارَةَ، وَهُوَ يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ قُبْحَهَا وَخَطَرَهَا وَعَظِيمَ إِثْمِهَا؛ إِذْ ذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: أَنَّ فِي السَّيْجَارَةِ الْوَاحِدَةِ أَكْثَرَ مِنْ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ كَبِيرَةً، وَمَعَ ذَلِكَ تَجِدُ الْإِنْسَانَ يَأْتِي هَذِهِ الْكَبِيرَةَ أَمَامَ النَّاسِ وَلَا يَشْعُرُ بِحَرَجٍ أَوْ ضَيْقٍ، وَالْجَمِيعُ يُدْخِنُ أَمَامَ الْجَمِيعِ، وَهَذَا مِنْ تَرْيِينِ الشَّيْطَانِ لِهَذَا الْبَاطِلِ.

كَذَلِكَ هَذِهِ السَّمُومُ الَّتِي فِي أَيْدِي أبنائنا الْيَوْمَ هِيَ قَبِيحَةٌ عِنْدَ كُلِّ عَاقِلٍ، وَمَعَ ذَلِكَ نَرَى شَبَابَنَا زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ هَذِهِ السَّمُومَ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب السلام، باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة، رقم (٢٢٠٣)، من حديث عثمان بن أبي العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كذلك بعض الشباب قد انهار من المرض بسبب ما زين له الشيطان من شم الغراء بما فيه من مواد مُميتة، زين لهم الشيطان يشمون غراء.

كذلك انتشر عند الشباب اليوم ما يُسمى (سويكة) أو غيرها، يدفعون لها أموالاً، فيحرق ماله ويحرق صحته، وهي سبب لأمراض السرطان، كسرطان اللثة، فقد زين لهم الشيطان هذا الفعل.

كذلك الذي يشرب الخمر، ولا يوجد مسلم عنده شك في حرمة الخمر ويعلم ضرر الخمر، ومع ذلك يجلس فيدع العصير ويشرب الخمر، فقد زين له الشيطان هذا الفعل.

أيضاً من يترك زوجته بالحلل ويأتي إلى الحرام فيزني، وهو يعلم قبح ما يفعل، ويخشى أن يعلم الناس به فيتوارى عن الناس، فهذا قد زين له الشيطان عمله، علماً بأن الله تبارك وتعالى قال في سورة الكهف: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

وكل هذا من أداة واحدة من أدوات الشيطان لإضلال بني الإنسان، نسأل الله السلامة من شرور الشيطان وشركه.

هذا وصلوا وسلموا -رحمكم الله- على نبي الهدى والرحمة محمد بن عبد الله، كما أمر الرب الكريم في كتابه الكريم قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].



(٢٩)

صاحبُ السُّوءِ

•• k ••

تَعَلَّمُونَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَتَأَثَّرُ بِطَبْعِهِ بَمَنْ يُجَالِسُ، وَبِمَنْ يُصَادِقُ، وَبِمَنْ يُجَالِلُ، يَتَأَثَّرُ بِذَلِكَ سَلْبًا وَإِجَابًا، كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السُّوءِ كَمَثَلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكَبِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِذَا جَاءَ فِيهِ رِيحٌ طَيِّبَةٌ، وَنَافِخُ الْكَبِيرِ إِذَا جَاءَ فِيهِ رِيحٌ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكَبِيرِ إِذَا جَاءَ فِيهِ رِيحٌ رِيحًا حَبِيثَةً»^(١).

وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَسْأَلَ عَن خُلُقِ رَجُلٍ فَاسْأَلْ عَن قَرِينِهِ، وَعَن جُلُوسَاتِهِ وَأَصْحَابِهِ، سَتَتَعَرَّفُ تَلَقُّائِيًّا عَلَى خُلُقِهِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ - كَمَا جَاءَ فِي (سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ) -: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنِ يُجَالِلُ»^(٢).

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلُ وَسَلَّ عَن قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَفْتَسِدِي

(١) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم (٥٥٣٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين، رقم (٢٦٢٨)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، رقم (٤٨٣٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَصَاحِبُ خِيَارِهِمْ وَلَا تَصْحَبِ الْأَرْدَىٰ فَتَرْدَىٰ مَعَ الرَّدِيِّ (١)

إذا هبَّيْكَ لَكَ مَنَاحٌ جَدِيدٌ؛ مَجْلِسٌ أَوْ عَمَلٌ أَوْ سَفَرٌ أَوْ دِرَاسَةٌ فَاخْتَرِ مِنَ الْبِدَايَةِ أَصْحَابَ الصَّلَاحِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَتَأَثَّرُ بِجَلِيسِهِ جَزْمًا، فَإِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَالْخِيَارُ بِيَدِكَ.

إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَصَاحِبُ خِيَارِهِمْ وَلَا تَصْحَبِ الْأَرْدَىٰ فَتَرْدَىٰ مَعَ الرَّدِيِّ

والموفقُ مَنْ قَرَأَ هَذَا التَّوْجِيهَ الَّذِي يَتَكَرَّرُ عَلَيْنَا فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ، إِذْ نَقْرُؤُهُ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ، فَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُوجِّهُ هَذِهِ النُّفُوسَ وَيَقُولُ: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۗ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

فَهَذَا مُوسَىٰ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نَبِيٌّ كَرِيمٌ مِنَ أَوْلِي الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، وَمَعَ ذَلِكَ يُطَلَّبُ وَيَسْأَلُ رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ؛ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي شَأْنِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۗ فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥]؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَتَأَثَّرُ بِطَبَعِهِ بِمَنْ يُجَالِسُ.

وَهَذَا إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَذَلِكَ يَفْعَلُ كِفَعْلِ مُوسَىٰ، يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي شَأْنِهِ: ﴿وَأَعَزَّلْنَاهُمْ وَمَا نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيحًا﴾ (٤٨) فَلَمَّا أَعَزَّلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۗ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿

(١) البيتان لعدي بن زيد. انظر: أدب الدنيا والدين للماوردي (ص: ١٦٥).

[مریم: ٤٨-٥٠].

فإذا لم تجد صديقاً في الدنيا بهذه المواصفات الصالحة فدعه ودع الدنيا وقل
كما قال الأول:

سلام على الدنيا إذا لم يكن بها صديق صدوق صادق الوعد مُصنفا

والمُتأمل في كتاب الله تعالى وفي هدي رسوله ﷺ: يجد هذه التوجيهات التي
تحذّر من رفيق السوء، وأنا أخاطب نفسي وأخاطب الشباب على وجه
الخصوص، وأخاطب كبار السن أيضاً؛ فإن قرين السوء يؤثر وإن كنت كبيراً.

وكم يعرض علينا من المشاكل أسبوعياً من رجال تجاوزوا الستين سنة
وقعوا في مُستنقع المنكرات والفواحش، والسبب أنه تعرّف على مجموعة جديدة.

إن قرين السوء يؤثر والإنسان يتطبع بمن معه، كما سيأتي؛ لذا تكررت هذه
التوجيهات، قال الله تبارك وتعالى في سورة النساء: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكُتُبِ أَنْ
إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ
غَيْرِهِ ۗ إِذْ أَنْتُمْ إِذَا مَثَلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ۖ﴾
[النساء: ١٤٠].

فلا تقل: أنا لم أقل المنكر، ولم أتعاط المنكر. فأنت تجلس مع أهل المنكر،
وتشاهد المنكر، ولا تغيره، إذن: فعلك هذا منكر.

والذي نزل علينا في الكتاب آية في سورة الأنعام، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا
رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ۗ﴾ فلا تقل: أنا عندي ثقة في نفسي، لا تخف
علي، كما يرددّه البعض؛ فالله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا

فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ حَتَّى يَخْوُضُوا فِي حَدِيثِ عَيْرِهِ^٤ وَإِنَّمَا يُسَيِّئُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى
مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿ [الأنعام: ٦٨].

والنبي ﷺ يقول كما جاء عند أحمد في (مُسْنِدِهِ) مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدِ
الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا تَصْحَبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيًّا»^(١) هذا هو
المعيارُ.

وكان النبي ﷺ يخاف على نفسه من صاحبِ السوءِ، هذا وهو النبيُّ
الرسولُ المؤيَّدُ، فكان كثيرًا ما يتعوذُ ويقولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ يَوْمِ السُّوءِ،
وَمِنْ لَيْلَةِ السُّوءِ، وَمِنْ سَاعَةِ السُّوءِ، وَمِنْ صَاحِبِ السُّوءِ، وَمِنْ جَارِ السُّوءِ فِي دَارِ
المُقَامَةِ» رواه الطبرانيُّ في (مُعْجَمِهِ الكَبِيرِ) مِنْ حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢).

لأنَّ العذابَ والسخطَ إذا نَزَلَ نَزَلَ عَلَى مَنْ يَتَعَاطَى المُنْكَرَ وَعَلَى مَنْ جَلَسَ
مَعَ أَهْلِ المُنْكَرِ، فَقَدْ جَاءَ فِي (صَحِيحِ البُخَارِيِّ) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ
النبيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَنْزَلَ اللهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا أَصَابَ العَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ، ثُمَّ بُعِثُوا
عَلَى أَعْمَالِهِمْ»^(٣).

فَلَا يَجْلِسُ الإِنْسَانُ مَعَ رُفَقَاءِ يَتْرُكُونَ الصَّلَاةَ، فَلَا يَتَشَرَّفُ الإِنْسَانُ بِجُلُوسِهِ

(١) أخرجه أحمد (٣٨/٣)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، رقم (٤٨٣٢)،
والترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في صحبة المؤمن، رقم (٢٣٩٥)، من حديث أبي سعيد
الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٧/٢٤٩ رقم ٨١٠)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب إذا أنزل الله بقوم عذابا، رقم (٧١٠٨)، ومسلم: كتاب
صفة الجنة ونعيمها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، رقم (٢٨٧٩)، من حديث
ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

مَعَ هَوْلَاءِ، أَوْ يَجْلِسُ مَعَ أَنَاسٍ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَهُوَ يَشْرَبُ الْمَاءَ أَوْ الْعَصِيرَ، فَإِذَا أَدْنَى الْمُؤَدِّنُ قَامَ وَذَهَبَ إِلَى الصَّلَاةِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِمْ، فَهَذَا غَيْرُ جَائِزٍ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَجْلِسُ عَلَى مَائِدَةٍ يُدَارُ عَلَيْهَا الْخَمْرُ»^(١)؛ لِأَنَّهُ سَيَتَأَثَّرُ لَا مَحَالَةَ، فَكَثْرَةُ الْإِمْسَاسِ تُفْقِدُ الْإِحْسَاسَ.

وَهَذَا الْفَارُوقُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَعِظُ رَجُلًا مَوْعِظَةً، فَيُقَسِّمُهَا وَيُفَصِّلُهَا، وَقَدْ أَوْصَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْإِسْتِمْسَاكِ بِوَصِيَّتِهِ حِينَمَا قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ»^(٢).

قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا تَتَكَلَّمْ فِيهَا لَا يَعْينِكَ، وَاعْتَرِزْ عَدْوِكَ، وَاحْذَرْ صَدِيقَكَ إِلَّا الْأَمِينَ، وَلَا أَمِينَ إِلَّا مَنْ يَخْشَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَيُطِيعُهُ، وَلَا تَمْشِ مَعَ الْفَاجِرِ فَيُعَلِّمُكَ مِنْ فُجُورِهِ، وَلَا تُطْلِعْهُ عَلَى سِرِّكَ، وَلَا تُشَاوِرْ فِي أَمْرِكَ إِلَّا الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ»^(٣)؛ وَالشَّاهِدُ قَوْلُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَا تَمْشِ مَعَ الْفَاجِرِ».

فَلَا تُرَدِّدْ كَمَا يُرَدِّدُ هَذَا الْمِسْكِينُ الَّذِي وَقَعَ وَغَرِقَ فِي مُسْتَنْقَعِ الرَّزِيلَةِ الَّذِي قَالَ: أَنَا عِنْدِي ثِقَةٌ فِي نَفْسِي فَلَا تَخَفْ عَلَيَّ. إِذَا أَوْصَاهُ وَالِدُهُ وَقَالَ لَهُ: احْذَرْ مِنْ فُلَانٍ. قَالَ: لَا تَخَفْ يَا أَبِي وَلَدُكَ مُتَّبِعُهُ. فَإِذَا بِهِ يَثِقُ فِي نَفْسِهِ وَلَا يَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ، فَيَقَعُ.

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الأدب، باب ما جاء في دخول الحمام، رقم (٢٨٠١)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٧)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، رقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه: كتاب المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، رقم (٤٢)، من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد رقم (١٣٩٩).

لهذا قال بعض السلف وهو يوصي ابنه: «إِيَّاكَ وَإِخْوَانَ السُّوءِ؛ فَإِنَّهُمْ يَجُونُونَ مَنْ رَافَقَهُمْ، وَيُفْسِدُونَ مَنْ صَادَقَهُمْ، قُرْبُهُمْ أَعْدَى مِنَ الْجَرَبِ، وَرَفْضُهُمْ مِنْ اسْتِكْمَالِ الْأَدَبِ»^(١).

وَمَنْ صَاحَبَ قَرِينَ السُّوءِ أَصَابَتْهُ أخطارٌ وَأضرارٌ مِنْ ذَلِكَ:

التأثيرُ العَقْدِيُّ:

يُؤَثِّرُ عَلَيْهِ عَقَائِدِيًّا، وَرَبِّهَا أَحَالَهُ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ، وَمَا مَوْجَةُ الْإِحَادِ الَّتِي نَرَاهَا وَنَسْمَعُ بِهَا الْيَوْمَ إِلَّا وَالسَّبَبُ الرَّئِيسُ فِيهَا رُفْقَاءُ السُّوءِ.

فَلَوْ أَلْقَيْنَا نَظْرَةً عَلَى السُّجُونِ الْآنَ وَمَنْ فِيهَا، وَسَأَلْنَا مَنْ فِيهَا عَنِ السَّبَبِ الرَّئِيسِ فِي وُجُودِهِمْ دَاخِلَ السُّجْنِ؛ لَقَالَ: فُلَانٌ وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ، مِنْ أَصْحَابِ السُّوءِ.

وَلَوْ سَأَلْتَ إِنْسَانًا مُعَمَّرًا مُدْخِنًا؛ لَقَالَ: أَوْقَعَنِي فِيهَا فُلَانٌ، عَفَا اللَّهُ عَنْهُ.

وَلَوْ سَأَلْتَ هَذَا الْمُتَعَاطِيَّ؛ لَوَجَدْتَ السَّبَبَ الرَّئِيسَ فِي تَعَاطِيهِ لِلْمُخَدَّرَاتِ فُلَانًا وَفُلَانًا.

وَانظُرْ قَوْلَ الْمَوْلَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ هذا في يومِ الْقِيَامَةِ، الْآنَ فِي الدُّنْيَا هَانِحُنْ نَنْصَحُ أَنْفُسَنَا وَإِخْوَانَنَا، وَسَتَسْتَمِرُّ هَذِهِ النَّصِيحَةُ، وَالْمَوْفَّقُ هُوَ مَنْ سِيَأْخُذُ بِالنَّصِيحَةِ، أَمَّا الَّذِي يُعْرِضُ عَنِ النَّصِيحَةِ فسيَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَسَيَقُولُ هُوَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَكْفُلُ﴾

(١) جزء من موعظة الخطاب بن المعلى المخزومي لابنه، أخرجها الخطابي في العزلة (ص: ٥٠).

يَلْبِتْنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ﴿٢٧﴾ يَوَلِّتَنِي لَيْتَنِي لَمْ أَخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ يُسَمِّيهِ بِاسْمِهِ ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]؛ فقد كان من أهل الذِّكْرِ، وكان يومًا من الأيام في مدرسة تحفيظ القرآن ومراكز تحفيظ القرآن، وكم تعرفون من الشباب ممن كان يحضر صلاة الجمعة، وكان يحضر صلاة التراويح ثم صار ممن انحرف بسبب قرين السوء.

ولما حضرت أبا طالب عم النبي ﷺ الوفاة جاءه النبي ﷺ مسرعًا، فدخل عليه يُلقِّنه الشهادة، فإذا برُفقاء السوء عند رأسه: أبي جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال النبي ﷺ: «يَا عَمُّ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. كَلِمَةٌ أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟! والنبي ﷺ يقول: «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. كَلِمَةٌ أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ» وهما يُردِّدانِ نفسَ المقالة، حتى قال آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب^(١)، هكذا الذي يُعرض عن الذِّكْرِ وعن النصيحة.

وانظروا هذا الحوار الذي هو لأحد أهل الجنة مع إخوانه من أهل الجنة مرَّ في خاطره فلان الذي كاد أن يُردِّيه، ذاك صاحب السوء الذي كان يُجرُّه إلى المعاصي وهو يحذر ويتمنى، قال الله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني: من أصحاب الجنة ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ ﴿٥١﴾ يَقُولُ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَيْنَا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ تَعَالَوْا نَذْهَبْ لِنَرَاهُ وَهُوَ فِي النَّارِ ﴿٥٥﴾ فَاطَّلَعَ قَرَاءَهُ فِي

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، رقم (٤٧٧٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، رقم (٢٤)، من حديث المسيب بن حزن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سَوَاءَ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لِتُرِيدِي ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿[الصفات: ٥١-٦١]﴾.

أنت في الناس تُقاسُ بِالذِي اخْتَرْتَ خَلِيلاً
فاصْحَبِ الْأَخْيَارَ تَعْلُو وَتَنْلُ ذِكْرًا جَمِيلاً^(١)

هكذا هي الحياة، والخيارُ في يدك، أسأل المولى الكريم أن يُقربَ لنا الأخيار، وأن يصرفَ عنا الأشرار.

ومن الأخطار التي تلحق من جالس أهل السوء أنه يتطبع بهم، ويتأثر بهم تقليداً، يقول ابن تيمية **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «فإن الناس كأسراب القطا، مجبولون على تشبه بعضهم ببعض»^(٢)، فهذه جبلةٌ وغريزةٌ، خاصة إذا كان صاحبُ السوء قوياً الشخصيةً، أو صاحبَ جاهٍ ومنصبٍ ومالٍ، فإنه يؤثرُ فيمن جلسَ معه؛ طمعاً في ماله، أو خوفاً من جاهه وقوته ومنصبه.

لذا قال بعض السلف: «إياك ومجالسة الأشرار، فإن طبعك يسرق منهم وأنت لا تدري»^(٣).

ومن الأخطار أن أهل السوء وقرناء السوء أول من ينصرفُ عنك عند النكبة، إذا تعثرت سيكونون بجانبك، إذا توقفت سيدفعون بك، لكنك إذا

(١) البيتان لأبي عثمان سعد بن أحمد التجيبي. انظر: نفع الطيب للمقري (٥/٥٥٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/١٥٠).

(٣) انظر: الذريعة إلى مكارم الشريعة (ص ٢٥٨).

وَقَعَتِ الْوَقْعَةَ الَّتِي لَيْسَ بَعْدَهَا وَقْعَةٌ أَنْصَرَفُوا عَنْكَ، وَهَذَا الْوَاقِعُ نَرَاهُ حَاضِرًا شَاهِدًا حَيًّا.

قال عبد الله بن المعتز **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «إخوان السوء ينصرفون عند النكبة، ويُقبلون مع النعمة»^(١).

لذا نقش بعض الحكماء على خاتمه حكمة: «مَنْ وَدَّكَ لِأَمْرٍ وَلَّى مَعَ انْقِضَائِهَا»^(٢).

فالعاقل هو مَنْ يَخْتَارُ مَنْ يَنْتَفِعُ بِهِ فِي الدُّنْيَا، وَيَكُونُ سَبَبًا لِلانْتِفَاعِ بِهِ فِي الآخِرَةِ.

هذا وصلُّوا وسلِّموا -رحمكم الله- على نبيِّ الهدى والرحمة محمد بن عبد الله، كما أمر الربُّ الكريم في كتابه الكريم قائلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

• • k • •

(١) التذكرة الحمدونية (٤/٣٦٢).

(٢) انظر: المجالسة وجواهر العلم (٥٢٥)، العزلة للخطابي (ص ٥٢)، البصائر والذخائر (١/١٢٧).



(٣٠)

العناية بتربية الأولاد

•• k ••

إِنَّ الْمُتأملَ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَفِي سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ يَجِدُ التَّوْجِيهَ إِلَى أَهْمِيَّةِ العِنَايَةِ بِصَلَاحِ الأَوْلَادِ وَتَرْبِيَتِهِمْ وَتَأْدِيبِهِمْ، وَالإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَهَذَا مَذْكَورٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ، فَيَبِينُ لَنَا سُبْحَانَ وَتَعَالَى فِي قِصَّةِ نُوحٍ مَعَ ابْنِهِ: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعَزِلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمَغْرِقِينَ﴾ [هود: ٤٢-٤٣].

وَيَبِينُ لَنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى قِصَّةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يُوصِي أَبْنَاءَهُ فَيَقُولُ سُبْحَانَ: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وَذَكَرَ لَنَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَا جَاءَ فِي شَأْنِ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَ: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤-٥٥].

وَأَمَرَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ بِالْإِحْسَانِ إِلَى أَهْلِهِ وَتَرْبِيَةِ أَوْلَادِهِ فَقَالَ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعِيقَابُ لِلنَّفُوسِ﴾ [طه: ١٣٢].

وأمر المولى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عباده الصالحين المؤمنين أَنْ يَهْتَمُوا بِنَشْيِهِمْ، فَقَالَ:
 ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ
 شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

وهكذا سار سلف الأمة على نهج الأنبياء والمرسلين عنايةً بأولادهم،
 وتأديباً لهم مع بذل الجهد والطاقة في إصلاحهم.

يقول ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أدب ابنك فإنك مسؤول عنه: ماذا أدبته؟ ماذا
 علمته؟ وهو مسؤول عن برك وطواعيته لك»^(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ - في كلام نفيس - : «وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم
 من قبل الآباء، وإهمالهم لهم، وتركهم تعليمهم فرائض الدين وسننه،
 فأضاعوهم صغاراً فلم ينتفعوا بأنفسهم ولم ينفعوا آباءهم كباراً»^(٢).

وهاهنا قواعد أربع يحتاجها المرء وهو يربي أبناءه، ورُبما تحتاجها أنت أيها
 الشاب قبل أن تتزوج؛ فإن العبد يسير على هذا النهج الذي سار عليه الأولون من
 الأنبياء والمرسلين، فقد اعتنوا بصلاح ذريّاتهم قبل أن يولدوا، وهاهو بيان ذلك
 بإيجاز:

القاعدة الأولى: اعلم أيها المرء أن الجهد الذي تبذله، والوقت الذي تقضيه،
 والمال الذي تصرفه، وصحتك وعافيتك في تربية أبنائك كل ذلك طاعة لله
 سبحانه، وأنت مأجور على ذلك، فما عليك إلا أن تحتسب الأجر في مال تُنفقه، أو

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٣ / ٨٤).

(٢) تحفة المودود (ص: ٢٢٩).

في وقتٍ تبذله، أو في كلامٍ تقوله، كل ذلك احتسب فيه الأجر، فاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يقولُ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

وليس هناك من مدعوٍّ أفضل من ابنك، حينما تُمارس الدعوة مع الآخرين تُوجِرُ عليها، فكيف إذا مارستها مع أبنائك، أنفذتهم من الظلمات، أخرجتهم من الجحيم إلى النعيم، أخرجتهم من الظلام إلى النور؛ فإنك تُوجِرُ على ذلك.

ليس هذا فحسب، وإنما كل عمل صالح يقومون به في مستقبل أعمارهم فهو في موازين حسناتك أنت أيها المربي، ألم يقل نبينا ﷺ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورٍ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا»^(١)، أنت تغرُس في أبنائك، ويصلك هذا الغرس في حياتك وبعد مماتك، فلا تظن أن الأمر يذهب سُدًى.

القاعدة الثانية: اعلم أيها المربي أنك لا تهدي من أحببت، فالهداية - أعني: هداية التوفيق وهداية التثبيت - ليست بأيدينا، وإنما هي بيد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فلا تركز إلى أسباب نفسك، ولا تركز إلى جهدك وبذلك وعطائك، ولا تركز إلى حسن تدبيرك، ولا تركز إلى ذكائك، وإنما علينا أن نركز إلى الركن العظيم إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والسبب أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يقول: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧].

(١) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة، رقم (٢٦٧٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقَدْ بَيَّنَّا فِيهَا سَبَقَ ذَاكَ الْجُهْدَ الَّذِي بَدَّلَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي دَعْوَةِ عَمِّهِ لَكِنَّهُ لَمْ يُسَلِّمْ، وَهَاهُنَا رِوَايَةٌ مُسَلِّمٌ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَمِّهِ: «قُلْ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ). أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» قَالَ: لَوْلَا أَنْ تُعَيِّرَنِي قَرِيْشٌ -أَي: يَقُولُونَ: إِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ الْجَزْعِ- لِأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ. فَأَبَى أَنْ يَقُولَ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ). فَمَاتَ عَلَى غَيْرِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَهِيَ لِكُلِّ مُرَبٍّ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۗ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦: (١)].

فَلَوْ كَانَتْ الْهِدَايَةُ بِأَيْدِينَا لِأَعْطَيْنَاهَا مَنْ نُحِبُّ أَوْلاً، وَلَكِنْ لَا تَعْنِي هَذِهِ الْقَاعِدَةُ أَنَّنَا لَا نَبْذُلُ السَّبَبَ، وَنَقُولُ: الْهِدَايَةُ بِيَدِ اللَّهِ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، بَلْ نَحْنُ مَأْمُورُونَ بِاتِّخَاذِ الْأَسْبَابِ، مَأْمُورُونَ بِإِصْلَاحِ أَبْنَائِنَا وَتَرْبِيَتِهِمْ، وَالنَّبِيُّ ﷺ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَيْضًا فِي سُورَةِ الشُّورَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].

نَعَمْ إِنَّهُ ﷺ يَهْدِي هِدَايَةَ الدَّلَالَةِ وَالْإِرْشَادِ، أَمَّا هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ فَهِيَ بِيَدِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَعَلَيْنَا أَنْ نَبْذُلَ السَّبَبَ فِي صِلَاحِ أَبْنَائِنَا وَتَرْبِيَتِهِمْ، مُعْتَمِدِينَ فِي هِدَايَتِهِمْ عَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

القاعدة الثالثة: اعْلَمْ أَنَّ الْمَالَ الْحَلَالَ سَبَبٌ رَئِيسٌ فِي صِلَاحِ الْأَبْنَاءِ، فَاحْرِصْ عَلَى أَنْ يَكُونَ مَالُكَ حَلَالًا، فَكَلِّمْ صِلَاحَ الْمَالِ صِلَاحَ الْأَبْنَاءِ، فَهِيَ عِلَاقَةٌ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، رقم (٢٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

طردية، وهناك تلازم بين صلاح المال المكسوب، وصلاح الأبناء.

وقد جاء في حديث كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الطبراني في (معجمه): أن النبي ﷺ وهو يجلس مع أصحابه مرَّ عليهم شابٌ فتى قوي نشيط في حاجته، فقال الصحابة للنبي ﷺ: لو كان هذا في سبيل الله لكان خيرًا له. فقال رسول الله ﷺ: «إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعْفُهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١).

فحينما نخرج لتكسب فلنعلم أن هذا الخروج في سبيل الله، وليكن في سبيل الله بحق، فإن هذا المال الذي نبذله في أولادنا هو أعظم المال، قال ﷺ كما جاء عند مسلم في (صحيحه): «دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مَسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ، أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ»^(٢).

ولكننا في زمانٍ أخبر النبي ﷺ: أن أهله يأخذون المال دون أن يلتفتوا إلى الحلال والحرام - إلا من رحم الله - قال ﷺ كما جاء في (صحيح البخاري): «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُبَالِي الْمَرْءُ مَا أَخَذَ مِنْهُ، أَمِنَ الْحَلَالِ أَمْ مِنَ الْحَرَامِ»^(٣).

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٩/١٢٩ رقم ٢٨٢)، من حديث كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال والمملوك، رقم (٩٩٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب من لم يبال من حيث كسب المال، رقم (٢٠٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فِيَدْخُلُ الرَّجُلُ عَلَى أُنْبَاءِهِ، وَيُطْعِمُ أُنْبَاءَهُ، وَيَكْسُو أُنْبَاءَهُ، وَيُسْكِنُ أُنْبَاءَهُ، وَيُرْكَبُ أُنْبَاءَهُ، وَكَسْبُهُ حَرَامٌ؛ إِمَّا بِسَرِقَةٍ، أَوْ بِرِبَا، أَوْ بِتَحَايُلٍ عَلَى الشَّرْعِ، أَوْ بِسُؤَالِ النَّاسِ وَهُوَ غَيْرُ مُتَحَاجٍّ، أَوْ بِأَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ فِي تِجَارَةٍ مُحَرَّمَةٍ، وَكُلُّ ذَلِكَ قَالَ عَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَالْحَدِيثُ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ - قَالَ: «يَا كَعْبُ بْنُ عَجْرَةَ، إِنَّهُ لَا يَرَبُّو لَحْمٌ نَبَتْ مِنْ سُحْتٍ إِلَّا كَانَتْ النَّارُ أَوْلَى بِهِ»^(١)، وَالنَّارُ لَا تَكُونُ أَوْلَى إِلَّا بِالْأَجْسَادِ الْعَاصِيَةِ الْفَاسِقَةِ، فَالَّذِي يُطْعِمُ أُنْبَاءَهُ حَرَامًا يَقُودُهُمْ إِلَى النَّارِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ، وَيَجْعَلُهُمْ فَسَقَةً؛ لِأَنَّهُ لَا يَرَبُّو لَحْمٌ مِنْ سُحْتٍ إِلَّا كَانَتْ النَّارُ أَوْلَى بِهِ.

القاعدة الرابعة: ادْعُ لِأُنْبَائِكَ؛ فَإِنَّ الدُّعَاءَ لِلْأُنْبَاءِ مِنْ شِيَمِ الصَّالِحِينَ، وَكَمْ مِنْ وُلْدٍ كَانَ عَلَى انْحِرَافٍ فَأَنْقَذَهُ اللَّهُ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** بِدَعْوَةِ وَالِدٍ أَوْ وَالِدَةٍ، نَعَمْ، قَدْ تَتَأَخَّرُ الْإِجَابَةُ رَبًّا سَنَةً، أَوْ عَشْرَ سِنَوَاتٍ، أَوْ عِشْرِينَ سَنَةً، فَلَا تَكَلَّ وَلَا تَمَلَّ وَلَا تَتَوَقَّفْ، بَلِ ادْعُ لَهُمْ وَهُمْ أَجِنَّةٌ فِي بَطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ، ادْعُ لَهُ وَأَنْتَ تَرَاهُ طِفْلاً صَغِيرًا لَمْ يَجْرِ عَلَيْهِ قَلَمُ التَّكْلِيفِ، ادْعُ لَهُ وَأَنْتَ تَرَاهُ صَالِحًا يَذْهَبُ إِلَى الصَّلَاةِ فِي كُلِّ فَرَضٍ مَعَكَ، وَلَا تَتَوَقَّفْ عَنِ الدُّعَاءِ لَهُ بِالصَّلَاحِ، قَالَ اللَّهُ فِي شَأْنِ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ **وَلَمْ يَأْتِهِ وَلَدٌ بَعْدُ: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ. قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾** [آل عمران: ٣٨]، يَدْعُو اللَّهُ بِصَلَاحِ الذُّرِّيَّةِ وَطَيِّبِهَا.

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ أَنْ يُوَلَّدَ لَهُ: **﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾** [الصافات: ١٠٠]، فَلَمَّا وَهَبَ لَهُ رَبُّهُ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** الْبَنِينَ قَالَ سُبْحَانَهُ فِي دَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ: **﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾**

(١) أخرجه الترمذي: كتاب أبواب السفر، باب ما ذكر في فضل الصلاة، رقم (٦١٤)، من حديث كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[إبراهيم: ٣٥]، ثم قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ [إبراهيم: ٤٠]، هذا إبراهيم مُكسِّر الأَصْنَامِ وَمَعَ ذَلِكَ يَقُولُ: ﴿وَأَجْبِبْنِي وَبَيِّنْ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ بِيَدِ اللَّهِ.

قال النبي ﷺ: «ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ يُسْتَجَابُ لهنَّ، لَا شَكَّ فِيهنَّ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ الْمَسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ لِوَالِدِهِ»^(١).

فَكَمْ نُعْطِي مِنَ الْوَقْتِ دُعَاءَ لِأَبْنَائِنَا؟ هَلْ جَعَلْنَا لَنَا وَقْتًا فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَاقْتَنَصْنَا بَعْضَ الْأَوْقَاتِ كَسَاعَةِ الْجُمُعَةِ دَعْوَةً لِأَبْنَائِنَا؟ أَوْ وَقَعْنَا فِيهَا وَقَعَ فِيهِ أَوْلَئِكَ الْمَسَاكِينُ الَّذِينَ قَلَبُوا الْآيَةَ فَدَعَوْا عَلَى أَبْنَائِهِمْ؛ حَيْثُ يُطَلَّبُ مِنْهُمْ أَنْ يَدْعُوا لِأَبْنَائِهِمْ فَإِذَا بِهِمْ يَدْعُونَ عَلَى أَبْنَائِهِمْ.

وَقَدْ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَشْكُو عَقُوقَ وَلَدِهِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَدْعَوْتَ عَلَيْهِ؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «أَذْهَبَ فَقَدْ أَفْسَدْتَهُ»^(٢).

وقال النبي ﷺ كما جاء في (صحيح مسلم): «لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لَا تُؤَافِقُوا مِنَ اللَّهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ، فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ»^(٣).

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الوتر، باب الدعاء بظهر الغيب، رقم (١٥٣٦)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في دعوة الوالدين، رقم (١٩٠٥)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب دعوة الوالد، رقم (٣٨٦٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٢/٢١٧).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، رقم (٣٠٠٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إِذَنْ: صَلَاحُهُمْ بِيَدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَسْبَابًا فِي أَيْدِينَا؛
نَسَأَلُ الْمَوْلَى الْكَرِيمَ أَنْ يُصَلِّحَ لَنَا أَبْنَاءَنَا.

هَذَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا -رَحِمَكُمُ اللَّهُ- عَلَى نَبِيِّ الْهُدَى وَالرَّحْمَةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ
اللَّهِ، كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ الْكَرِيمُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ قَائِلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى
النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَزِدْ وَبَارِكْ عَلَى عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ نَبِيِّنَا وَاعْرِضْ عَلَيْهِ
صَلَاتِنَا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

K

K

(٣١)

قيمة العمل ومواصفات العامل الجاد

•• k ••

ما من عاقلٍ إلا وهو يُدركُ أنَّ المُجتمعاتِ التي لا يعملُ أفرادها مُجتمعاتٌ مُتخلفةٌ، لا تحظى بمَقعدٍ أماميٍّ مع المُتقدمين، لا يختلفُ معنا عاقلٌ ولا يجهلُ هذه الحقيقة.

إنَّ المُجتمعاتِ التي لا يعملُ أفرادها عملاً جاداً مُثمراً هي مُجتمعاتٌ مُتردِّيةٌ، تعيشُ في الأحلام، ولا يحلمُ إلاَّ النَّائمُ، فهي مُجتمعاتٌ نائمةٌ.

وإنَّ المُتأملَ في نصوصِ الكتابِ والسُّنةِ يجدُ التأكيدَ على أهميَّةِ العملِ، وإنَّكَ كُفردٍ أو كُمجتمعٍ أو كأمةٍ، إذا أرذتِ النهوضَ، وأرذت أن تتقدَّم على أقرانك، وأن تحوزَ المقاعدَ المُتقدمةَ فلا يكونُ ذلكُ إلاَّ بالعملِ، واللهُ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** بينَ ذلكِ في كتابه في مواضعٍ مُتعدِّدةٍ، فاللهُ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** قادرٌ على أن ينقلَ نوحاً **عَلَيْهِ السَّلَامُ** وقومه حيثُ شاء، ولكنَّ أرادَ أن يُعلِّمه قيمةَ العملِ فقال: **﴿ وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾** [هود: ٣٧] أرادَ منه أن يعرفَ قيمةَ العملِ فقال: **﴿ وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ ﴾**.

وكذا ربُّنا **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** قادرٌ على أن يفلقَ البحرَ لموسى ومن معه دونَ عصا موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، ومع ذلكَ قال: **﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾** [الشعراء: ٦٣] ليُعلِّمه قيمةَ العملِ.

ومريمٌ عليها السلام وهي في حالةٍ مِنَ الأَمِّ والاضطرابِ النَّفْسِيِّ لا تَقْدِرُ على شيءٍ، أرادَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يُعَلِّمَهَا قِيَمَةَ العَمَلِ فقالَ لها: ﴿وَهَزِيْ اِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطْ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾ [الشعراء: ٦٣]، وهو قَادِرٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُخْرِجَ لها بَرَكَاتِ الأَرْضِ وَيُنزِلَ عليها بَرَكَاتِ السَّمَاءِ؛ لِيُعَلِّمَهَا قِيَمَةَ العَمَلِ.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِمَرْيَمَ وَهَزِيْ اِلَيْكَ الْجِدْعَ يَسْقِطْ لَكَ الرُّطْبَ

وَلَوْ شَاءَ أَنْ تَجْنِيَهُ مِنْ غَيْرِ هَزَّهَا جَنَّتَهُ لَكِنْ كُلُّ شَيْءٍ لَه سَبَبٌ

فالعَمَلُ في شَرْعنا له قِيَمَةٌ، ولا يَعْرِفُ قِيَمَتَهُ إِلاَّ العَامِلُ المُتَمَجِّجُ، أَمَّا الكُسَالِيُّ والنائِمون فلا يُدْرِكون قِيَمَةَ العَمَلِ.

وقد جاءَ في (مُعْجَم الطبرانيِّ الكَبير): أَنَّ ابنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: «إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَرَى الرَّجُلَ فارِغًا، لا في عَمَلٍ دُنْيَا ولا في عَمَلٍ آخِرَةٍ»^(١)، أي: هذا مَبْغُوضٌ مَكْرُوهٌ عِنْدَ ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ نَتَاجٌ على أَرْضِ الوَاقِعِ.

وقال الأَوْزَاعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ شَرًّا أَلْزَمَهُمُ الجِدَالَ وَمَنَعَهُمُ العَمَلَ»^(٢).

فإذا رأيتَ أُمَّةً، أو مُجْتَمَعًا، أو مَجْلِسًا، أو مُتَتَدِيًا، أو اجْتِمَاعًا لبعضِ أصحابك لا يُتَقَنون إِلاَّ فنَّ الكَلَامِ فاعْلَمْ أَنَّ هَؤُلاءِ لا مَقْعَدَ لَكَ مَعَهُمْ؛ لِأَنَّ هَؤُلاءِ لا يُتَقَنون إِلاَّ الحديثَ والكَلَامَ، والأُمَّةُ اليَوْمَ تُحْتَاجُ إلى العَامِلِ الذي يَعْمَلُ بِصَمْتٍ عَمَلًا جَادًّا مُثْمِرًا، ولا تُحْتَاجُ إلى المُتَكَلِّمِ.

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٩/١٠٢ رقم ٨٥٣٨).

(٢) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة رقم (١/١٦٤ رقم ٢٩٦).

وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على ذلك الأصل العظيم.

فدعوى الإيمان بغير عمل لا قيمة لها، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُل لَّمْ نُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤].

فالعبرة بالعمل، وإيمان بغير عمل لا فائدة منه، كمن يدعي الإيمان ولا يصلي، أو يدعي الإيمان ولا يزكي، أو يدعي الإيمان وتمر عليه عشرات السنين ولا يحج، فلا قيمة لهذا الإيمان بغير عمل.

وإذا وقف العباد في أرض الحساب إنما يحاسبون على أعمالهم لا على أنسابهم وجاههم ومناصبهم وأموالهم، قال الله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَسْتَ لَنْ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣]، فالسؤال في أرض الحساب عن العمل، فانظر في نفسك ما عملك؟

ثم إن أهل الجنة يدخلون الجنة بعد رحمة الله تبارك وتعالى بسبب أعمالهم، وقد جاء ذلك واضحاً في كتاب الله، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ﴾ يعني: أهل الجنة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تَتَّخِذُوا الْجَنَّةَ بُرُوجاً يُصْرَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣] أي: عملاً بغير إزعاج، ولا ضجيج، ولا صراخ، عملاً منتجاً مؤثراً على أرض الواقع، لا بما كنتم تتكلمون.

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ نُنَاقِهِمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا

أَلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿[النحل: ٣٢].

فإذا نظرت في الجهة المقابلة إلى أهل النار فإثمهم يتحسرون على الدنيا، لا يتحسرون على مزارعها وأموالها وأنهارها، ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ﴾ [فاطر: ٣٧]، الغاية التي عندهم، يقولون: لو أخرجتنا يا ربنا سنعمل.

وقال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: رأينا الآن النار حقيقة ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] لكن لا يمكن الرجعة، فالأمر انتهى، والعبرة بالعمل.

وقال الحق سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ كانوا يعملون، لكن عمل سوء، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿أَوْلَمْ نَعْمِرْكُمْ﴾ عشت عشرين سنة، أو ثلاثين سنة، أو أربعين سنة، أو خمسين سنة، أو ستين سنة، أو سبعين سنة ﴿مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦-٣٧].

وقد شرع الله تبارك وتعالى العبادات للعمل، حتى عبادة التأمل والتفكير شرعها الله ليتبع ذلك عمل صالح، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ إلى أن قال الحق سبحانه: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩٥].

فالعبرة بالعمل، وليس أي عمل، وإنما المطلوب: العمل الجاد المثمر، كما قال الحق سبحانه: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣].

فلا يراد العمل الهزيل، ولا المتقطع، فالذي يريد أن يبني الأوطان ويحمي الدين، وأن يتقدم على المستوى الشخصي، أو على مستوى الأفراد والأمم؛ لا بد أن يعمل بقوة وبجد.

وقال الله سبحانه وتعالى لموسى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْبِكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

فالذي يريد أن يحفظ القرآن يدخل على هذا المشروع بقوة، والذي يريد أن يلتزم بالفروض الخمسة جماعة في المسجد يأخذ هذا المشروع بقوة، والذي يريد أن يحمي نفسه من الشبهات والشهوات يدخل في هذا المشروع بقوة، لا دخول المتردد، ولا دخول الذي يعبد الله على حرف! يقول الله تبارك وتعالى ليحيى عليه السلام: ﴿يٰٓحِيٓى خُذِ الْكِتٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢].

وكذا الذي يريد أن يلتزم ويريد سبيل الرشاد والهداية عليه أن يأخذه بقوة، ليحمي نفسه من هذه العواصف التي لا يقف في وجهها إلا الأقوياء، أما الضعفاء فيتساقطون عند شهوة المال، وعند شهوة الفرج، وعند الشهوات المتعددة، فمن أراد أن يأخذ هذا الكتاب فليأخذه بقوة.

وكما أننا ندعو إلى العمل الجاد، فإننا نبحث عن العامل الجاد، ولا يوفق لهذا إلا هذا.

والعامل الجاد له صفاتٌ مُتعدِّدةٌ، أذكرُ ثلاثاً منها:

الصِّفَةُ الْأُولَى: الْعَمَلُ الدَّائِمُ.

أي: إذا التزمَ بعملٍ لا يتركُه، قالت أمُّ سلمة - كما جاء في (صحيح مُسلم) -
عن النَّبِيِّ ﷺ: «وكانَ أَحَبُّ الْعَمَلِ إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ الْعَبْدُ وَإِنْ كَانَ يَسِيرًا»^(١).

الصِّفَةُ الثَّانِيَةُ: الصَّبْرُ وَعَدَمُ الاسْتِعْجَالِ.

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُحَقِّقَ ثَمْرَةَ سَوَاءٍ عَلَى مُسْتَوَاهُ الشَّخْصِيِّ، أَوْ عَلَى مُسْتَوَاهُ
الْأَسْرِيِّ فَعَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ، وَأَنْ يَعْمَلَ بِصَبْرٍ، وَتَدَبَّرُوا فِي كِتَابِ اللَّهِ كَمَا مَرَّةً وَرَدَ
الْخُطَابُ مَوْجَّهًا لِلنَّبِيِّ ﷺ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْقِذِينَ﴾
[هود: ٤٩]؟

وَيَقُولُ لَهُ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم: ٦٠].

وَيَقُولُ لَهُ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [غافر: ٥٥].

وَيَقُولُ لَهُ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [غافر: ٧٧].

تَتَكَرَّرُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

وَيَقُولُ لَهُ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾

[الأحقاف: ٣٥].

(١) أخرجه النسائي: كتاب قيام الليل وتطوع النهار، باب صلاة القاعد في النافلة، رقم (١٦٥٢)،
من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب الجلوس على الحصير
ونحوه، رقم (٥٨٦١)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة العمل الدائم، رقم
(٧٨٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ويقول له: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْمُتَوَكِّلِ﴾ [القلم: ٤٨].

فعملٌ دائمٌ ممزوجٌ بخُلُقِ الصَّبرِ.

الصِّفَةُ الثَّلَاثَةُ: العاملُ الجادُّ هو الَّذي يُقدِّمُ المَصْلَحَةَ العامَّةَ على مَصْلَحَتِهِ الشخصيةِ.

إذا رأيتَ إنساناً يُقدِّمُ مَصْلَحَةَ الأُمَّةِ على مَصْلَحَتِهِ الشخصيةِ فاعلمْ أنَّه عاملٌ جادٌ.

وقد جاءَ في (صحيح البخاري): أنَّ النبيَّ ﷺ يقولُ: «طُوبَى لِعَبْدٍ آخَذَ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةً قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ»^(١).

يقولُ: أنا أخدمُ الأُمَّةَ مِن أَيِّ مكانٍ وضَعْتُموني فيه. لا يقولُ كما يقولُ البعضُ: رشَّحوني لكي أخدمكم، وانتخبوني حتى أخدمكم، إنما هو يخدمُ سواءً كانَ تحتَ القُبَّةِ، أو فوقَ القُبَّةِ، أو بجانبِ القُبَّةِ، هو يعملُ دونَ أن يتدَّرَعَ بهذه الدَّرِيعَةِ.

وفي الأُمَّةِ نماذجٌ مُتعدِّدةٌ للعاملين الجادِّين:

ولمَّا بدأتُ البحثُ في نماذجٍ للجادِّين وماذا اختارُ منها؟ وقَعْتُ في حرجٍ كبيرٍ لتعدُّدِ هذه النماذجِ المُشْرِقةِ في تاريخِ الأُمَّةِ القديمِ والمعاصرِ، ودَعَكُم مِنَ الَّذي يقولُ: لا توجدُ عندنا نماذجٌ مُشْرِقةٌ في زماننا، بل نماذجُ الجادِّين في حياتنا اليومَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، رقم (٢٨٨٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

كثيرة، ولكن مع الأسف الشديد لا تُسلط عليها الأضواء حتى لا يُقتدى بها.
وقد اخترت لكم أنموذجاً من المعاصرين عاش معنا قبل أكثر من ثمانين
سنة:

هذه أسرة غير مسلمة عهدت بائنها لأحد المعلمين المسلمين، فتتلمذ هذا
الصبي غير المسلم على يد المعلم المسلم، فكان هذا المعلم المسلم أنموذجاً من
العاملين الجادّين، غرس في هذا الطفل العلم الذي يُريده، وتريده الأسرة،
وغرس عقيدة الإسلام، فأسلم الصبي فعلمت به الأسرة، فطردته من بيتها،
وخرج هذا الصبي ونشأ في كنف أسرة مسلمة، وكان من أسرة ثرية، والثراء
يمشي في دمه، فكون له تجارة، وأصبح من كبار التجار، وأنجب أبناء، فكان
منهم: محمد يوسف بن عبد الرحيم ستي، مع الأسف هذا الاسم لا يعرفه الناس.

وقد جاء محمد يوسف بن عبد الرحيم ستي من بلاد الهند؛ ليؤسس في بلاد
الهند مراكز تحفيظ القرآن التي نراها اليوم، كان يمرُّ بالأحياء الفقيرة فيقول:
أنشئوا حلقة قرآن هنا، أنتم تضعون ثلث الميزانية وأنا أضع الثلثين. فتعددت
حلقات تحفيظ القرآن في الهند.

ثم التفت إلى أرض الحرمين فذهب إلى مكة، فلم يجد في ذلك الزمن جمعية
لتحفيظ القرآن الكريم، فأنشأ أول جمعية لتحفيظ القرآن الكريم في مكة، الجمعية
الحيرية لتحفيظ القرآن الكريم، أنشأها في عام ألف وثلاث مئة واثنين وثمانين
للهجرة، ثم توجه إلى المدينة -على ساكنها أفضل الصلاة والسلام- فأنشأ فيها
جمعية لتحفيظ القرآن الكريم، ثم توجه إلى الرياض فأنشأ فيها فرعها الثالث.

ثم جاب جزيرة العرب والخليج العربي ينشئ مراكز تحفيظ القرآن، ثم توجه إلى لبنان وإلى سوريا وإلى بعض الأقطار العربية المسلمة.

هذا وهو رجل واحد، والآن عشرات الملايين من الحفّاظ يأتون يوم القيامة في ميزان هذا الرجل، وهذه المراكز التي ترؤنها الآن قد انتشرت في بلادنا أو في بلاد المسلمين يعود الفضل بعد الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** لهذا الرجل الذي لا يعرفه أحد، بل ربّما من يعمل في مراكز تحفيظ القرآن اليوم لا يعرفون هذا الاسم: محمد يوسف بن عبد الرحيم ستي، مؤسس مراكز تحفيظ القرآن في العصر الحديث في مجتمعاتنا المسلمة، إنه أنموذج للعامل الجاد.

اللهمّ إنّنا نسألك يا ذا الجلال والإكرام أن تُوفّقنا جميعاً للعمل الجاد.

هذا وصلّوا وسلّموا -رحمكم الله- على نبيّ الهدى والرحمة محمد بن عبد الله، كما أمر الربُّ الكريم في كتابه الكريم قائلًا: **﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾** [الأحزاب: ٥٦].



(٣٢)

رسالة إلى حجاج بيت الله

•• k ••

رسائل إلى حجاج بيت الله الحرام من نوى الذهاب إلى الحج، ومن لا يزال مترددًا:

الرسالة الأولى: أيها الحاج اجعل حجك لله:

إذا أردت الأجر والثواب فاجعل حجك لله، وإذا أردت الغنيمة فاجعل حجك لله، وإذا أردت القبول فاجعل حجك لله، هكذا قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأْتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

أوصانا ربنا تبارك وتعالى بهذه الرسالة؛ لأنه يعلم سبحانه أن هناك من القلوب من يطمع في عبادته إلى ما في يد غير الله تبارك وتعالى، فقد تلتفت هذه القلوب إلى حبّ الشئ؛ فيقول الناس عنه: ما شاء الله، فلان يحج كل سنة، فالتفت قلبه إلى هذا الشئ وهذا المديح، ولم يلتفت إلى تحصيل الأجر والثواب، وربما التفت قلبه إلى شيء من متاع الدنيا؛ كمن يبحث عن حجة البدل ليحصل شيئاً من المال، فأخذ هذا المال، أو حج ليأخذ هذا المال وقصده الأول في هذا الحج أن يحصل هذا المال، وهذا أمرٌ يحدش إخلاصه وحجّه.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: ثناء من هنا، ومديحاً من هناك، ودنانيرٌ يحصلها هنا على مطية هذه العبادة ﴿وَزِينْنَهَا نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَلْتُمْ﴾

فِيهَا ﴿ يَسْمَعُ مِنَ الثَّنَاءِ، وَيَسْمَعُ مِنَ الْمَدِيحِ، وَيُقَالُ عَنْهُ: فَلَانٌ يَحُجُّ كُلَّ سَنَةٍ، وَفَلَانٌ أَكْمَلَ عِشْرِينَ سَنَةً وَهُوَ يَحُجُّ، فَتَتَطَلَّعُ نَفْسُهُ إِلَى ذَلِكَ ﴾ وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أَوْلِيكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ [هود: ١٥-١٦].

وقال الله سبحانه: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّنَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴾ ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿ [الإسراء: ١٨-١٩].

وقُلْ كما قال رسول الله ﷺ؛ فقد جاء في (سُننِ ابْنِ ماجَه) من حديثِ أنسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَجَّ عَلَى رَحْلِ رَثٍّ، وَقَطِيفَةَ تُساوِي أَرْبَعَةَ دِرَاهِمٍ، قَالَ: أَوْ لَا تُساوِي، وَمَعَ ذَلِكَ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اللَّهُمَّ حَجَّةٌ لَا رِيَاءَ فِيهَا وَلَا سُمْعَةً»^(١)، أَي: يَا رَبِّ احْمِنِي أَنْ تَكُونَ حَجَّتِي هَذِهِ لغيرِكَ.

فرددت أنت أيضا: اللَّهُمَّ حَجَّةٌ لَا رِيَاءَ فِيهَا وَلَا سُمْعَةً؛ لِأَنَّ النَّفْسَ تَتَطَلَّعُ إِلَى هَذَا الْمَقْصُودِ.

الرَّسَالَةُ الثَّانِيَةُ: أَكْثَرُ مِنَ الدَّعَاءِ فِي هَذَا الْمَنْسَكِ الْعَظِيمِ.

فَادْعُ لِنَفْسِكَ، وَلِأَوْلَادِكَ، وَلِوَالِدَيْكَ، وَلِأَحْبَابِكَ، وَلِأَقَارِبِكَ، وَلِمَنْ كَانَ حَيًّا أَوْ مَيِّتًا، وَادْعُ لِلْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ هَذَا الْمَنْسَكَ الْعَظِيمَ قَدْ اشْتَمَلَ عَلَى مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ يَكْثُرُ فِيهَا الدَّعَاءُ، وَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب المناسك، باب الحج على الرحل، رقم (٢٨٩٠)، من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿[غافر: ٦٠].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ

إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿[البقرة: ١٨٦].

ويقول ﷺ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»^(١).

فَاعْظَمُ مَا فِي هَذَا الْمَنَسِكِ الْعَظِيمِ هُوَ الدُّعَاءُ.

وانظر إلى رسول الله ﷺ تَجِدُهُ يَدْعُو هُنَا فِي هَذَا الْمَنَسِكِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَفِي

ذَلِكَ الْمَوْضِعِ، فَاجْعَلْ حَجَّكَ كُلَّهُ دُعَاءً.

وقد جاء في حديث عبد الله بن السائب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ

ﷺ يَقُولُ مَا بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ: «رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ

النَّارِ»^(٢).

وَإِذَا رَفَعِي الصَّفَا دَعَا قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ

الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعَدَّهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ،

وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ»^(٣).

يَرْفَعُ يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلًا الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَدْعُو، لَا يَنْشَغُلُ بِمَنْ يُسْرَعُ فِي إِنْهَاءِ حَجِّهِ،

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم (١٤٧٩)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن،

باب ومن سورة البقرة رقم (٢٩٦٩)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، رقم

(٣٨٢٨)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب المناسك، باب الدعاء في الطواف، رقم (١٨٩٢)، من حديث عبد الله

بن السائب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وإنهاء سعيه، بل هو مشتغل بهذا الدعاء العظيم، ثم يُردّد هذا الدعاء ثلاثاً، ثم ينزل إلى المروة ويفعل مثل ذلك، فإذا جاء يوم عرفة جاء يوم الدعاء.

فأوصيك يا أيها الحاج: لا يفوتك يوم عرفة وأنت مشتغل بغير الدعاء؛ فإنَّ العبد في يوم عرفة فرغ من أغلب العبادات: يجمع الظهر والعصر، وليس عنده سعي، ولا رمي، ولا طواف، وليس عنده إلا الدعاء.

فارفع يديك وادع، فقد وقف نبينا ﷺ يدعو من بعد صلاة الظهر إلى أن أذن المغرب، أرايت هذا الوقت الطويل! وهو رافع يديه ﷺ يدعو! لم يكن على كرسي، أو على فراش، وإنما كان على ناقته وهو يدعو من بعد أن صلى الظهر والعصر إلى أن غربت الشمس، رفع يديه يدعو ﷺ وهو يعلم أن الله تبارك وتعالى أنزل عليه ما يدل على أنه مغفور له ذنبه الذي تقدم والذي تأخر، ويعلم أن هذه حجة الوداع، فقد قال: «لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا»^(١) إذ مات بعدها بشانين يوماً، ومع ذلك يدعو، كما جاء في (سنن النسائي) أنه ﷺ يدعو وكان خطام ناقته في يديه فيسقط الخطام فينزل يداً واحدة يأخذ بها الخطام والأخرى لا زالت مرتفعة تدعو^(٢).

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الحج، باب ما جاء في الإفاضة من عرفات، رقم (٨٨٦)، والنسائي: كتاب مناسك الحج، باب الركوب إلى الجمار واستئطال المحرم، رقم (٣٠٦٢)، وابن ماجه: كتاب المناسك، باب الوقوف بجمع، رقم (٣٠٢٣)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه مسلم: كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً، رقم (١٢٩٧)، بلفظ: «لعلي لا أحج بعد حجتي هذه».

(٢) أخرجه النسائي: كتاب مناسك الحج، باب رفع اليدين في الدعاء بعرفة، رقم (٣٠١١)، من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فلا تُضَيِّعِ الدِّعَاءَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ، وَادْعُ لِأَهْلِكَ.

وَكَذَلِكَ تَجِدُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ يَدْعُو ^(١).

الرَّسَالَةُ الثَّلَاثَةُ: اسْتَحْضِرْ أَجْرَ الْحَجِّ:

فَأَجْرُ الْحَجِّ عَظِيمٌ، مُنْذُ الْخُطْوَةِ الْأُولَى الَّتِي تَخْطُوهَا خَارِجًا بِهَا مِنْ بَيْتِكَ،
وَاقْرَأْ حَدِيثَ النَّبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي جَمَعَ هَذِهِ الْفَضَائِلَ الْمُتَعَدِّدَةَ: فَقَدْ جَاءَ عِنْدَ الْبَزَارِ
وَالطَّبْرَانِيِّ وَابْنِ حِبَّانَ، وَحَسَّنَ الْأَلْبَانِيُّ رَحْمَةً أَللَّهُ هَذَا الْحَدِيثَ:

قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَإِنَّكَ إِذَا خَرَجْتَ مِنْ بَيْتِكَ تَوُّمَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ لَا تَضَعُ
نَاقَتَكَ خُفًّا، وَلَا تَرْفَعُهُ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَكَ بِهَا حَسَنَةً وَمَحَا عَنْكَ خَطِيئَةً، وَأَمَّا رَكَعَتَاكَ
بَعْدَ الطَّوَافِ كَعِتْقِ رَقَبَةٍ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ، وَأَمَّا طَوَافُكَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ بَعْدَ ذَلِكَ
كَعِتْقِ سَبْعِينَ رَقَبَةً، وَأَمَّا وُقُوفُكَ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ فَإِنَّ اللَّهَ يَهْبِطُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيُبَاهِي
بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ يَقُولُ: عِبَادِي جَاؤُونِي شُعْثًا يَرْجُونَ رَحْمَتِي، فَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُكُمْ كَعَدَدِ
الرَّمْلِ، أَوْ كَقَطْرِ الْمَطَرِ، أَوْ كَزَبَدِ الْبَحْرِ لَغَفَرْتُمَهَا» لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ! أَيَفَوَّتْ هَذَا الْأَجْرُ؟
«أَفِيضُوا عِبَادِي مَغْفُورًا لَكُمْ وَلِيَنْ شَفَعْتُمْ لَهُ» أَي: دَعْوَتُمْ لَهُ فِي عَرَفَةَ. فَاشْفَعُوا
لِإِخْوَانِكُمْ وَأَحِبَائِكُمْ وَأَقَارِبِكُمْ.

قَالَ: «وَأَمَّا رَمْيُكَ الْجِمَارِ فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ حَصَاةٍ رَمَيْتَهَا حَسَنَةً، وَيُمْحَى عَنْكَ
خَطِيئَةٌ، وَأَمَّا نَحْرُكَ فَمَذْخُورٌ لَكَ عِنْدَ رَبِّكَ، وَأَمَّا جِلَاقُكَ رَأْسَكَ فَلَكَ بِكُلِّ شَعْرَةٍ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب المناسك، باب صفة حجة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم (١٩٠٥)،
من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأصله عند مسلم: كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم
النحر راكبا، رقم (١٢٩٧).

حَلَقْتَهَا حَسَنَةً، وَيُمَحَى عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةٌ، وَأَمَّا طَوَافُكَ بِالْبَيْتِ بَعْدَ ذَلِكَ فَإِنَّكَ تَطُوفُ وَلَا ذَنْبَ لَكَ، يَأْتِي مَلَكٌ حَتَّى يَضَعَ يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْكَ يَقُولُ: اْعْمَلْ فِيهَا تَسْتَقْبِلُ فَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا مَضَى»^(١).

فَمَنْ حَصَلَ هَذَا الْأَجْرَ فَلْيَحَافِظْ عَلَيْهِ.

يَا رَاحِلِينَ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ لَقَدْ سِرْتُمْ جُسُومًا وَسِرْنَا نَحْنُ أَرْوَاحًا
إِنَّا أَقْمْنَا عَلَى عُذْرٍ وَعَنْ قَدَرٍ وَمَنْ أَقَامَ عَلَى عُذْرٍ فَقَدْ رَاحَا

الرَّسَالَةُ الرَّابِعَةُ: احذَرُ أَنْ تَقَعَ فِي ظَلَمِ الْآخَرِينَ وَأَنْتَ تُؤَدِّي هَذِهِ الْمَنَاسِكَ.

فاحذَرُ أَنْ تُؤْذِيَ أَحَدًا، أَوْ تَظْلِمَ أَحَدًا فِي سَعِيكَ، أَوْ فِي طَوَافِكَ، أَوْ فِي رَمِيكَ، أَوْ فِي تَنَقُّلَاتِكَ، وَأَمْسِكْ هَذَا اللِّسَانَ وَهَذِهِ الْجَوَارِحَ وَتِلْكَ الْأَرْكَانَ أَنْ تُؤْذِيَ أَحَدًا.

فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ عَنْهُ أَسَامَةُ بْنُ شَرِيكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ حَاجًّا فَكَانَ النَّاسُ يَأْتُونَهُ، فَمِنْ قَائِلٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، سَعَيْتُ قَبْلَ أَنْ أَطُوفَ، أَوْ قَدَّمْتُ شَيْئًا، أَوْ أَخَّرْتُ شَيْئًا. وَكَانَ يَقُولُ ﷺ - عَلَى إِثْرِ هَذِهِ التَّسْأُولَاتِ -: «لَا حَرَجَ، لَا حَرَجَ، إِلَّا عَلَى رَجُلٍ اقْتَرَضَ عِرْضَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ فَذَلِكَ الَّذِي حَرَجَ وَهَلَكَ»^(٢).

(١) أخرجه البزار رقم (٦١٧٧)، وابن حبان رقم (١٨٨٧)، والطبراني في المعجم الكبير (٤٢٥/١٢) رقم (١٣٥٦٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم (١١١٢).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب المناسك، باب فيمن قدم شيئا قبل شيء في حجه، رقم (٢٠١٥)، من حديث أسامة بن شريك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإن كنت تسأل عن طوافك وسعيك، أو عن رميك الجمار، أو عن شعيرات تساقطت من رأسك، فكان الأولى أن يسأل الحاج عن إيدائه للآخرين.

فأوصيك أيها الحاج بالابتعاد عن الغوغاء، وعن الهمج، الذين يسرون الحج مادة لتنظيماتهم وأحزابهم وانتهااتهم، فتسمع الهتافات السياسية، وتسمع هذه الغوغاء بذلك الصراخ، فاحذر أن تسير مع هذه الموجات التي لا تعرف من دين الله إلا مثل هذه الهتافات، وتلك الأصوات الشاذة.

هذا وصلُّوا وسلِّموا -رحمكم الله- على نبي الهدى والرحمة محمد بن عبد الله، كما أمر الربُّ الكريم في كتابه الكريم قائلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].



(٣٣)

استثمار الأوقات المباركة

•• k ••

جاء في كتاب (الزهد) للبيهقي **رَحْمَةُ اللَّهِ**: قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «كَانَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: إِنَّ هَذَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِزَانَتَانِ، فَاَنْظُرُوا مَا تَضَعُونَ فِيهِمَا»^(١).

فهذه الأيام والليالي ما هي إلا خزائن نضع فيها ما نشاء، يضع فيها المحسن إحساناً، ويضع فيها المسيء إساءةً، فإذا وقف بين يدي الله **عَزَّوَجَلَّ** فُتِحَتْ لَهُ هَذِهِ الْخِزَانَتَانِ، فَوَجَدَ مَا وَضَعَ وَقَدَّمَ، كَمَا قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْقَوُا اللَّهُ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۗ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ١٨-٢٠].

فالعبد يضع في هذه الخزائن ما يضع في هذه الحياة الدنيا؛ فمنَّا المكثر من وضع الحسنات والدرجات العلى في هذه الخزائن، ومنَّا المتصّر في ذلك، والبعيد يضع في هذه الخزائن من السيئات والموبقات ما سيلقاه إذا وقف بين يدي رب البريات.

وقد بين لنا الحقُّ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** أَنَّ مَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَّا إِلَّا وَلَهُ وَجْهَةٌ هُوَ يَخْتَارُهَا،

(١) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٧٨٠).

فقال سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّبُهَا فَاسْتَخِرُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨]، فأمرنا بالمسارعة في فعل الخيرات، فعلى قدر سرعتك وإنجازك واستثمارك لهذه الأوقات تَضَعُ في هذه الخزائن قبل أن تُغَلَقَ بموتك.

لذا قال رسول الله ﷺ: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا**» أي: قبل أن تلهيكم الفتن، وتعرض طريقكم: فتنة الولد، أو فتنة المال، أو فتنة الجاه، أو غيرها من الفتن فتوقفك عن العبادة، «**كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**»^(١).

وفي أيام العشر المباركة العاقل الراشد المستثمر هو الذي يُكثِرُ من الحسنات في هذه الأيام، فإنه قد وُفِّقَ لإدراك هذه الأيام؛ حيث أنها تمر بسرعة.

فالعاقل هو الذي يملأ هذه الخزائن بأعمال الخير في هذه الأيام، كيف لا وقد قال رسول الله ﷺ: «**افْعَلُوا الْخَيْرَ دَهْرَكُمْ**» أي: افعل الخير على كل حال **«وَتَعَرَّضُوا لِنَفْحَاتِ رَحْمَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ لِلَّهِ نَفْحَاتٍ مِنْ رَحْمَتِهِ، يُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ»**^(٢).

فمطلوبٌ منا أن نفعل الخير، وأن نتعرض لبعض النفحات، فأيام العشر نفحاتٌ وستفوت، فهي نفحة ربانية تأتي وتذهب، فاستغلوا ما فيها من الخير، وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله نفحات من رحمته يُصيب بها من يشاء من

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، رقم (١١٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١/ ٢٥٠ رقم ٧٢٠)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عباده.

والعمل الصالح في هذه الأيام أحب إلى الله، وما من عمل أزكى عند الله من العمل الذي يقع في هذه الأيام، دل على ذلك: ما جاء عند أبي داود من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**مَا مِنْ أَيَّامِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ**» يعني: أيام العشر، قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «**وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ**»^(١).

وفي رواية الدارمي قال صلى الله عليه وسلم: «**مَا مِنْ عَمَلٍ أَزْكَى عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَلَا أَعْظَمَ أَجْرًا مِنْ خَيْرٍ يَعْمَلُهُ فِي عَشْرِ الْأَضْحَى**»^(٢).

فأي عمل صالح تقدمه في هذه الأيام فإنك تضع أعمالاً عظيمة في خزانتك. وفي المقابل، أي عمل سيئ يوضع في هذه الأيام يتعاضم وتمتلئ به خزائن السيئات، فالعاقل من يستثمر هذه الأيام عبادة الله.

ولو سأل سائل: ماذا أفدّم في هذه الأيام المباركة من الأعمال؟

فالجواب: كل عمل صالح يخطر ببالك تستطيع أن تفعله فافعله، واجباً كان أو مسنوناً، فانت مأجور، ويتعاضم هذا العمل حتى تمتلئ به خزائنك؛ وعلى سبيل المثال:

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصيام، باب في صوم العشر، رقم (٢٤٣٨)، والترمذي: كتاب الصوم، باب ما جاء في العمل في أيام العشر، رقم (٧٥٧)، وابن ماجه: كتاب الصيام، باب صيام العشر، رقم (١٧٢٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه الدارمي (١٨١٥).

- الصدقاتُ مِنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ؛ فقد جاء عند ابن خزيمة: قال عُمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ذَكَرَ لِي أَنَّ الأَعْمَالَ تَبَاهَى، فَتَقُولُ الصَّدَقَةُ: أَنَا أَفْضَلُكُمْ»^(١). فلا يَفُوتُكَ يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ العَشْرِ إِلَّا وَتَصَدَّقْتَ فِيهِ صَدَقَةً مَحْسُوسَةً أَوْ مَعْنَوِيَّةً عَلَى قَدْرِ طَاقَتِكَ وَوُسْعِكَ.

- لَا تُفَوِّتِ الصَّلَوَاتِ؛ فَإِنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَقَدْ أَعْطَانَا النَّبِيُّ ﷺ هَذِهِ البُشْرَى العَظِيمَةَ، وَهَذِهِ الأَجُورَ الَّتِي إِذَا سَمِعَهَا الإِنْسَانُ ذُهِلَ مِنْ فَضْلِهَا وَعَظَمَتِهَا؛ فَقَالَ: «مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الحَاجِّ المُحْرِمِ، وَمَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى تَسْبِيحِ الضُّحَى لَا يَنْصِبُهُ إِلَّا إِيَّاهُ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ المُعْتَمِرِ، وَصَلَاةٌ عَلَى أَثَرِ صَلَاةٍ لَا لَغْوَ بَيْنَهُمَا كِتَابٌ فِي عِلِّيِّينَ»^(٢).

فَهؤُلاءِ الإِخْوَةُ الَّذِينَ يُصَلُّونَ فِي بُيُوتِهِمْ، أَلَا تَكُونُ هَذِهِ العَشْرُ مُشَجِّعًا وَمُحَفِّزًا لَهُمْ، عِلْمًا أَنَّ الأَجْرَ المَذكُورَ قَبْلَ قَلِيلٍ فِي العَشْرِ وَفِي غَيْرِهَا.

- الذِّكْرُ مِنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ؛ لِمَا قَالَ ﷺ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ العَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ»، قَالَ: «فَأَكْثَرُوا فِيهَا مِنَ التَّسْبِيحِ، وَالتَّحْمِيدِ، وَالتَّهْلِيلِ، وَالتَّكْبِيرِ»^(٣) فَأَكْثَرُ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ مِنَ التَّكْبِيرِ وَالتَّسْبِيحِ، وَالتَّهْلِيلِ، وَالتَّحْمِيدِ، فَإِنَّهَا مِنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ.

(١) أخرجه ابن خزيمة (٢٤٣٣).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب ما جاء في فضل المشي إلى الصلاة، رقم (٥٥٨)، من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٧٥/٢)، وعبد بن حميد (٨٠٧) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١/٨٢ رقم ١١١١٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

- وَمِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ إِنْ كُنْتَ قَادِرًا عَلَى الصِّيَامِ فَعَلَيْكَ
بِالصِّيَامِ.

سواءً صمتَ التَّسْعَةَ الْأَيَّامِ، أَوْ بَعْضَهَا، أَوْ أَغْلَبَهَا، أَوْ شَيْئًا مِنْهَا، فَعَلَيْكَ
بِالصُّومِ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِمَنْ سَأَلَهُ عَنْ عَمَلٍ يَدُلُّهُ إِلَى الْجَنَّةِ قَالَ: «عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ
فَإِنَّهُ لَا عِدْلَ لَهُ»^(١).

بَلْ قَالَ ﷺ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ قَالَ: «مَنْ صَامَ يَوْمًا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَعَدَ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا»^(٢) أَي: سَبْعِينَ سَنَةً، وَفِي رِوَايَةٍ:
«مِئَةَ سَنَةٍ»^(٣) وَفِي رِوَايَةٍ: «جَعَلَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ خَنْدَقًا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ»^(٤).

أَيُّ أَجْرٍ هَذَا فِي صَوْمِ يَوْمٍ وَاحِدٍ؟! فَإِذَا كُنْتَ لَا تَسْتَطِيعُ فَلَا تُفَوِّتْ عَلَى
نَفْسِكَ صِيَامَ يَوْمِ عَرَفَةَ، حَتَّى وَإِنْ وَافَقَ الْجُمُعَةَ، حَتَّى وَإِنْ صُمْتَهُ مُنْفَرِدًا، فَإِنَّكَ لَا
تَصُومُ الْجُمُعَةَ لِلْجُمُعَةِ، وَإِنَّمَا تَصُومُ يَوْمَ عَرَفَةَ، فَصُمْهَا وَإِنْ كُنْتَ تَصُومُ يَوْمًا
مُنْفَرِدًا؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ، إِنِّي أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ

(١) أخرجه النسائي: كتاب الصيام، باب ذكر الاختلاف على محمد بن أبي يعقوب في حديث أبي
أمامة، في فضل الصائم، رقم (٢٢٢٠-٢٢٢٣)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب فضل الصوم في سبيل الله، رقم (٢٨٤٠)، ومسلم: كتاب
الصيام، باب فضل الصيام في سبيل الله لمن يطيقه، رقم (١١٥٣)، من حديث أبي سعيد الخدري
رضي الله عنه.

(٣) أخرجه النسائي: كتاب الصيام، باب ثواب من صام يومًا في سبيل الله عز وجل، رقم (٢٢٥٤)،
من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الترمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الصوم في سبيل الله، رقم
(١٦٢٤)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

الَّتِي قَبْلَهُ، وَالسَّنَّةَ الَّتِي بَعْدَهُ»^(١).

- وَمِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تُقَدَّمُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ: عَمَلٌ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُقَدَّمَ إِلَّا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ، وَهِيَ الْأُضْحِيَّةُ:

أي: التَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِإِرَاقَةِ الدَّمِ فِي يَوْمِ النَحْرِ، فِعْبَادَةُ الْأُضْحِيَّةِ عِبَادَةٌ عَظِيمَةٌ شَرَعَهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَنَا فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ، وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ، فَقَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَضِّلْ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وهذه الشعيرة ليست شعيرة في أمة محمد ﷺ فحسب، بل هي في سائر الأمم، فما من أمة إلا وجاءت هذه القرية فيها؛ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا إِتْرَافًا فَاسْتَكْبَرُوا﴾ [الحج: ٣٤].

فإِنْ كُنْتَ قَادِرًا عَلَى الْأُضْحِيَّةِ فَلَا تُفَوِّتْهَا، فَإِنَّهَا مَشْرُوعَةٌ فِي الْأُمَّمِ السَّابِقَةِ، وَأَفْرَادُ تِلْكَ الْأُمَّمِ كَانُوا يَفْعَلُونَهَا، فَلَا تَتَخَلَّفْ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهَا؛ فَأَنْتَ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

إِنَّ الْأَسْفَافَ يَعْتَرِينَا وَنَحْنُ نَرَى أَرْبَابَ الْأَسْرِ الَّذِينَ يَصْرِفُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي أَشْيَاءَ لَا تَعُودُ عَلَيْهِمُ بِالْفَائِدَةِ، لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، فِي أَيَّامِ الْعِيدِ تَفُوقَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر، رقم (١١٦٢)، من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نفقاتهم ثَمَنَ مَا لَوْ ضَحَّى بِعَشْرِ أَضَاحِيٍّ، لَكِنَّهُ لَا يُضَحِّي، وَهَذِهِ مِنَ الْمَصَائِبِ.
فَقَدْ قَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِينَ يُضَحِّي»^(١).

فَإِنْ كُنْتَ قَادِرًا عَلَى الْأُضْحِيَّةِ فَضَحِّ، وَضَحِّ بِهَا فِي بَلَدِكَ، وَأَخِي هَذِهِ الشَّعِيرَةَ، وَكُلَّ مِنْهَا فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْبَاسِ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٧]، وَقَالَ: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٧].
وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُوا وَادَّخِرُوا وَتَصَدَّقُوا»^(٢).

وَإِنْ كَانَ ذَبْحُهَا خَارِجَ الْبِلَادِ جَائِزًا، لَكِنْ لَا تَدَعِ الْأَفْضَلَ إِلَى مَا هُوَ دُونَهُ.
ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ مَنْ أَرَادَ الْأُضْحِيَّةَ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَجَّهَهُ فِي حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَمَا جَاءَ عِنْدَ مُسْلِمٍ؛ حَيْثُ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمْ هَلَالَ ذِي الْحِجَّةِ، وَأَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يُضَحِّيَ، فَلْيُمْسِكْ عَنِ شَعْرِهِ وَأَظْفَارِهِ»^(٣) وَفِي رِوَايَةٍ: «فَلَا يَمَسَّ مِنْ شَعْرِهِ وَبَشْرِهِ شَيْئًا»^(٤).

فَمَنْ أَرَادَ مِنْهَا الْأُضْحِيَّةَ، وَنَوَى عَلَى الْأُضْحِيَّةِ فَلَا يَأْخُذُ مِنْ شَعْرِهِ وَأَظْفَارِهِ وَبَشْرِهِ شَيْئًا؛ الَّذِي يُضَحِّي فَقَطْ، أَمَّا مَنْ يُضَحِّي عَنْهُ مِنَ الْأَهْلِ وَالْأَقَارِبِ

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الأضاحي، باب الدليل على أن الأضحية سنة، رقم (١٥٠٧).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأضاحي، باب ما يؤكل من لحوم الأضاحي، رقم (٥٥٦٩)، ومسلم: كتاب الأضاحي، باب بيان ما كان من النهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث، رقم (١٩٧٤)، من حديث سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه مسلم: كتاب الأضاحي، باب نهي من دخل عليه عشر ذي الحجة، رقم (٤١/١٩٧٧).
(٤) السابق (٣٩/١٩٧٧).

فالخطابُ لا يعينهم.

اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا فِيهَا مِنَ الْمُتَقَرِّبِينَ إِلَيْكَ،
الْمُتَعَبِّدِينَ لَكَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

هذا وصلُّوا وسلِّموا على نبيِّ الهدى والرحمةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، كما أمرَ
الرَّبُّ الْكَرِيمُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ قَائِلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

•• k ••

K

K

(٣٤)

أعمال إذا أتى بها المسلم رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه

•• k ••

أيها المسلم إن عجزت أن تكون مع الواقفين على صعيد عرفة، فلا تعجز أن تكون من الواقفين عند شرع الله، إن عجزت أن تكون مع الواصلين إلى بيت الله، فلا تعجز أن تكون من الواصلين إلى الله.

فيوم عرفة يومٌ عظيمٌ تعيشه الأمة، يقف فيه الحجيج على صعيد عرفة يأتون بركن الحج الأعظم، الذي قال عنه النبي ﷺ: «الحج عرفة»^(١).

إنه يومٌ أكمل الله فيه الدين، وأتم فيه النعمة، كما جاء في (صحيح البخاري): أن يهودياً قال لعمر الفاروق رضي الله عنه: آية في كتابكم تقرأونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: «أي آية؟» قال: ﴿أَيُّومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، قال عمر رضي الله عنه: «قد عرفنا ذلك اليوم، والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ، وهو قائم بعرفة يوم الجمعة»^(٢).

(١) أخرجه أبو داود: كتاب المناسك، باب من لم يدرك عرفة، رقم (١٩٤٩)، والترمذي: كتاب الحج، باب فيمن أدرك الإمام بجمع، رقم (٨٨٩)، والنسائي: كتاب مناسك الحج، باب فرض الوقوف بعرفة، رقم (٣٠١٦)، وابن ماجه: كتاب المناسك، باب من أتى عرفة قبل الفجر، رقم (٣٠١٥)، من حديث عبد الرحمن بن يعمر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، رقم (٤٥)، ومسلم: كتاب التفسير، رقم (٣٠١٧)، من حديث عمر رضي الله عنه.

وهو يومُ العتقِ مِنَ النَّارِ كما أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ كما جَاءَ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عِنْدَ مُسْلِمٍ: «مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتَقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ، مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ»^(١).

وهو اليومُ المشهودُ، الذي قَالَ اللهُ فِيهِ: ﴿وَأَلْتَمَاءَ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١﴾ وَأَيُّومِ الْمَوْعُودِ ۝٢ ﴿شَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ١-٣].

وقد جَاءَ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ فِي (سَنَنِهِ) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَالْيَوْمُ الْمَشْهُودُ: يَوْمُ عَرَفَةَ، وَالشَّاهِدُ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ»^(٢)؛ وَقَدْ جَمَعَ اللهُ لَنَا فِي هَذَا الْيَوْمِ شَاهِدًا وَمَشْهُودًا، لِنَتَذَكَّرَ بِهِ الْيَوْمَ الْمَوْعُودَ.

وَيَوْمُ عَرَفَةَ يَوْمٌ عَظِيمٌ، يُقِيمُ فِيهِ الْحُجَّاجُ هَذَا الرِّكْنَ الرِّكِينَ، حَتَّى يَفُوزُوا بِذَلِكَ الْأَجْرِ الْعَظِيمِ، الَّذِي قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ؛ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»^(٣).

فإن سأل سائل: هل هناك أعمال إذا عملها الإنسان في غير الحج نال هذا الأجر العظيم؟

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة، ويوم عرفة، رقم (١٣٤٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب التفسير، باب ومن سورة البروج، رقم (٣٣٣٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، رقم (١٥٢١)، ومسلم: كتاب الحج، باب فضل الحج والعمرة، رقم (١٣٥٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالجواب: نعم، والذي أخبرنا بذلك هو رسول الله ﷺ، فكما أنه أخبرنا أن: «مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» أخبرنا أيضاً أن هناك أعمالاً إذا أتى بها المسلم رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه من الخطايا.

العمل الأول: بين رسول الله ﷺ أن انتظارك الصلاة بعد الصلاة في المسجد، ومشيك على الأقدام إلى الجماعات في المسجد، وإتقانك الوضوء؛ كل ذلك ثمرته وأجره أن تعود من ذنوبك كيوم ولدتك أمك من الخطايا.

فقد جاء ذلك في (مسند أحمد) من حديث ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَانِي رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، هَلْ تَدْرِي فِيْمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟» يعني: الملائكة «قُلْتُ: نَعَمْ فِي الْكُفَّارَاتِ. وَالْكَفَّارَاتُ: الْمَكْتُ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، وَالْمَشْيِ عَلَى الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ، وَإِسْبَاحُ الْوُضُوءِ فِي الْمَكَارِهِ، وَمَنْ فَعَلَ هَذَا عَاشَ بِخَيْرٍ، وَمَاتَ بِخَيْرٍ، وَكَانَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»^(١).

العمل الثاني: الخشوع في الصلاة؛ فقد جاء عند الحاكم في (مستدرکه) من حديث عقبة بن عامر الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيَسْبُغُ الْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُومُ فِي صَلَاتِهِ فَيَعْلَمُ مَا يَقُولُ؛ إِلَّا انْفَتَلَ» أي: خرج «كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْخَطَايَا، لَيْسَ عَلَيْهِ ذَنْبٌ»^(٢).

العمل الثالث: وهو يتعلق بالصلاة أيضاً، فقد جاء في حديث عبد الله بن

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ص، رقم (٣٢٣٣)، وأحمد (١/٣٦٨) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/٣٩٨-٣٩٩) من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند ابن ماجه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَمَّا فَرَعَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ بِنَاءِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، سَأَلَ اللَّهَ ثَلَاثًا: حُكْمًا يُصَادِفُ حُكْمَهُ، وَمُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَلَّا يَأْتِيَ هَذَا الْمَسْجِدَ» أي: المسجد الأقصى «أَحَدٌ لَا يَرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ فِيهِ، إِلَّا خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»^(١).

العمل الرابع: وهو سهلٌ ويسيرٌ على مَنْ فَتَحَ اللَّهُ بَصِيرَتَهُ، وَرَغَبَهُ فِي الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ، فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنِّي إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنًا» أَيَّ نَوْعٍ مِنَ الْبَلَاءِ «فَحَمَدَنِي عَلَى مَا ابْتَلَيْتُهُ» أَي: قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ. رَضًا بِمَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ وَكَتَبَ عَلَيْهِ «فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْخَطَايَا»^(٢).

العمل الخامس: وهو أيسرٌ ممَّا سَبَقَ، يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ إِلَّا خَرَجَ مِنْ خَطَايَاهُ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»^(٣) وَكُلُّنَا يَحْصُلُ لَهُ ذَلِكَ، لَكِنْ بَعْضُ النَّاسِ يَتَنَاوَلُ هَاتِفَهُ يَقْرَأُ مَا فِيهِ مِنَ الرِّسَائِلِ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ شَيْئًا لَا يَنْفَعُ.

هذه أجورٌ تشبه أجرَ الحاجِّ، وهناك أعمالٌ من أتى بها نالَ أجرَ الحاجِّ أيضًا، وقد سمَّاها النبيُّ ﷺ بالاسم: مَنْ عَمِلَ كَذَا فَلَهُ أَجْرٌ حَجَّةٍ كَامِلَةٍ، مِنْ هَذِهِ

- (١) أخرجه ابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الصلاة في مسجد بيت المقدس، رقم (١٤٠٨)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
- (٢) أخرجه أحمد (١٢٣/٤) من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
- (٣) أخرجه الطبراني في الدعاء (٧٦٣) من حديث عبادة بن الصامت، وأصله في البخاري: كتاب التهجد، باب فضل من تعار من الليل، رقم (١١٥٤) باختلاف في اللفظ.

الأعمال:

أولاً: ما جاء عند أبي داود من حديث أبي أمامة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهَّرًا إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْحَاجِّ الْمُحْرِمِ». أي: تَوَضَّأَ فِي الْبَيْتِ وَخَرَجَ يَصَلِّي صَلَاةً مَكْتُوبَةً «وَمَنْ خَرَجَ إِلَى تَسْبِيحِ الضُّحَى» أي: إِلَى صَلَاةِ الضُّحَى «لَا يَنْصِبُهُ إِلَّا إِيَّاهُ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْمُعْتَمِرِ، وَصَلَاةٌ عَلَى أَثَرِ صَلَاةٍ لَا لَعْوَ بَيْنَهُمَا كِتَابٌ فِي عَلَيٍّ»^(١).

ثانياً: ما جاء في حديث أبي أمامة رضي الله عنه أيضاً عند الطبراني في (معجمه الكبير): قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ لَا يُرِيدُ إِلَّا أَنْ يَتَعَلَّمَ خَيْرًا أَوْ يُعَلِّمَهُ، كَانَ لَهُ كَأَجْرِ حَاجٍّ تَامًّا حَجَّتُهُ»^(٢). فأمة الإسلام اليوم إذا أرادت الخير لا تخرج من المسجد، ولتجعل منهجها وشريعته مرتبطة بهذا البيت العظيم، الذي هو أحب البقاع إلى الله.

ثالثاً: ما جاء في حديث أنس رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ صَلَّى الْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ، ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللَّهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ كَانَتْ لَهُ كَأَجْرُ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ»^(٣).

رابعاً: ما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنه عند ابن حبان: أن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب ما جاء في فضل المشي إلى الصلاة، رقم (٥٥٨)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٩٤ رقم ٧٤٧٣).

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب ما يستحب من الجلوس في المسجد بعد صلاة الصبح، رقم (٥٨٦)، من حديث أنس رضي الله عنه.

قالَ لأمِّ سليمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فَاعْتَمِرِي؛ فَإِنَّ عُمْرَةً فِي رَمَضَانَ تَعْدِلُ حَجَّةً مَعِي»^(١).

إنها أجورٌ تأتي في وجهِ هذا الذي لا يعرفُ إلا الأمانِيَّ أن يكون مع الحجاجِ لِينالَ أجرَهُم، فيقالُ له: صلِّ في المسجدِ تنلُ أجرَ الحاجِّ، واخرُجْ من بيتك إلى مسجدٍ لتتعلمَ علماً تنلُ أجرَ الحاجِّ، إنها أجورٌ بين يديك لكنَّها تبحثُ عن المشمِّرين.

وَأَسْأَلُ الْمَوْلَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَني وَإِيَّاكُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ.

ثُمَّ صَلُّوا وَسَلِّمُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ- عَلَى نَبِيِّ الْهُدَى وَالرَّحْمَةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ الْكَرِيمُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ قَائِلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

•• k ••

(١) أخرجه البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب حج النساء، رقم (١٨٦٣)، ومسلم: كتاب الحج، باب فضل العمرة في رمضان، رقم (١٢٥٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: لما رجع النبي ﷺ من حجته قال لأم سنان الأنصارية... فذكره.



(٣٥)

مزايا أمة الإسلام

•• k ••

في تلك الأجواء المباركة من أيام الحج، وفي تلك النفحات الربانية نستذكر إخواننا الذين يأتون بتلك المشاعر العظيمة، في تلك البقاع الطاهرة، ليقولوا للعالم أجمع: هذه هي أمة محمد ﷺ، يجتمع بها المكان، ويجتمع لها الهدف، وليقولوا للعالم أجمع: هذه الأمة هكذا ينبغي أن تكون أمة متماسكة واحدة، في عبادتها، وفي اجتماعها، وفي اجتماع كلمتها.

بيد أن الناظر إلى أمة الإسلام اليوم، والمتأمل في حالها يرى حالة الضعف والهوان، والاختصاص والاحتراب فيما بينها، مما شجع الآلة الغربية الإعلامية أن تصوّر هذه الأمة أنها تتجه إلى زوال، وأنها تتجه إلى اضمحلال، ويردّد مثل هذا الكلام كثير من أبناء الأمة.

إن الله تبارك وتعالى ميّز أمة محمد ﷺ بمزايا، فرفع رأسك أنك من أتباع النبي ﷺ، وليشرب عنقك أنك من أمة الإسلام، وقرأ ما جاء في فضل هذه الأمة المباركة حتى تعلم أنها لن تموت إلى قيام الساعة.

فقد بين النبي ﷺ أن هذه الأمة هي خير الأمم، كما قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال رسول الله ﷺ في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أُعْطِيَتْ مَا لَمْ

يُعْطَى أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ» قالوا: ما هو يا رسول؟ قال: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُعْطِيَتْ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ، وَسُمِّيَتْ أَحْمَدَ، وَجُعِلَ التُّرَابُ لِي طَهُورًا، وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الْأُمَّمِ»^(١).

فقد ميَّزَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هذه الأمة بأن جعلها لا يمكن أن تجتمع على ضلالة، فإذا رأيت الأمة بأسرها قد اجتمعت فاعلم أنها تجتمع على خيرٍ وهدى؛ لأنَّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَجَارَ أُمَّتِي أَنْ تَجْتَمَعَ عَلَى ضَلَالَةٍ»^(٢).

وميَّزَها اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنَّها لا تُستأصلُ كما استُئصلتِ الأممُ السابقةُ:

فقد حصلَ استئصالُ في الأممِ السابقةِ بريحِ أخذتِ القومَ كلَّهم، أو بصيحةٍ، أو بصعقةٍ، أو بغرقٍ، أو بغيرِ ذلك كما بيَّنَ ربُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كتابه الكريم، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ميَّزَ أمةَ محمدٍ ﷺ أنها لا تُستأصلُ، قال ﷺ: «سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ، وَمَنْعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي أَلَّا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ» أي: بالقطرِ، «سَأَلْتُ رَبِّي أَلَّا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يُجْعَلَ بِأَسْهُمِ بَيْنَهُمْ، فَمَنْعَنِيهَا»^(٣) وهذا هو الحاصلُ.

قال جابرٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الآياتِ من سورة الأنعام: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال رسولُ اللهِ: «أَعُوذُ

(١) أخرجه أحمد (١/٩٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه: كتاب الفتن، باب السواد الأعظم، رقم (٣٩٥٠)، وابن أبي عاصم في السنة رقم (٨٣) واللفظ له، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الفتن، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، رقم (٢٨٩٠) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

بِوَجْهِكَ» قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ» قَالَ: ﴿أَوْ يَلْسِكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَيْرَ مَتَعَوِّذٍ قَالَ: «هَذَا أَهْوَنُ» أَوْ: «هَذَا أَيْسَرُ»^(١).

كذلك ميّزها الله بأن جعل مصائبها في الدنيا تطهيراً لها من المعايب:

فَقَدْ قَالَ ﷺ: «أُمَّتِي هَذِهِ أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ، لَيْسَ عَلَيْهَا عَذَابٌ فِي الْآخِرَةِ، عَذَابُهَا فِي الدُّنْيَا الْفِتْنُ، وَالزَّلَازِلُ، وَالْقَتْلُ»^(٢).

كذلك ميّزها الله بأن جعلها تمرّض وتضعف، لكنّها لا تموت، إلى قيام الساعة، فقد يعترى هذه الأمة الضعف والمرض، لكنّها لا تموت إلى أن تقوم الساعة، قال رسول الله ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٣).

فلو كانت هذه الأمة ليموتت لما تمّت حينها حُوصِرَ رسول الله ﷺ في شعب أبي طالب ثلاث سنوات^(٤)، لا يجد ما يأكل هو ومن معه، يحفر أحدهم الأرض فيجد قطعة جلد خشن علاه التراب فينظفه ويأكله^(٥)، ومع ذلك لما فرغ من

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، رقم (٤٦٢٨) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الفتن والملاحم، باب ما يرجى في القتل، رقم (٤٢٧٨) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٦) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (١/٣٥٠-٣٥١)، والبداية والنهاية (٤/٢٤٢).

(٥) أخرج ابن أبي الدنيا في الجوع رقم (٦١) عن محمد بن سيرين قال: «إن كان الرجل من أصحاب النبي ﷺ يأتي عليه ثلاثة أيام لا يجد شيئاً يأكله، فيأخذ الجلدة فيشويها فيأكلها...».

الحصار اشتدت عزيمة هذه الأمة وقويت.

ولو كانت هذه الأمة لتموت لماتت حينما حوَّصر النبي ﷺ في بيته من قبل المشركين، لكنه خرج من بين أيديهم وعلى مرأى منهم^(١)، فاشتدت شوكة هذه الأمة بخروجه.

ولو كانت هذه الأمة لتموت لماتت حينما حوَّصر النبي ﷺ وصاحبه في الغار، ولكنها خرجا فاشتدت شوكة هذه الأمة.

ولو كانت هذه الأمة لتموت لماتت بعد غزوة أحد والنبي ﷺ يرى مصرع أصحابه أمامه يتساقطون الواحد تلو الآخر، سبعون صحابياً يموتون بين يدي النبي ﷺ، يدمى وجهه الشريف، وتكسر ربايعيته^(٢)، ثم تنتهي غزوة أحد، فتعلو هذه الأمة ويشتدُّ ساعدها.

ولو كانت هذه الأمة لتموت لماتت حينما مات رسول الله ﷺ، وارتدَّ العرب، ولكنها قويت بعد ذلك، واشتدَّ عودها.

ولو كانت هذه الأمة لتموت لماتت حينما اجتاحت التتار بلاد المسلمين، ودخلوا بغداد فقتلوا في أربعين يوماً أكثر من مليون مسلم، لكنها اشتدت قوتها بعد ذلك.

والسبب أن الله تبارك وتعالى قد ميز هذه الأمة أنها لا تموت.

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤٨٢-٤٨٣).

(٢) أخرجه البخاري: الجهاد، باب المجن، رقم (٢٩٠٣)، ومسلم: كتاب الجهاد، باب غزوة أحد، رقم (١٧٩٠)، من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِئَةٍ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»^(١).

كذلك ميز الله هذه الأمة في الآخرة فجعل لها السبق في كل شيء حتى في مساحة الجنة، فقد قال ﷺ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِئَةٌ صَفٌّ، تَمَانُونَ مِنْهَا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَرْبَعُونَ لِسَائِرِ الْأُمَمِ»^(٢).

هكذا ميز الله هذه الأمة، فافرح أنك من أمة محمد ﷺ، وليرتفع رأسك، ولتعلم أن هذه الأمة لن تموت بإذن الله، ولن تضعف إذا كان فيها رجالٌ يُعيدون لها مجدها وقوتها وسؤددتها، وسيعود لهذه الأمة سؤددتها وستأخذ الريادة، لكن هذا لن يكون بالكلام، ولن يكون بالحطِّب، ولن يكون بالمقالات، وإنما يكون بالفعل الصادق، ولا يكون ذلك إلا بثلاثة أركانٍ متى ما توفرت عاداً للأمة مجدها، وهي:

١ - لن تعود لهذه الأمة عزُّها إلا إذا عادت إلى خالقها:

قال رسول الله ﷺ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيْتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»^(٣).

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المئة، رقم (٤٢٩١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة أهل الجنة، رقم (٢٥٤٦)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ، رقم (٤٢٨٩)، من حديث بريدة بن الحصيب الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب البيوع، باب في النهي عن العينة، رقم (٣٤٦٢) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فلن يعودَ لهذه الأمةِ سُودُهَا إِلَّا إذا رجعتَ إلى دينها قولاً وعملاً، رجعةً
جماعيةً منَ الكبيرِ والصغيرِ، ومنَ الحاكمِ والمحكومِ، ومنَ الرئيسِ والمرؤوسِ،
الجميعُ يعودون إلى الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**، وتُرى بالعينِ تلكَ الرجعةُ والعودةُ.

٢- إذا اعتزَّ المسلمُ بهويته، ولم يخجلْ أَنَّهُ مسلمٌ، ورفعَ رأسه في المحافلِ
يطبِّقُ دينَ الله، لا يخجلُ منَ نظره هؤلَاءِ، أو تعليقه أولئك.

فقد قالَ عمرُ **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**: «إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللهُ بِالإِسْلَامِ، فَمَهْمَا نَطْلُبُ
العزةَ في غيرِ ما أعزَّنَا اللهُ به أذلَّنَا اللهُ»^(١).

فإذا أَرَدْنَا العزةَ والسُودَ والتمكينَ في الأرضِ، وعودةَ هذه الأمةِ إلى ركبِ
الحقِّ، فلا بُدَّ أن تفتخرَ بهويتها.

٣- ثالثُ هذه الأركانِ: أن تُنظفَ المُجتمعاتُ منَ الفسادِ والظلمِ، ويحلَّ
محلَّ ذلكَ العدلُ في كلِّ شيءٍ، فقد قالَ رسولُ الله **ﷺ**، قال: «**إِنَّ اللهَ لَا يُقَدِّسُ أُمَّةً
لَا يَأْخُذُ الضَّعِيفُ حَقَّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَعَتِّعٍ**»^(٢).

وقد كتبَ أحدُ أمراءِ حمصَ إلى الخليفةِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ **رَحِمَهُ اللهُ** يقولُ له:
«إِنَّ أسوارَ حمصَ تهدمت، وطرقها تحزَّبت، فابعثْ إليَّ بِإِصْلَاحِ الأسوارِ
والطرقِ، فكتبَ له عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: «**حَصَّنْهَا بِالْعَدْلِ، وَنَقِّ طُرُقَاتِهَا مِنَ
الْجَوْرِ**»^(٣)؛ وهكذا يعودُ العزُّ للأمةِ.

(١) أخرجه الحاكم (١/٦١).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/٢٥٦).

(٣) حلية الأولياء (٥/٣٠٥).

هذا وصلُّوا وسلِّموا -رحمكم اللهُ- على نبيِّ الهدى والرحمة محمد بن عبدِ
الله، كما أمرَ الحقُّ تبارك وتعالى في كتابه الكريم قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى
النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

•• k ••



(٣٦)

رسالة إلى مسوف

•• k ••

تتسربُ الأيامُ وتنقضي الليالي، وتذهبُ أزمنةُ فاضلةً، وتأتي بعدها أزمنةُ فاضلةً، ويتكررُ الخيرُ ويتتابعُ، والموفقُ هو مَنْ استفادَ من هذا الخيرِ الذي يتتابعُ، والراشدُ هو الذي يستفيدُ من هذه الأيامِ المباركةِ، فاستفادَ منها مَنْ استفادَ من الراشدين، وفوتَ على نفسه ذاكَ المسوفُ المتردُّ القائلُ: سأعملُ بعدَ حينٍ.

وقد جاءَ رمضانُ، ثم جاءَ بعده أشهرُ الحجِّ، ثم جاءتَ بعده عشرُ ذي الحجةِ، ثم جاءَ بعدَ ذلكَ موسمُ الحجِّ، ربحَ فيه الرابحونَ، وخسرَ هنالكَ المسوفونَ الذين يقولونَ: سوفَ نفعلُ، وسوفَ نفعلُ، وسوفَ نفعلُ، فلا يزالونَ عندَ: سوفَ، المسيطرةِ عليهم، فما قدّموا شيئاً، بل تأخروا كثيراً.

والأيامُ والسنونَ والشهورُ تتصرّمُ كما قال ابنُ القيمِ **رَحِمَهُ اللهُ** قال: «السنةُ شجرةٌ، والشهورُ فروعُها، والأيامُ أغصانُها، والساعاتُ أوراقُها، والأنفاسُ ثمرُها، فمَنْ كانتَ أنفاسُه في طاعةٍ؛ فثمره شجرته طيبةً، ومَنْ كانتَ في معصيةٍ؛ فثمرته حنظلٌ، وإنّما يكونُ الجدادُ يومَ المعادِ، فعندَ الجدادِ يتبيّنُ حلُّ الشارِ من مرّها»^(١).

إن «سوفَ» ذاكَ الجنديُّ الذي يرسله الشيطانُ، وهو أقوى جنودِ الشيطانِ

(١) الفوائد (ص: ١٦٤).

كما قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه (صيد الخاطر) حيث قال: «إيّاك وسوف، فإنّه أكبر جنود إبليس»^(١).

لذا أوجه هذه الرسالة إلى المسوف، وأبعث فيها صادق حرصي وشفقتي عليك وأنا أرى الأيام تتابع وتتصرّم، وأنت لا تزال في مكانك، تعيش بين الأمانى والمنى، إن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَمَّ المسوفين الذين ألهاهم الأمل؛ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُهُمُ الْأَمْلُ فَسَوْفَ يَعْمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

إنّها قاصمة الظهر، إنّها الطامة الكبرى، تصوّر لو قال لك مخلوق: ستري، أو سوف تعلم! فكيف إذا قال الخالق سبحانه: ﴿ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُهُمُ الْأَمْلُ فَسَوْفَ يَعْمُونَ﴾.

ثم بين لنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى ما الذي سنعلمه فقال: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾^(٢٢) وَجَاءَ يَوْمِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَاقْنُ لَهُ الذِّكْرَى^(٢٣) يَقُولُ بَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢١-٢٤] حينما يفوته العمر سوف يعلم، يقول: يا ليتني قدّمت لهذا الموقف، يا ليتني قدّمت لهذه الساعة، ليتني قدّمت لهذه الحياة الحقيقية، وما عشت في دائرة الأمانى.

قال الحسن رَحِمَهُ اللهُ: «إنّ الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني، وإنّما الإيمان ما قرّ في القلب وصدّقه العمل»^(٢) فهذا الذي ينفع صاحبه، ليست أمانى: سوف أعمل، وسوف أبدل، وسوف أجتهد، وسوف، وسوف.

(١) صيد الخاطر (ص: ٢٠٦).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (١٤٨٣).

وقد يتذرعُ بعضُ الناسِ أَنَّهُ مشغولٌ، فأقولُ له: ليستِ العِبرةُ أن تكونَ مشغولاً، وإنما العِبرةُ في أيِّ شيءٍ أنتَ مشغولٌ.

واعلمَ أنَّ الفُرصَ إذا فاتتْ ماتتْ، وتدبَّر قولَ رسولِ الله ﷺ وهو يبيِّنُ لك أصلَ هذه القاعدةِ، حيث قال: «اغتنمِ خمساً قبلَ خمسٍ: شبَابَكَ قبلَ هَرَمِكَ، وصِحَّتَكَ قبلَ سَقَمِكَ، وغِنَاكَ قبلَ فُقْرِكَ، وفَرَاغَكَ قبلَ شُغْلِكَ، وحَيَاتَكَ قبلَ مَوْتِكَ»^(١).

أي: إذا لم تغتنمِ هذه الخمسَ؛ أدركتكَ هذه الخمسُ: إذا لم تدركِ شبَابَكَ؛ أدرككِ الهرمُ، وإذا لم تدركِ الصحةَ؛ أدرككِ السقمُ، وإذا لم تدركِ ساعاتِ الفراغِ؛ أدرككِ شُغْلَكَ، وأهنتكِ تلكَ الأشغالُ، وإذا لم تغتنمِ غِنَاكَ؛ هجمَ عليكِ فقْرُكَ، وإذا لم تغتنمِ في الجملةِ حياتكِ؛ هجمَ عليكِ هادمُ اللذاتِ.

وهناك أربعة أسبابٍ تجعلُ منَ الإنسانِ مسوِّفاً، متردِّداً، تجري على لسانِهِ كلمة «سوف». وهي:

السببُ الأوَّلُ: التنشئةُ في أسرةٍ مسوِّفةٍ:

فحينما يعيشُ الإنسانُ في أسرةٍ تعيشُ على التسويةِ، يرى أخاه الأكبرَ، ووالدهُ، وجدَّهُ من طائفةِ المسوِّفينَ، جاءَ رمضانُ فلم يَصُوموا معَ من صامَ، وجاءَ موعدُ الزكاةِ فلم يؤدُّوا زكاةَ مالِهِم، ويؤدُّنُ المؤدَّنُ في اليومِ خمسَ مرَّاتٍ فلا يخرجونَ إلى المسجدِ، وجاءَهُ الحجُّ فلم ترهُ معَ الحجَّيجِ، يقولونَ: إن شاءَ اللهُ غداً، إن شاءَ اللهُ نفعُ، وفي الغدِ نفعُ، والسنةُ القادمةُ إن شاءَ اللهُ نصومُ، والسنةُ

(١) أخرجه النسائي في الكبرى رقم (١١٨٣٢) من حديث عمرو بن ميمون مرسلًا.

القادمة إن شاء الله نحج. وهكذا يعيشون مع «سوف»، كما قال الأول:

مَشَى الطَاوُسُ يَوْمًا بِاخْتِيَالٍ فَقَلَّدَ شَكْلَ مِشِيَّتِهِ بَنَوُهُ
فَقَالَ: عَلَامَ تَخْتَالُونَ؟ قَالُوا: بَدَأَتْ بِهِ وَنَحْنُ مَقْلُدُوهُ
فَخَالَفَ سِيرَكَ الْمَعُوجَّ وَاعْدِلْ فَإِنَّكَ إِنْ عَدَلْتَ مَعَدَّلُوهُ
أَمَا تَدْرِي أَبَانَا، كُلُّ فِرْعٍ يُجَارِي بِالْخَطَى مَنَ أَدَّبُوهُ
وَيَنْشَأُ نَاشِئُ الْفِتْيَانِ مِنَّا عَلَى مَا كَانَ عَوْدَهُ أَبُوهُ

قال عبد الله بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: دَعَنِي أُمِّي يَوْمًا وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَاعِدٌ بَيْنَنَا، فَقَالَتْ: تَعَالَ أُعْطِكَ. وَقَبَضَتْ عَلَى يَدِهَا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا أَرَدْتَ أَنْ تُعْطِيَهُ؟» قَالَتْ لَهُ: أُعْطِيَهُ تَمْرًا، قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تُعْطِيَهُ كُتِبَتْ عَلَيْكَ كِذْبَةٌ»^(١) إِلَى هَذَا الْحَدِّ، فَيَنْشَأُ هَذَا الْإِنْسَانُ فِي أَسْرَةٍ مَسُوفَةٍ فَيَكُونُ مَعَ الْمَسُوفِينَ، وَيَعِيشُ عَلَى التَّسْوِيفِ، وَعَلَى طَوْلِ الْأَمَلِ كَمَا سَيَأْتِي.

السبب الثاني: مصاحبة المسوفين:

فلا تقل: أنا أصاحبُ فلانًا وهو لا يصلي ولن يؤثر عليّ، أو هو يشرب الخمر ولن يؤثر عليّ، فمصاحبة البطالين الكسالى المسوفين تؤثر عليك جزمًا؛ لأن رسول الله ﷺ قال -كما جاء في حديث أبي هريرة عند أبي داود-: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَن يُجَالِلُ»^(٢).

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في التشديد في الكذب، رقم (٤٩٩١)، من حديث عبد الله بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، رقم (٤٨٣٣)، من حديث أبي هريرة

فإذا كان صاحبك لا يصلي، وقلت له: يا فلان لم لم تصل؟ قال: اليوم أنا لم أصل العصر والمغرب، سوف أبتدئ من غد، لأنه لا يصح أن أصلي العشاء وأنا لم أصل المغرب ولا العصر، ثم يأتي الغد فلا يصلي، ويأتي بعد غد فلا يصلي، إذا رأيت هذا الإنسان على هذه الحال فلا تصاحبه؛ فإن النبي ﷺ يقول: «**لَا تُصَاحِبُ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلُ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيًّا**»^(١).

قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢):

فَلَا تُصَحِّبْ أَخَا الْجَهْلِ فَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ

فَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أَرَدَى حَلِيمًا حِينَ آخَاهُ

يُقَاسُ الْمَرْءُ بِالْمَرْءِ إِذَا مَا هُوَ مَا شَاءُ

السبب الثالث: عدم ترويض النفس على معانقة القمم:

فالذي لا يروض نفسه على معانقة القمم يعيش وسط الحفر في الدون، فلا بد أن تروض هذه النفس على معانقة القمم، فمن لم يروض نفسه على معانقة القمم أخذت نفسه بعنقه إلى القاع، وتدبر قول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَعَالِي الْأُمُورِ وَأَشْرَافَهَا، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا**»^(٣).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، رقم (٤٨٣٢)، والترمذي: كتاب

الزهد، ما جاء في صحبة المؤمن، رقم (٢٣٩٥)، من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ديوان علي بن أبي طالب (ص: ١٧٩).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣/ ١٤٢ رقم ٢٨٩٤) من حديث الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فلا تسوّف عملاً يجبُ عليك الآن؛ فإنَّ كلَّ عملٍ سوّفته يثقلُ عليك،
أرأيتَ هذا الذي يؤخّرُ الصلاة، كم هي ثقيلةٌ عليه! وكم هي خفيفةٌ إذا صلّاها في
المسجدِ مع الجماعة!

أرأيتَ هذا الذي يسوّفُ في هذا الأمرِ وفي ذاك الأمرِ، صدّق مَنْ قال:

وَمَنْ يَتَهَيَّبُ صَعُودَ الْجِبَالِ يَعِشُ أَبَدَ الدَّهْرِ بَيْنَ الْحَفْرِ
وَصَدَقَ مَنْ قَالَ (١):

على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ وتأتي على قدرِ الكريمةِ الكرائمُ
ويكبرُ في عينِ الصغيرِ صغارُها وتصغرُ في عينِ العظيمِ العظائمُ

السببُ الرابعُ، وهو من الأسبابِ الرئيسةِ في الإصابةِ بداءِ التسويفِ: طولُ
الأملِ.

هذا الإنسانُ الذي يقولُ: ما زالَ الناسُ. ولم العجلةُ؟ والأمرُ قريبٌ. وقريباً
إن شاء الله نصلي، وقريباً نصوم، وقريباً سنحجُّ.

قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكم: اتِّباعُ الهوى
وطولُ الأملِ، فأما اتِّباعُ الهوى فإنه يصدُّ عن الحقِّ، وأما طولُ الأملِ فيُنسي
الآخرةَ» (٢).

وقد كتبَ أحدُ الصالحينِ إلى أخيه يقولُ: «إيَّاك يا أخي وتأميرَ التسويفِ

(١) ديوان المتنبي (ص: ٣٨٥).

(٢) حلية الأولياء (١/٧٦).

على نفسك، وإمكانه من قلبك، فبادر يا أخي قبل أن يبادر بك، وأسرع فإنه
مُسرعُ بك، وجدَّ فإنَّ الأمرَ جدُّ، وتيقَّظْ من رقدتِكَ، وانتبه من غفلتِكَ»^(١).

ولا أرى حالَ المسوِّفِ إلَّا في حالٍ ما صورَّه أحدُ شعراءِ النبطِ حينما قال
على لسانِ المسوِّفِ:

يا كُثر ما قلت: باسوِّي وباسوِّي ولا شيءٍ من الِّي قلت: باسوِّيهِ، سوِّيته
راحتُ حياتي وأنا اطري وأنا أنوي واليِّ بغيته نسيته يوم خلَّيته
أحسبني صغير وبالعمر توِّي لا شك شيبت وأحلى العُمر عدِّيته

هذا وصلُّوا وسلِّموا -رحمكم اللهُ- على نبيِّ الهدى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ
الله، كما أمرَ الربُّ الكريمُ في كتابه الكريمِ قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى
النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

• • k • •

(١) اقتضاء العلم العمل (٢٠١).



(٣٧)

محطات على طريق العز

•• k ••

النفْسُ البشريَّةُ مفطورةٌ على حبِّ العزِّ والتمكينِ والاستخلافِ في الأرضِ،
فما مِنَّا من أحدٍ إلا وتتوقُّ نفسه إلى العزِّ، والمكانةِ الرفيعةِ، فتتخذُ هذه الأنفُسُ
سُبُلًا وطُرُقًا في سبيلِ تحقيقِ ما يعودُ عليها بالعزِّ والتمكينِ والاستخلافِ، وغالبُ
هذه الأنفُسِ تخطئُ الطريقَ -إلا من رَحِمَ اللهُ- فتراها تسلكُ سُبُلًا مُلتويةً، وطرقًا
مُعوجَّةً.

فعلى سبيلِ المثالِ: ترى مَنْ يرتمي في أحضانِ الكفارِ والمنافقين، يبتغي
عندهم العزةَ، وهذا سبيلٌ معوجٌّ لا يوصلُ إلى العِزَّةِ، وقد بيَّنَ المولى **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** لنا
هذا السبيلَ ونهايته المأسوفةَ فقال: **﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ
الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُّونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾** [النساء: ١٣٩].

وسوف نبيِّنُ السبيلَ الذي يوصلُ إلى العِزَّةِ والتمكينِ، وهي محطاتٌ، من مرَّ
بها نالَ العِزَّةَ والتمكينَ، اختصرها لنا أبو بكرٍ السُّبُلِيُّ **رَحِمَهُ اللهُ**، وكنتُ أقولُ في
نفسي وأنا أقرأُ عبارته: لو اكتفينا بهذه الجُملةِ لكفى. فإنه قال: «مَنْ اعتزَّ بذي العِزِّ
فدو العِزُّ له عزٌّ»^(١) أي: مَنْ تعلق بهذه الأستارِ القويةِ فإنه ينالُ العِزَّ.

فاجعلها لك جملةً ومنهاجًا، وليغرِّدْ بذلك المغرِّدون، وليجعلوا هذا ديدنًا

(١) حلية الأولياء (١٠ / ٣٧٤).

لهم ودعوة، أن لا عزَّ لنا إلا بالله، ونحنُ نقرأ ذلك في سورة آل عمران: ﴿قُلْ
 اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ
 مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

ولكنْ نفضِّل ما قاله أبو بكرٍ السَّيْلِيُّ، ونبينُ هذه المحطات التي من أخذ بها
 نال العزَّ، سواءً كنتَ فرداً، أو جماعةً، وإذا تخلَّلت الجماعةُ عن أخذها بهذه السبلِ
 فخذها أنتَ أيها الفردُ تنل العزَّ، وهي ستُّ محطاتٍ:

المحطة الأولى: الإيمان بالله المقرون بالعمل الصالح.

فوالله إنَّ الذي لا يؤمنُ بالله لا ينال العزَّة، والذي لا يقرنُ هذا الإيمانُ
 بالعملِ الصالحِ لا يمكنُ أن ينال العزَّة، فقد قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ
 فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ^١ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ
 السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْوَرُ﴾ [فاطر: ١٠].

وقال إبراهيمُ الخواصُّ رَحِمَهُ اللهُ: «على قدرِ إعزازِ المؤمنِ لأمرِ الله يُلبسه اللهُ
 من عزِّه، و يقيمُ له العزَّ في قلوبِ المؤمنين» فذلك قوله: ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ
 وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]^(١) أي: هي نسبٌ متفاوتةٌ،
 وتنال على إثر هذه النسبِ درجةٌ في العزِّ والتمكين، يراه المؤمنون فيعزونه بما
 أوجد اللهُ له من العزِّ في قلوبهم.

وقد رأى الحسنُ البصريُّ رَحِمَهُ اللهُ بعضَ المغرورين المتكبرين السُّدَجِ وهم
 يَحْتالون على جياذهم فقال كلمته الشهيرة، قال: «إِنَّهُمْ وَإِنْ طَقَقَتْ بِهِمُ الْبِغَالُ،

(١) حلية الأولياء (١٠/٣٢٧).

وهمَلَجَتْ بِهِمُ الْبِرَازِينَ، فَإِنَّ ذَلَّ الْمَعْصِيَةَ لَا يَفَارِقُ قُلُوبَهُمْ، أَبِي اللَّهِ إِلَّا أَنْ يَذَلَ مَنْ عَصَاهُ»^(١) فَإِمَّا طَاعَةَ اللَّهِ، وَإِمَّا مَعْصِيَةَ اللَّهِ.

فالعزُّ في طاعةِ الله، والذلُّ في معصيةِ الله، وأنشدَ في ذلك العالمُ الأديبُ الزاهدُ المجاهدُ ابنُ المباركِ أبياتاً فقالَ^(٢):

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تَمِيتُ الْقُلُوبَ وَقَدْ يُورِثُ الذَّلَّ إِدْمَانُهَا

وَتَرَكْتُ الذُّنُوبَ حَيَاةَ الْقُلُوبِ خَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا

المحطة الثانية: إحياء ثقافة الجهاد في سبيلِ الله، وإعادةُ تحديثه في قلوبِ

الناشئة:

وحيثما أتكلّم عن الجهادِ فهو الجهادُ الذي ارتضاهُ اللهُ لنا وبينه رسولُهُ ﷺ، لا إفسادُ المخربين، ولا تفجيرُ المفسدين، ولا عبثُ العابثين، فهذا ليس جهاداً، إنما هذا إفسادٌ، وإلّا فالجهادُ الحقيقيُّ هو الذي يتحصّل من خلالِ العزِّ والتمكينِ، لكنْ مع الأسفِ الشديدِ الأمةُ اليومَ أصابها الخوفُ من كلمةِ الجهادِ، وحاربتْ هذه الكلمةَ، وحاربتْ مَنْ يُدندنُ حولها ووصمته بالإرهابِ، ووصمته بأقذع الأوصافِ، وقد قال النبيُّ ﷺ كما جاء في (سنن أبي داود) من حديثِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ» نوعٌ من الرِّبَا «وَأَخَذْتُمْ أذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيْتُمْ بِالزَّرْعِ» أي: الركونُ إلى الدنيا «وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ» فالنتيجةُ: «سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا

(١) الداء والدواء لابن القيم (ص: ٥٩).

(٢) ديوان ابن المبارك (ص: ١١٤-١١٥).

يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»^(١).

المحطة الثالثة: التواضع:

فَمَنْ أَرَادَ الرَّفْعَةَ وَالْعِزَّ وَالتَّمَكِينَ فَلْيَتَوَاضَعْ، وَفِي ثِقَافَاتِنَا الخَاطِئَةُ أَنَّ مَنْ أَرَادَ العِزَّ فَلْيَتَرَفَّعْ، وَمَنْ أَرَادَ التَّمَكِينَ فَلْيَتَرَفَّعْ عَلَى النَّاسِ، وَهَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَرْتَفِعَ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِّلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ»^(٢) فَمَنْ أَرَادَ الرَّفْعَةَ وَالتَّمَكِينَ وَالعِزَّةَ فِي الدُّنْيَا وَالأخِرَةِ فَلْيَتَوَاضَعْ، حَتَّى أَنشَدَ القَائِلُ:

وأقبحُ شيءٍ أن يَرى المرءُ نفسَه رَفيعًا وهو عندَ العالمينِ وضيعُ
تواضَعُ تَكُنْ كالنجمِ لاحِ لناظرٍ على صفحاتِ الماءِ وهو رَفيعُ
ولا تَكُ كالدخانِ يعلو بنفسِه في طبقاتِ الجوّ وهو وضيعُ

المحطة الرابعة: وأخصُّ بها الأبناء: إذا أردتم العزة في مستقبل أيامكم في الدنيا وفي آخرتكم فعليكم بالعلم:

العلمُ مقرونٌ بالرفعةِ وَالتَّمَكِينِ، فعليكم به واجتهدوا في تحصيله، ولا تلتفتوا إلى المخدلين، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ فِي سُورَةِ المِجَادِلَةِ: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

وقد قرأتُ كلامًا نفيسًا قيّمًا لابنِ القيمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي كتابِهِ (مِفْتَاحُ دَارِ السَّعَادَةِ)

(١) أخرجه أبو داود: كتاب البيوع، باب في النهي عن العينة، رقم (٣٤٦٢) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فإذا به يقول: «إِنَّ الْعِلْمَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَا لَا يَرْفَعُهُ الْمَلِكُ وَالْمَالُ وَلَا غَيْرُهُمَا، فَالْعِلْمُ يَزِيدُ الشَّرِيفَ شَرَفًا، وَيَرْفَعُ الْعَبْدَ الْمَمْلُوكَ حَتَّى يَجْلِسَ مَجَالِسَ الْمَمْلُوكِ»^(١).

وصدق **رَحْمَةُ اللَّهِ**، فَقَدْ جَاءَ فِي (سُنَنِ ابْنِ مَاجَه) أَنَّ الْفَارُوقَ عَمَرَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** التَّقِي فِي طَرِيقِهِ بِنَافِعِ بْنِ عَبْدِ الْحَارِثِ وَإِلَيْهِ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ لَهُ الْفَارُوقُ عَمْرُ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «مَنْ اسْتَخْلَفْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟» أَي: خَلَفْتَكْ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ، وَأَنَا أَجِدُكَ فِي هَذَا الطَّرِيقِ؟! قَالَ: اسْتَخْلَفْتُ عَلَيْهِمُ ابْنَ أَبِزَى، قَالَ: «وَمَنْ ابْنُ أَبِزَى؟» قَالَ: رَجُلٌ مِنْ مَوَالِينَا. قَالَ: «وَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلَى!» قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَاضٍ، -أَي: عِنْدَهُ مَوْهَلَاتٌ عِلْمِيَّةٌ- فَقَالَ عَمْرُ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ **ﷺ** قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ الْآخَرِينَ»^(٢). أَي: «يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا» إِذَا أَخَذُوا بِهِ، «وَيَضَعُ بِهِ الْآخَرِينَ» إِذَا أَهْمَلُوهُ وَتَرَكَوهُ.

المحطة الخامسة: العفو والغفران مع المقدر.

قد يخطئ عليك السفية، ويتناول عليك الدعوي، وينفش ريشه وإن لم يكن له ريش، فيتلفظ عليك ويخطئ في حقك، وأنت قادرٌ على أن تُبيده، ولكنك تعفو وأنت القادر، فهذا يرفعك الله به، هذا ليس كلامي، بل هذا كلام النبي **ﷺ** فقد

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٦٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن، ويعلمه، رقم (٨١٧)، وابن ماجه: كتاب المقدمة، باب فضل من تعلم القرآن وعلمه، رقم (٢١٨) من حديث عمر بن الخطاب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

قال: «وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ، إِلَّا عِزًّا»^(١).

وقال: «وَمَا ظَلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا»^(٢).

وقد تناول أحد السفهاء على العالم التحرير محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله وقال فيه كلامًا، فقام المشوِّشون يقولون للإمام الشافعي، ويعاتبونه: لماذا لم ترد عليه، فلم ينكروا على القائل ولكن عاتبوا الشافعي، فقال^(٣):

قالوا: سكتت وقد خوصمت قلت لهم: إنَّ الجوابَ لبابِ الشرِّ مفتاحُ
فالعفو عن جاهلٍ أو أحمقٍ أدبٌ نعم وفيه لصونِ العرضِ إصلاحُ
أما ترى الأسدَ تُخشى وهي صامتةٌ والكلبُ يُخسى ويُرمى وهو نباخُ

نعم، العفو مع القدرة يزيد العبد عزًا.

المحطة السادسة: ما يزيد العبد عزًا: اليقين أن المستقبل لهذا الدين.

فلا تيأس، وارفع هامتك، وليمتلئ قلبك يقينًا أن المستقبل لهذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، كما قال النبي ﷺ: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ» أي: الدين «مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدْرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ بِهِ الْكُفْرَ»^(٤).

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، رقم (٢٣٢٥) من حديث أبي كبشة الأنباري رضي الله عنه.

(٣) ديوان الشافعي (ص: ٥٥).

(٤) أخرجه أحمد (١٠٣/٤) من حديث تميم الداري رضي الله عنه.

وقد توجهَ الفاروقُ عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى الشام، فلمَّا وصلَ إلى تلكِ البلادِ كانَ يمشي معه أبو عبيدة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الفاتحُ الصحابيُّ الجليلُ، فمرَّ عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بمخاضةٍ، فنزلَ عن ناقتهِ، وخلعَ خفيَّه وعلقَهما على عاتقيهِ، وأمسكَ بزمامِ ناقتهِ يقودُها، فقالَ له أبو عبيدة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لم فعلتَ ذلكَ يا أميرَ المؤمنين؟! وكأنَّ أبا عبيدة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تحرَّجَ أن يراهُ نصارى الشامِ على هذه الحالِ وهو أميرُ المؤمنين، فلمَّا رأى عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هذه الثقافةَ في ذهنِ أبي عبيدة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: «لو غيرُك قالها يا أبا عبيدة؛ لجعلتهُ نكالا لأمةِ محمدٍ ﷺ، إنَّا كنا أذلَّ قومٍ فأعزَّنا اللهُ بالإسلامِ، فمَهْمَا نطلبُ العزَّ بغيرِ ما أعزَّنا اللهُ به أذلَّنا اللهُ»^(١).

فهذا البهرجُ والشيابُ، والألقابُ، لا يصلحُ مع هذه الأمةِ أبدًا، فالأمةُ هذه لا تنالُ العزَّ إلا بالإسلامِ، فلا تحاولِ أن تبحثَ على شيءٍ آخرَ وتتعبَ نفسك. وليحفظُ شبابُ الأمةِ هذه القاعدةَ: هذه الأمةُ لا تُعزُّ إلا بالإسلامِ، فلا تحاولِ أن تأتيَ بشيءٍ من الشرقِ أو من الغربِ؛ لتنالَ الأمةُ العزَّةَ، فلا يمكنُ بأيِّ شيءٍ إلا بالإسلامِ.

وقد كانتِ تملكُ الرومُ امرأةً فخلعَها الرومُ، واستخلفوا بعدها رجلاً اسمُه نقفورُ هو ملكُ الرومِ، وكانتِ الملكةُ ريني قبلَه تدفعُ الجزيةَ لأميرِ المؤمنين هارونَ الرشيدِ رَحِمَهُ اللهُ، فجاءَ نقفورُ بغطرستهِ وغروره فأخذَ خطابًا وأرسلَه إلى هارونَ الرشيدِ يقولُ له: من ملكِ الرومِ نقفورَ إلى ملكِ العربِ هارونَ، إنَّ الملكةَ التي كانتَ قبلي كانت تدفعُ لك الجزيةَ؛ وذلكَ لضعفِها ومُحمِّها، فإذا قرأتَ كتابي هذا

(١) أخرجه الحاكم (١/٦١).

فاردُّ ما صرفته إليك، وافتدِ نفسك، وإلا فالسيفُ بيننا وبينك.

فغضبَ أميرُ المؤمنين هارونُ **رَحْمَةُ اللَّهِ**، وكان قد كُتبت على قلنسوته: «حاجُّ غازٍ»؛ لأنَّه يمجُّ في سنةٍ ويغزو في سنةٍ، وإذا حجَّ أخذَ معه ثلاثَ مئةٍ حاجٍّ من الفقهاء والعلماء، فرئِيَ الغضبُ في وجهه، فهابَ جلساؤه أن يتكلَّموا معه، فدعا بدواةٍ فأخذَ كتابَ نقفورٍ فكتبَ في ظهره: «من أميرِ المؤمنين هارونَ إلى نقفورٍ كلبِ الرومِ، قرأتُ كتابك يا ابنَ الكافرةِ، والجوابُ ما تراه دونَ ما تسمعه والسلام»، وأرسلَ إليه جيشًا أدبَه وحقره حتَّى دفعَ الجزيةَ التي كانت تدفعها قبله تلكَ الملكةُ وهو صاغرٌ ذليلٌ^(١).

وهذا العزُّ ممكنٌ أن يعودَ إذا عادتِ الأمةُ إلى دينها عودًا حميدًا، أمَّا العودُ الشكليُّ فلا يصنعُ عزًّا.

هذا وصلُّوا وسلِّموا -رحمكم اللهُ- على نبيِّ الهدى والرحمةِ محمدِ بنِ عبدِ الله، كما أمرَ الربُّ الكريمُ في كتابه الكريمِ قائلًا: **﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾** [الأحزاب: ٥٦].

• • k • •

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١٣/٦٤٩ وما بعدها).

K

K

(٣٨)

بقدر ذكرك لله يكون الله معك

•• k ••

جاء في (مسند أحمد): أن ثلاثة نفرٍ قدموا على النبي ﷺ، فأسلموا عنده، فقال ﷺ: «مَنْ يَكْفِينِهِمْ؟» - أي: مَنْ يتحمل مؤنتهم ويضيفهم؟ - قال طلحة رضي الله عنه: أنا يا رسول الله، فاستضاف طلحة رضي الله عنه ضيوف رسول الله ﷺ، فظلَّ هؤلاء الثلاثة عند طلحة رضي الله عنه، فأنشأ رسول الله ﷺ بعثًا - أي: سريةً تغزو - فخرج أحد هؤلاء الثلاثة في هذه السرية فقاتل فاستشهد، ثم أنشأ رسول الله ﷺ بعثًا، فخرج الثاني غازيًا في هذه السرية فاستشهد، وظلَّ الثالث حتى أتته المنية على فراشه فمات على فراشه.

فراى طلحة رضي الله عنه في المنام أنه في الجنة، وأن هؤلاء الثلاثة نفرٍ أمامه في الجنة، يتقدمهم الذي مات على فراشه، ثم يليه الذي استشهد ثانيًا، ثم يليها الذي استشهد أولاً، فوقع في نفس طلحة رضي الله عنه الريبة، كيف هذا يموت على فراشه ويتقدمهم؟! فجاء إلى النبي ﷺ وبيّن له هذا الإشكال، فقال النبي ﷺ: «وَمَا أَنْكَرْتَ مِنْ ذَلِكَ، لَيْسَ أَحَدٌ أَفْضَلَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ مُؤْمِنٍ يُعَمَّرُ فِي الْإِسْلَامِ لِتَسْبِيحِهِ وَتَكْبِيرِهِ وَتَهْلِيلِهِ»^(١)، أي: الذي مات آخرًا تقدم هؤلاء في الجنة؛ لأنه أُعطي عُمرًا أكثر، فملاً هذا العمر بالتسبيح والتكبير والتهليل.

(١) أخرجه أحمد (١/١٦٣) من حديث طلحة رضي الله عنه.

فتريدُ السنةَ رطبةً بذكرِ الله، ومجالسَ عطرةً بذكرِ الله، والسببُ أن الذي ينظرُ إلى حالِ الناسِ اليومَ يراهم غافلين عن الذكرِ ومُنشغلين عنه، فهم في غفلةٍ عن الذكرِ، ومنشغلون عنه، واللهُ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** يخاطبُ المؤمنين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١] ليس ذِكْرًا فحسب، بل ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢].

ويبين **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** أنه مع الذاكرِ له فقال: ﴿فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾ [البقرة: ١٥٢].

وأمرنا أن نذكره في جميع الأحوال في السرِّ والعلانية، فقال: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وقال الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** في الحديثِ القدسيِّ: «وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي» أي: بقدرِ ذِكْرِكَ لله يكونُ الله معك في جميع أحوالك: في حال الرخاء، وفي حال الشدائد والكره، فيكون معك على قدرِ ذِكْرِكَ له «فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»^(١).

والسبب أن ذكرَ الله هو أكبرُ كلِّ شيءٍ، فقد قال الله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، رقم (٧٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

ولن يستطيع أحدنا أن يذكر الله إلا إذا استعان بالله على ذكره، أما بحوله وقوته فلا يستطيع.

ففي (سنن النسائي): أخذ رسول الله ﷺ بيد معاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: «إِنِّي لِأَحِبُّكَ يَا مُعَاذُ»، فقال معاذٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأنا أحبُّك يا رسولَ الله، قال: «فَلَا تَدْعُ أَنْ تَقُولَ فِي كُلِّ صَلَاةٍ: رَبِّ أَعْنِي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»^(١)، ليس في صلاةٍ واحدةٍ، بل في كل صلاةٍ.

والسبب أن الشيطان جاثم على قلوبنا، فإذا غفلنا وسوس، وإذا ذكرنا الله خنس وابتعد.

وقد عدد لنا ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى ورسوله ﷺ فضائل متعددة للذكر؛ فإن أعظم ما يتحسر عليه الناس يوم القيامة ساعة مرت عليهم لم يذكروا الله فيها، فليجعل كل واحد منا من وقته ورداً يذكر الله فيه: سبحان الله. مئة مرة، والحمد لله. مئة مرة، ويصلي على النبي ﷺ، وليصنع لنفسه برنامجاً يذكر الله فيه، كما أن عنده برنامجاً يشاهد فيه مباراة، أو مسلسلاً، فإذا جاءه إنسان وطلب منه حاجة، فليقل له: الآن أنا مشغول بالذكر، عندي ورد من القرآن أقرؤه!.

فقد قال الله تعالى: ﴿وَالذِّكْرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذِّكْرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وكما جاء في (صحيح مسلم) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله

(١) أخرجه النسائي: كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء، رقم (١٣٠٣)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كان يسير في طريق مكة فمرَّ على جبلٍ يقال له: جمدان. فقال: «سَيَرُوا هَذَا جُحْدَانُ، سَبَقَ الْمَفْرَدُونَ» قالوا: يا رسول الله، وما المفردون؟ قال: «الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا، وَالذَّاكِرَاتُ»^(١) أي: المكثرون من ذكر الله.

فليسأل كل واحدٍ منَّا نفسه: كم يقضي من الساعات الطوال وهو يقرأ في مواقع التواصل الاجتماعي، وكم هو مرطبٌ لسانه بذكر الله. ومن أراد أن يعرفه الله في الشدة فليعرف الله في الرخاء.

وقد جاء في كتاب (الدعاء) للطبراني أن النبي ﷺ قال: «ثَلَاثَةٌ لَا يَرُدُّ اللَّهُ عَزَّجَلَّ دُعَاءَهُمْ» أي: عند الشدة والكرب «الذَّاكِرُ اللَّهَ عَزَّجَلَّ كَثِيرًا، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَالْإِمَامُ الْمُقْسِطُ»^(٢).

بل قد جاء في (سنن الترمذي): قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُنبِئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعَهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى»^(٣).

فذكر الله تعالى خيرُ أعمالنا وأزكاها وأرفعها، وأفضل من إنفاق الذهب والورق، وأفضل من الجهاد؛ لأنه إنما شرع ذلك كله لإقامة ذكر الله.

وهو القائل ﷺ كما جاء في (صحيح البخاري): «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الطبراني في الدعاء رقم (١٣١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب الدعاء، باب ٦، رقم (٣٣٧٧)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»^(١)، هو يحيى معنا لكنه ميت؛ لأنه لا يذكُر الله تعالى.

وقد جاء عند الترمذي من حديث عبد الله بن بسرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، إن شرائعَ الإسلامِ قد كثُرتَ عليّ، فأخبرني بشيءٍ أتشبُّثُ به، قال: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»^(٢) هذه وصيةُ النبي ﷺ.

والملاحظُ على أغلبِ مجالسنا اليومَ أنها تخلو من ذكرِ الله، فقلَّمَا تدخلُ مجلسًا من المجالسِ المعروفةِ وتجِدُ فيها حلقةَ ذِكْرٍ، قديمًا كان الناسُ ينشغلون بالتلفاز مع الأسفِ الشديدِ، والآنَ انشغلَ روادُ المجلسِ بعضهم عن بعضٍ بهذه الهواتفِ الجوالَةِ فلا يتكلمون، ويجلسون ساعةً أو ساعةً ونصفًا يتناقلون الأخبارَ بهذه الجوالاتِ، ومجالسُ الذكْرِ هي التي يتربَّى فيها الأجيالُ؛ لذا قال الأولون: المجالسُ مدارسُ.

فأنا أتمنى أن يتبني بعضُ الإخوةِ هذا، فيجعلُ في مجلسه مجلسَ ذكْرِ كلِّ أسبوعٍ تقالُ فيه موعظةٌ، أو يجلسون يقرؤون القرآنَ، فيختمون القرآنَ في مجالسهم، ويتدارسون حديثَ النبي ﷺ.

انظرُ إلى هذا الحديثِ وما فيه من فضلٍ عظيمٍ، وهو ما جاء في (صحيح مسلم) من حديثِ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّارَةً

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ، رقم (٢٤٠٧)، من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في طول العمر للمؤمن، رقم (٢٣٢٩)، وكتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الذكر، رقم (٣٣٧٥)، من حديث عبد الله بن بسرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فُضِّلًا، يَتَّبِعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ» فهذه الملائكة ليس لها همٌّ إلا أن تبحثَ عن مجالسِ الذكرِ، أينما وجدتْ مجلسَ ذكرٍ تجلسُ «فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ قَعَدُوا مَعَهُمْ، وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنِحَتِهِمْ» أي: الملائكة «حَتَّى يَمْلَأُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَإِذَا تَفَرَّقُوا» أي: أصحابَ المجلسِ، «عَرَجُوا» أي: الملائكة «وَصَعِدُوا إِلَى السَّمَاءِ، فَيَسْأَلُهُمُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جِئْنَا مِنْ عِنْدِ عِبَادِكَ فِي الْأَرْضِ، يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَهْتَلُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيَسْأَلُونَكَ. قَالَ: وَمَاذَا يَسْأَلُونِي؟ قَالُوا: يَسْأَلُونَكَ جَنَّتِكَ. قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا جَنَّتِي؟ قَالُوا: لَا يَا رَبِّ، قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا جَنَّتِي؟ قَالُوا: وَيَسْتَحِيرُونَكَ. قَالَ: وَمِمَّ يَسْتَحِيرُونَ نَبِيَّ؟ قَالُوا: يَسْتَحِيرُونَكَ مِنْ نَارِكَ يَا رَبِّ. قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا نَارِي؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا نَارِي؟ قَالُوا: وَيَسْتَغْفِرُونَكَ. قَالَ: قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، فَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا، وَأَجْرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: رَبَّنَا، فِيهِمْ فُلَانٌ عَبْدٌ خَطَاءٌ، إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ!» هو ليس من روادِ المجلسِ، وليس من أهلِ الذِّكْرِ أصلاً «فَيَقُولُ الرَّبُّ الْكَرِيمُ: وَلَهُ قَدْ غَفَرْتُ؛ هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»^(١).

فأفضالُ ربِّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى علينا كثيرةٌ، ولكننا نحن المعرضون، الغافلون، التاركون لها.

فإلى متى هذا الإعراضُ والتركُ والغفلةُ؟ إلى أن نموتَ! فيها هو الموتُ نراه يتخطفنا واحداً تلو الآخرِ، وها نحنُ نترددُ على المقبرة في ليلنا ونهارنا، ندفنُ واحداً في الصباح وواحداً في المساءِ، ولا ندري متى يأتي الدورُ علينا!

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله، رقم (٦٤٠٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَلنَحْظُ جَمِيعًا بِقَوْلِ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا: «قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ».

هذا، وصلُّوا وسلِّموا -رحمكم الله- على نبيِّ الهدى والرحمة محمد بن عبد الله، كما أمرَ الربُّ الكريمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كتابه الكريمِ قائلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

• • k • •

K

K

(٣٩)

عقوبة بعض الذنوب تعجل في الدنيا

•• k ••

تأملتُ في قول الحقِّ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾** [الشورى: ٣٠]، فوجدتُ هذه الآية تحملُ في طياتها الفوائد الكثيرة، والدروس والعبر التي تستوجب الوقوفَ عندها للتدبير والتأمل. ومن الفوائد في هذه الآية: أن عقوبة بعض الذنوب تعجلُ في الدنيا، وتقعُ على المذنب في الدنيا؛ لأننا نقرأ في قوله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾** أي: بسبب ذنبيكم وقعت عليكم العقوبة في الدنيا.

ومثال ذلك في كتاب الله كثير، ففي سورة البقرة قال الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ، وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** [البقرة: ١١٤].

وقال تعالى في سورة المائدة: **﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** [المائدة: ٣٣].

وقال تعالى في سورة النور: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

إذْ ن بعضُ الذنوب تعجّل عقوبته في الدنيا، فيراها المذنبُ بعينه، ويراهَا من حوله بعينه، فيشاهدون عاقبة الذنب تنزل على هذا المذنب، سواء أكان فردًا أم جماعةً.

وهناك أمثلة للعقوبات التي تُعجّل على العبد في الدنيا، نذكر بعضها:

المثال الأول: الحرص على الدنيا والغفلة عن الآخرة.

فإذا حرص الإنسان على الدنيا حرصًا شديدًا ترتب على ذلك أن يغفل عن الآخرة، فعوقب في الدنيا، وهذا أدلته كثيرة.

فهذا الإنسان الذي يحرص على الدنيا حرصًا يترتب على ذلك تضييعه للصلاة، وللزكاة، وتضييعه لحقوق العباد، وحقوق ذويه، فتتنزل عليه العقوبة في الدنيا.

فقد قال النبي ﷺ، كما جاء في (سنن الترمذي) من حديث أنس رضي الله عنه، قال: «مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ؛ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ» وفي المقابل: «وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ؛ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ»، أي: لو كان له وادٍ من ذهبٍ لتمنى وادياً ثانياً، ولو كان عنده واديانٍ تمنى الثالث، فهو يعيش في حالة فقرٍ دائمٍ، الخير بين يديه، والأرزاق الكثيرة، لكنه في حالٍ شكوى وتأففٍ من الواقعٍ دائماً، والسبب أن فقره بين عينيه «وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ

الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»^(١) هذا إذا حَرَصَ على الدنيا حِرْصًا ضِيعَ به آخِرَتَهُ.

لذا يقول القائلُ:

فالموتُ لا شكُّ يُفنيها ويُفنيها	لا تأسفنَّ على الدنيا وما فيها
فسوفَ يومًا على رِغمٍ يُجَلِّها	ومَنْ يَكُنْ هُمُّه الدنيا لِيَجْمَعَهَا
ودارنا لخرابِ البومِ نَبِيها	أموالنا لذوي الميراثِ نَجْمَعُها
والجارُ أحمدُ والرحمنُ بانيها	اعمَلْ لدارِ البقا رضوانُ خازنُها
إلا التي كان قبلَ الموتِ بينها	لا دارَ للمرءِ بعدَ الموتِ يَسْكُنُها
ومَنْ بناها بشرًّا خابَ بانيها	فمَنْ بناها بخيرٍ طابَ مسكنُها

وقد قال النبي ﷺ كما جاء في (سنن ابن ماجه) من حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا، هَمَّ آخِرَتِهِ، كَفَاهُ اللهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَّتِهَا هَلَكَ»^(٢).

ولابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي كتابه «الفوائد» كلامٌ طيبٌ عظيم، فقد قال رَحِمَهُ اللهُ فِي هذا الباب: «ومَنْ أَصْبَحَ وَأَمَسَى والدُّنْيَا هُمُّه حَمَلَهُ اللهُ هُمُومَهَا، وَغَمُومَهَا، وَأَنْكَادَهَا، وَوَكَّلَهُ إِلَى نَفْسِهِ، فَشَغَلَ قَلْبَهُ عَنْ مَحَبَّتِهِ بِمَحَبَّةِ الْخَلْقِ» أَي: يَنْشَغِلُ قَلْبُهُ بِغَيْرِ مَحَبَّةِ اللهِ؛ لِأَنَّهُ يَبْحَثُ عَنِ الدُّنْيَا، فَيَحِبُّ الْخَلْقَ؛ «وَلِسَانَهُ عَنْ ذِكْرِهِ بِذِكْرِهِمْ،

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة، باب ٣٠، رقم (٢٤٦٥)، من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن ماجه: كتاب المقدمة، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، رقم (٢٥٧)، من حديث

عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم، فهو يكدح كدح الوحش في خدمة غيره، كالكبير ينفخ بطنه ويعصر أضلاعه في نفع غيره^(١).

هذا الذي يحرص على الدنيا، ويقول لأولاده: أنا أخرج من الصباح إلى المساء من أجلكم. ويضيع الصلوات الخمس في اجتماعات مؤسسته، اجتماع تلو اجتماع؛ ليحظى بالموظف المثالي، ولا يلتفت إلى الدين؛ فيأخذ الربا ولا يبالي؛ من أجل دنياه.

أموالنا لذوي الميراث نجتمعها ودارنا لخراب البوم نبيها

فهذه إذن عقوبته في الدنيا؛ أن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** يجعله في فقر دائم، وشمله مفرق على الدوام.

المثال الثاني: إذا وقع الناس في ذنب ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقعت عليهم في الدنيا عقوبة.

أي: إذا تركوا هذا الواجب العظيم، وهو أن يقال لصاحب المنكر: حسبك، هذا منكراً. ويقال لتارك المعروف: حسبك، تركك لهذا المعروف. نزلت العقوبة في الدنيا على الفرد أو على المجتمع.

والسبب أن النبي **ﷺ** قال: **«لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُوهُ فَلَا يَسْتَجَابُ لَكُمْ»**^(٢).

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٨٤).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم (٢١٦٩)، من حديث حذيفة **رضي الله عنه**.

وقال في رواية أخرى: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ»^(١).

وكم هي أعداد المنكرات في المجتمع؟! لو كان بين أيدينا إحصاءات عن الخمر والزنا والمخدرات والسرقات والفساد الذي يعلو منسوبه.

وسبحان الله! فضاؤنا في هذه الأيام مُلئ بالاستديوهات التي تصبح وتمسي على تحليل مباريات، في ساعات طويلة، واستديوهات كبيرة، ومحللين، وإضاءة، وتصوير، وبث مباشر، ساعة بعد ساعة على: هل هذا الهدف صحيح أم لا، وفق هذا الحكم أم لا، هذه اللعبة كانت تسلاً أم لا، وكلام هنا وهناك، يُعاد في هذا البرنامج وهذا البرنامج.

فلو أنشئت مثل هذه التحليلات للفساد المُستشري في المجتمع، سواءً في مجتمعنا هذا أو في غيره من المجتمعات؛ لنفع ولحصلت ثمرات، لكن مع الأسف الشديد الناس يرون الظالم أمامهم يرتكب الموبقات والذنوب، وكل واحد يقول: عليك بنفسك، لا عليك من غيرك، فينزل العقاب على الجميع.

المثال الثالث: العقوق وقطيعة الرحم.

لا أتكلّم عن إنسان في غربة يبحث عن رزقه وهو بعيد عن والده ووالدته، بل أتكلّم عن إنسان بيته وبيته ووالدته في المدينة نفسها، ولكنه لا يأتي والده ولا

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم (٤٣٣٨)، والترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر، رقم (٢١٦٨)، من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والدته بحجة الانشغال بالدنيا، يقول: أنا مشغول، وأرتب لهم مرة واحدة في الشهر لأراهم، وهذه المرة يمكن أن ينشغل فيها بسفر في اجتماع أو في غيره؛ مما يسبب الكثير من الآهات والحسرات، سواء من قبل الآباء والأمهات، أو من قبل بعض الإخوة والأخوات من تقطيع لأواصر الوصل.

وقد قال النبي ﷺ: «بَابَانِ مُعْجَلَانِ عُقُوبَتُهُمَا فِي الدُّنْيَا: الْبَغْيُ وَالْعُقُوقُ»^(١).

وقال ﷺ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجَّلَ اللَّهُ تَعَالَى لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدْخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِثْلُ الْبَغْيِ وَقَطْعِ صَلَاةِ الرَّحِمِ»^(٢).

فقد تقول المرأة لزوجها: لا تذهب لإخوتك أو أخواتك، ولا تدخل عليهم. فينصاع لكلامها، وتمر عليه السنة والستان والثلاث، ويمتنع هذا الزوج المسكين الشقي المطواع لأمر زوجته، فلا يذهب لإخوته أو أخواته، بل ربما تقول له: أبنائك أيضا لا يدخلون بيت واحد من أعمامهم أو عماتهم. فينصاع أيضا لكلامها ويقطع صلة رحمه.

وربما قال هو أيضا لزوجته، ومنعها من أن تصل والديها، أو أخواتها أو إخوتها، ومنع بنيه من أن يصلوا أحوالهم، فهذه كلها تُعَجَّلُ عقوبته في الدنيا.

وفي المقابل قال النبي ﷺ: «وَإِنَّ أَعْجَلَ الطَّاعَةِ ثَوَابًا» أي: في الدنيا «صَلَاةُ الرَّحِمِ، حَتَّىٰ إِنَّ أَهْلَ الْبَيْتِ لَيَكُونُونَ فَجْرَةً، فَتَنُمُو أَمْوَالُهُمْ، وَيَكْتُرُّ عَدَدُهُمْ إِذَا

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (١٧٧/٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في النهي عن البغي، رقم (٤٩٠٢)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، باب ٥٧، رقم (٢٥١١)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب البغي، رقم (٤٢١١)، من حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تَوَاصَلُوا»^(١).

وقال أيضاً ﷺ كما جاء في رواية ابن حبان: «وَمَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ يَتَوَاصَلُونَ فَيَحْتَاجُونَ»^(٢).

فهذه أصنافٌ مِنَ الذُّنُوبِ لَهَا عَقُوبَاتٌ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ المِتَامَلَ فِي أَحْوَالِ إِخْوَانِنَا فِي بِلَادِ الشَّامِ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ، وَمَا يُعَانُونَهُ مِنْ آثَارِ الحَرْبِ وَالدَّمَارِ، سِوَاءِ الَّذِينَ هُمْ فِي دَاخِلِ الشَّامِ، أَوْ فِي مَخَيَّاتِ اللَّاجِئِينَ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْمَعَ، فَضْلاً عَنْ أَنْ يَرَى أَحْوَالَهُمْ، ففِي هَذِهِ الأَجْوَاءِ البَارِدَةِ جَدًّا تَمْتَرُجُ آهَاتُهُمْ وَالأَمُهُمْ وَحَسْرَاتُهُمْ الحَارَّةَ، وَتَمْتَرُجُ دَمُوعُهُمْ وَدِمَاؤُهُمْ، وَتَنَسَكِبُ عَلَى تِلْكَ التَّلُوجِ الَّتِي تَغْطِي بَعْضَ المِنَاطِقِ الَّتِي هُمْ فِيهَا، وَتَرَى الطِّفْلَ الصَّغِيرَ لَا يَحْتَمِلُ البَقَاءَ حَيًّا فَيَمُوتُ مِنْ شِدَّةِ البَرْدِ.

فِينبَغِي عَلَيْكَ أَنْ تَمُدَّ يَدَ العَوْنِ إِلَيْهِمْ عَنْ طَرِيقِ الجَمْعِيَّاتِ الَّتِي تُجْمَعُ لَهُمْ، فَضَعُ عِنْدَهُمْ هَذِهِ الأَمْوَالَ وَالصَّدَقَاتِ فَإِنَّهَا تَصَلُّ إِلَيْهِمْ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَضَعُ فِي عَيْنِكَ وَأَنْتَ تَدْفَعُ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ أَنْكَ تَدْفَعُ عَنْ نَفْسِكَ أَنْتَ البَلَاءُ أَوْلاً؛ فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَنَائِعُ المَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ، وَالأَفَاتِ وَالمَلَكَاتِ»^(٣).

وَانصُرْ إِخْوَانَكَ فِي الدِّينِ، لَا أَقُولُ: فِي العُرُوبَةِ. وَلَا أَقُولُ: فِي اللِّسَانِ. وَلَكِنْ أَقُولُ: ﴿وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النُّصْرُ﴾ [الأَنْفَالُ: ٧٢] فَانصُرْهُمْ

(١) أَخْرَجَهُ الخِرَائِطِيُّ فِي مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ رَقْمَ (٢٧٥)، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ حَبَانَ رَقْمَ (٤٤٠)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أَخْرَجَهُ الحَاكِمُ فِي المِسْتَدْرَكِ (١/ ١٢٤)، وَالبَيْهَقِيُّ فِي شَعْبِ الإِيْمَانِ رَقْمَ (٧٧٠٤)، مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ديانةً، وقُرْبَةً إِلَى اللَّهِ، وَلَا تَتَأَخَّرِ، فَادْفَعْ وَلَوْ كَانَ شَيْئًا قَلِيلًا، فَلَا تَدْرِي لَعَلَّ هَذَا الْقَلِيلَ يُبَارِكُ فِيهِ الرَّبُّ الْجَلِيلُ فَيَنْفَعُ نَفْعًا عَظِيمًا.

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَزِدْ وَبَارِكْ عَلَى عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَاعْرِضْ عَلَيْهِ صَلَاتِنَا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

• • k • •



(٤٠)

الصدق

•• k ••

أمر الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** عباده المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين، ويكونوا في كنفهم، وفي معيبتهم، وأن يتشبهوا بهم، فقال **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

ثم بين **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** أن الصدق منجاة للعبد في الدنيا وفي الآخرة، ولا يمكن أن ينجو العبد يوم القيامة إذا كان من أهل الكذب في الدنيا.

وقد قال الله تعالى عن يوم القيامة: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ أي: صدقهم في الدنيا ينتفعون به في الآخرة ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

فانظر إلى هذه الحوافز العظيمة لمن كان صادقاً في الدنيا، فإنهم يحظون بهذه الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، ويحظون برضا الرب **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**، ويحظون بالفوز العظيم.

والصدق لا يكون إلا إذا كان العبد صادقاً مع الله، فقد يصدق المخلوق مع المخلوق؛ فيحسن معاملته، ويحسن في قوله وفعله وأخذه وعطائه، ولكنه لا يصدق مع الخالق **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

قال عبد الواحد بن زيد **رَحِمَهُ اللهُ**: «الصدقُ الوفاءُ لله بالعمل»^(١).

وقد بينَ النبي **ﷺ** أهمية الصدق، ومنزلته، وفضيلته في أحاديث كثيرة، منها ما جاء في (صحيح ابن حبان) من حديث عبادة بن الصامت **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**: قال **ﷺ**: «**أَضْمِنُوا لِي سِتًّا أَضْمَنُ لَكُمْ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا أْتَمَنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغَضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكَفُّوا أَيْدِيَكُمْ**»^(٢).

وفي حديث عبد الله بن عمرو **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** وعن أبيه - جاء في (مسند أحمد) **رَحِمَهُ اللهُ** -: أن النبي **ﷺ** قال: «**أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلَا عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا: حِفْظُ أَمَانَةٍ، وَصِدْقُ حَدِيثٍ، وَحُسْنُ خَلِيقَةٍ، وَعِفَّةٌ فِي طُعْمَةٍ**»^(٣).

فإذا وجدت فيك هذه الأربع فلا عليك ما فاتك من الدنيا، وهي أن تكون حافظاً للأمانة، صادقاً في حديثك، حسناً في أخلاقك، عفيفاً في طعامك.

والصدق يقود إلى البرِّ، وهما جميعاً في الجنة كما أخبر النبي **ﷺ**، فقد جاء في (صحيح مسلم) أن النبي **ﷺ** قال: «**عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدْقًا**»^(٤).

فمن أكثر ما يخدشُ مروءة الرجل أن يكون كاذباً، إذا رأيت الرجل يكذبُ

(١) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/٢٦٢).

(٢) أخرجه ابن حبان (٢٧١) من حديث عبادة بن الصامت **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**.

(٣) أخرجه أحمد (٢/١٧٧) من حديث عبد الله بن عمرو **رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا**.

(٤) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب قبح الكذب، رقم (٢٦٠٧ / ١٠٥) من حديث عبد الله

بن مسعود **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**.

فلا تصاحبه، ولا تمشِ معه حتى لو كان كذبه صغيراً، فالرَّجُلُ لا يكذب؛ لذا سئل النبي ﷺ عن المؤمن يفعل كذا؟ قال: «نَعَمْ» المؤمن يفعل كذا؟ قال: «نَعَمْ» المؤمن يفعل كذا؟ قال: «نَعَمْ» قال: المؤمن يكذب؟ قال: «المؤمن لا يكذب»^(١).

لأن الذي يكذب هو الجبان، والقوي لا يكذب؛ فالصدق من علامات القوة ليس من علامات الضعف، فهو يصدق وإن ترتب على صدقه أذيته؛ لأنه لا ينظر إلى الدنيا، وإنما ينظر ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩] هناك؛ لذا أمر ربنا تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يسأله الصدق في جميع شأنه في مدخله ومخرجه، فقال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطٰنًا نَصِيْرًا﴾ [الإسراء: ٨٠]، أي: اجعل أمري كله في الصدق في مدخلي ومخرجي، في الأقوال والأفعال، والمقاصد والنيات.

وقد جاء عند النسائي في (سننه): قد جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، وهو على حال الشرك لم يسلم، فأمن بالنبي ﷺ وتبعه، فإذا بنينا ﷺ يُعدُّ العدة لغزوة من الغزوات، وإذا بهذا الأعرابي الذي آمن لتوّه يشارك في هذه الغزوة، ويرعى ظهر النبي ﷺ، فانتهت الغزوة، وقسمت الغنائم، فقال النبي ﷺ: «خُذُوا هَذَا الْقَسْمَ لِلْأَعْرَابِيِّ الَّذِي آمَنَ لِتَوَّهِ»، فذهبوا بهذه الغنيمه إلى هذا الأعرابي قال: ما هذا؟ قالوا: هذا قسم قسمه لك النبي ﷺ، فحمله وأسرع إلى النبي ﷺ وقال: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «قَسْمٌ قَسَمْتُهُ لَكَ» قال: ما على هذا أتبعتك، إنما أتبعتك على أن أرمى بسهم إلى هاهنا فأموت فأدخل الجنة - أي: لم أتبعك من أجل الدنيا، إنما أتبعتك من أجل جنة عرضها السموات والأرض - فقال النبي ﷺ: «إِنْ تَصْدُقْ

(١) أخرجه الخرائطي في مساوي الأخلاق رقم (١٢٧) من حديث عبد الله بن جراد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الله **يُصَدِّقُكَ**» أي: إن كنت صادقاً مع الله سيحدثُ لك ما تريدُ.

ثم نهضوا مرةً أخرى في وجه العدو، واشتد القتالُ، فإذا بهذا الأعرابيُّ يؤتى به محمولاً ميتاً إلى النبي ﷺ وقد أصابه سهمٌ حيث أشار، فقال النبي ﷺ: **«أَهُوَ هُوَ؟»** قالوا: هو يا رسول الله، قال: **«صَدَقَ اللهُ فَصَدَقَهُ»** أي: كان صادقاً مع الله في نيته، وفي فعله؛ فصدقَه اللهُ. فخلع النبي ﷺ جُبته وكفنه بها تكرمةً له، ثم صلى عليه.

قال راوي الحديث شداد بن الهاد **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**: فسمعتُ مما كان يقول **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** في الدعاء له: **«اللَّهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِكَ فَقُتِلَ شَهِيدًا، أَنَا شَهِيدٌ عَلَى ذَلِكَ»** ^(١).

فالصدقُ منجاةٌ، والله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** يعلمُ قولك، ويعلمُ فعلك، إن كنت صادقاً كان الله معك، وأحلَّ لك في قولك وفي فعلك وفي نيّتك البركة.

وقد جاء في (صحيح البخاري) من حديث حكيم بن حزام **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**، قال رسول الله ﷺ: **«الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَنْفَرَقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيْنَا؛ بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَّتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا»** ^(٢).

فمن الممكن أن يكذب الإنسان في بيعه ويحصل زيادةً، مثلاً عشرة آلاف، أو عشرين ألف دينار، ويكذب على المشتري ويتفنن في الكذب، وتسري المعاملة

(١) أخرجه النسائي: كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهداء، رقم (١٩٥٣) من حديث شداد بن الهاد **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا بين البيعان ولم يكتما ونصحا، رقم (٢٠٧٩) من حديث حكيم بن حزام **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**.

وَيَسْرِي عَقْدُ الْبَيْعِ، لَكِنْ قَدْ مُحِقَّتْ مِنْهُ الْبَرَكَةُ.

لهذا يقول رسول الله ﷺ كما جاء في الحديث الصحيح: «التَّاجِرُ الْأَمِينُ الصَّدُوقُ الْمُسْلِمُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

فالصدق من الأخلاق العظيمة، وحرى بالعبد أن يكون صادقاً.

وإن صحَّ التعبيرُ فهناك صدقٌ مذمومٌ، فمع ما للصدق من منزلةٍ وفضيلةٍ عظيمةٍ عند الله إلا أن هناك صدقاً مذموماً، وله صورٌ متعددة:

الصُّورَةُ الْأُولَى: الْغِيْبَةُ.

فالغيبَةُ: أن تذكرَ أخاكَ بما فيه، فأنت صادقٌ أن فلاناً فيه كذا وفيه كذا وفيه كذا، لكن هذه غيبَةٌ؛ لذا قال رسول الله ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا الْغِيْبَةُ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» قيل: أفرأيتَ إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهْتَهُ»^(٢) فهذا صدقٌ مذمومٌ.

الصُّورَةُ الثَّانِيَةُ: ذَكَرَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ عَلَى سَبِيلِ الْاِحْتِقَارِ وَالانْتِقَاصِ مِمَّا فِيهِ، فَهَذَا صَدَقٌ لَكِنَّهُ مَذْمُومٌ.

ولما قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ: حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةٍ كَذَا وَكَذَا - تعني:

(١) أخرجه الترمذي: كتاب البيوع، باب ما جاء في التجار وتسمية النبي ﷺ إياهم، رقم (١٢٠٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الغيبة، رقم (٢٥٨٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فَصِيرَةَ، فَمَا قَالَتْ شَيْئًا جَدِيدًا، بَلْ قَالَتْ شَيْئًا فِي صَفِيَّةَ - قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ»^(١).

وقد امتدح النبي ﷺ أبا ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بخلقِ الصدقِ فقال: «مَا أَظَلَّتِ الْخَضِرَاءُ، وَلَا أَقَلَّتِ الْغُبْرَاءُ، أَصْدَقَ مِنْ أَبِي ذَرٍّ»^(٢)، ومع ذلك في يومٍ من الأيام حدثت خصومةٌ بين أبي ذرٍّ وأحدِ غلمانه، أو قيل: مع بلالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فإذا بأبي ذرٍّ في حالةٍ غَضَبٍ يقول: «هَيْه، يَا ابْنَ السُّودَاءِ»^(٣)، فما جاءَ بشيءٍ كَذِبٍ، فهو ابنُ سوداءٍ حقًّا، لكن ذكره على سبيلِ الانتقاصِ، فقال له النبي ﷺ: «أَعَيَّرْتَهُ بِأُمَّهِ؟! إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»^(٤)؛ فهذا صدقٌ لكنه مذمومٌ.

الصُّورَةُ الثَّلَاثَةُ: الَّذِي يُصَدِّقُ الْكُهْنَةَ وَالْعَرَّافِينَ.

فهذا صدقٌ مذمومٌ، وبالأَمْسِ كان الناسُ يذهبون إلى العرَّافِ في مكانه، والآن لا يحتاجون أن يذهبوا إليه بل يدخلون عليه في مواقعه، وفي حسابهِ الخاصِّ ويستشيرونه ويصدقونه، وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ أَتَى حَائِضًا أَوْ امْرَأَةً فِي دُبْرِهَا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ»^(٥) فهذا صدقٌ مذمومٌ أيضًا.

- (١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في الغيبة، رقم (٤٨٧٥)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، باب ٥١، رقم (٢٥٠٢)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.
- (٢) أخرجه الترمذي: كتاب المناقب، باب مناقب أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٣٨٠١)، وابن ماجه: كتاب المقدمة، باب فضل أبي ذر، رقم (١٥٦)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
- (٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم (٤٧٧٢) من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
- (٤) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، رقم (٣٠)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل، وإلباسه مما يلبس، ولا يكلفه ما يغلبه، رقم (١٦٦١)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
- (٥) أخرجه أبو داود: كتاب الطب، باب في الكاهن، رقم (٣٩٠٤)، والترمذي: كتاب الطهارة،

الصورة الرابعة: أن يُجاهر الإنسان بفعل سيئاته وذنوبه وخطيئاته.

فإذا فعلَ إنسانٌ معصيةً في الليل، كأن يزني، أو يشربُ خمرًا، أو يرتكبُ الموبقات، فإذا أصبحَ قال: البارحة زنيْتُ بفلانة. هو صادقٌ، لكن صدقُه هذا مذمومٌ.

لذا قال النبي ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَاذِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنْ الْمُجَاهِرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ يَا فُلَانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا. وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ»^(١).

هذا وصلُّوا وسلِّموا -رحمكم الله- على نبيِّ الهدى والرحمة محمد بن عبد الله، كما أمرَ الربُّ الكريمُ في كتابه الكريمِ قائلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

• • k • •

باب ما جاء في كراهية إتيان الحائض، رقم (١٣٥)، وابن ماجه: كتاب الطهارة، باب النهي عن إتيان الحائض، رقم (٦٣٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه، رقم (٦٠٦٩)، ومسلم: كتاب الزهد والرفائق، باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه، رقم (٢٩٩٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	•• k ••	الصفحة
مقدمة المجموعة الثالثة	٥
مقدمة المجموعة الثانية	٧
مقدمة المجموعة الأولى	٩
١ - إشارات على الطريق	١٢
الإشارة الأولى: لا تَرْضُ بِغَيْرِ الْمَقْدَمَةِ	
الإشارة الثانية: لا تُكُنْ مَعَ الْمُتَخَلِّفِينَ	
الإشارة الثالثة: لا تَفُوتِ الْفُرْصَةَ	
الإشارة الرابعة: لا تَهْجُرْ بَيْتَ اللَّهِ تَعَالَى	
الإشارة الخامسة: لا تَتَلَوَّنْ	
٢ - قواعد مواجهة المسلم للأواء الدنيا	٢٣
قاعدة الرضا بالقضاء، وهذه القاعدة العظيمة ترتكز على دعامة:		
الدعامة الأولى: أَنْ مَا يَصِيبُنَا مِنَ الْمَصَائِبِ هُوَ فِي كِتَابٍ عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى		
الدعامة الثانية: أَنْ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَتَبَهَا قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ		
أَلْفَ سَنَةٍ		
الدعامة الثالثة: «رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»		
كُلُّ شَيْءٍ يَصْغُرُ ثُمَّ يَكْبُرُ إِلَّا الْمُصِيبَةَ		

نماذج من حياة السلف في الصبر على الابتلاء

٣- المريض مسائل وتوجيهات ٣٠

المسألة الأولى: المريض مأجور

المسألة الثانية: المريض معذور

المسألة الثالثة: المريض حقه أن يُعادَ ويواسى ويُصبر

المسألة الرابعة: أجر عيادة المريض

المسألة الخامسة: الدعاء عند المريض

المسألة السادسة: إذا حضرَ المريض فقل خيراً

مسألتان نختم بهما:

المسألة الأولى: من عادَ مريضاً فليذكره بما أعدَّه الله له من الأجر

المسألة الثانية: يُذكرُ المريضُ بعدمِ الجزعِ والتسخطِ والشكوى إلى غيرِ الله

٤- فوائد المرض ٣٩

الفائدة الأولى: محو الذنوب والخطايا

الفائدة الثانية: أن ينالَ بذلك الأجر

الفائدة الثالثة: ترتفع المنزلة عند الله تعالى

الفائدة الرابعة: المرضُ سببٌ رئيسٌ للعودة إلى الله

٥- مراقبة الله في السر ٤٦

وأين مَكُوبُها؟!

أَفْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ أَنْتَهَكُوهَا

فأينَ اللهُ؟! فأينَ اللهُ؟!

٦- وصايا في زمن الفتن ٥١

- الوصية الأولى: لا يُخْرِجُ الأُمَّةَ مِنَ الفِتْنِ إِلَّا الرِّجْوُوعُ إِلَى اللهِ
- الوصية الثانية: لا بُدَّ مِنَ اللُّجُوءِ إِلَى اللهِ
- الوصية الثالثة: فِي زَمَنِ الفِتَنِ لا بُدَّ مِنَ العَمَلِ
- الوصية الرابعة: فِي زَمَنِ الفِتَنِ احذَرُوا الشَّائِعَاتِ
- الوصية الخامسة: الحذرُ من لغة التَّخْذِيلِ والإِرْجَافِ
- الوصية السادسة: الحذر من الفَوْضَى والصَّحْبِ

٧- أخلاقيات قيادة السيارات ٦٠

- فَضْلُ حُسْنِ الخُلُقِ
- قَضِيَّتَانِ أساسِيَّتَانِ يَحْتَاجُهَا كُلُّ قَائِدِ مَرَكِبَةٍ:
- القضية الأولى: التَّائِيّ وَالرَّفِيقُ وَالتُّودَةُ
- القضية الثانية: كَفُّ الأَذَى
- مِنْ أبلِغِ صَوَرِ الإِيذَاءِ القَتْلُ العَمْدُ

٨- آداب التغريد على مواقع التواصل الاجتماعي ٦٨

- حاجتُنَا إِلَى الأدبِ فِي جَمِيعِ مَنَاحِي الحَيَاةِ
- الأدبُ الأوَّلُ: عَلَيْكَ بِالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ
- الأدبُ الثَّانِي: غَرَّدْ بِالمُفِيدِ
- الأدبُ الثَّالِثُ: ثَبَّتْ قَبْلَ أَنْ تَغَرَّدَ
- الأدبُ الرَّابِعُ: لا تَغَرَّدْ إِلَّا بِالصَّحِيحِ مِنْ أَحَادِيثِ المِصْطَفَى ﷺ
- الأدبُ الخَامِسُ: أَيُّهَا المَغَرَّدُ، اسْتَشْعِرْ رِقَابَةَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى

٧٥ ٩- بعض ثمار ذكر الله

..... الكون كله يذكرُ اللهَ
 الثمرةُ الأولى: أنْ مَنْ ذَكَرَ اللهَ ذَكَرَهُ اللهُ
 الثمرةُ الثانيةُ: العصمةُ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ
 مَنْ ذَكَرَ اللهُ ازدادَ قوَّةً على طاعةِ اللهِ

٨١ ١٠- السباق إلى رب البريات

..... السباق الحقيقي
 بين يدي السباق إلى الله حقائق، منها:
 الحقيقة الأولى: أن الجميع يشارك في هذا السباق
 الحقيقة الثانية: عُصرُ الوقتِ مُهمٌّ في هذا السباق
 الحقيقة الثالثة: لا سبق ولا ظفر للغافلين
 الحقيقة الرابعة: أن العبرة في هذا السباق بقوَّة المحرك وسلامته

٨٨ ١١- حُسنُ الخلق

..... دعوة النبي ﷺ إلى مكارم الأخلاق
 أهميَّةُ الأخلاقِ في حياتنا تتمثلُ في نقاطٍ سبعٍ
 **أولاً:** أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الإيمان وحُسن الخلق
 **ثانياً:** الارتباط الوثيق بين درجة القرب من النبي ﷺ يوم القيامة وحُسن الخلق
 **ثالثاً:** حُسن الخلق أثقل ما يوضع في الميزان
 **رابعاً:** حُسن الخلق أسرع المطايا، وأفضلها
 **خامساً:** حُسن الخلق خيرٌ من الدنيا وما فيها

سادساً: حُسْنُ الخُلُقِ أَكْثَرُ ما يَجْذِبُ قُلُوبَ الآخَرِينَ لَكَ

سابعاً: بِحُسْنِ الخُلُقِ تُعَمَّرُ الدِّيارُ، ويزادُ في الأعمارِ

١٢ - مِن أسرارِ الفاتحةِ ٩٤

السِّرُّ الأوَّلُ: أَنَّكَ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ واحِدٍ مِنْها إِلَّا أُعْطِيَتْهَ

السِّرُّ الثاني: أَنها أُمُّ القُرْآنِ

السِّرُّ الثالثُ: أَنها أعْظَمُ سورَةٍ في كِتابِ اللهِ

السِّرُّ الرَّابِعُ: أَنها سورَةُ المَناجاةِ

السِّرُّ الحامِصُ: أَنها الشافيةُ

السِّرُّ السَّادِسُ: أَنَّهُ لا صَلَاةَ بِغَيرِ فاتِحَةِ الكِتابِ

١٣ - أسرارُ التَّسميةِ ١٠٠

السِّرُّ الأوَّلُ: أَنَّهُ خَيْرٌ ما يُحْتَمُّ بِ«بِسْمِ اللهِ»

السِّرُّ الثاني: أَنَّ «بِسْمِ اللهِ» حِجابٌ لا يُخْتَرَقُ

السِّرُّ الثالثُ: أَنَّ الوُضوءَ لا يَصِحُّ إِلَّا بِ«بِسْمِ اللهِ»

السِّرُّ الرَّابِعُ: التَّسميةُ عِندَ الخُرُوجِ مِنَ البَيتِ وفي الصَّيْدِ وعلى الطَّعامِ

السِّرُّ الحامِصُ: أَنها علاجٌ ربانيٌّ اسْتخدمَه النَّبِيُّ ﷺ

السِّرُّ السَّادِسُ: أَنَّ «بِسْمِ اللهِ» تُقالُ عِندَ البَلاءِ والمَصابِ

السِّرُّ السَّابِعُ: إذا أَغْلَقْتَ أبوابَكَ فَقُلْ: بِسْمِ اللهِ

السِّرُّ الثَّامِنُ: بِسْمِ اللهِ عِندَ الجِماعِ

السِّرُّ التَّاسِعُ: هي خاتمةُ كُلِّ مِسلِمٍ

١٤ - قسوةُ القلبِ وعِلاجُه ١٠٧

- القسوة أخطر أمراض القلب
- من أعراض قسوة القلوب:
- ١- عدم رؤية الأشياء على حقيقتها
- ٢- عدم الاعتبار بما يرى من العظايت
- ٣- أن القلب القاسي يقبل الشبهة، ويقبل الشهوة
- أسباب قسوة القلب:
- ١- الغفلة عن ذكر الله تبارك وتعالى
- ٢- الذنوب
- العلاج والمخرج:
- المخرج الأول: الدعاء
- المخرج الثاني: العناية الحقيقية باليتيم
- المخرج الثالث: اذهب إلى المقابر
- ١٥- البناء العقدي في نفوس الأبناء وأهميته ١١٤**
- الأبناء هم رأس مال الوالدين
- مجموعة من الخطوات في تأسيس أبنائنا على العقيدة الصحيحة:
- الخطوة الأولى: تلقينهم لا إله إلا الله
- الخطوة الثانية: تعليمهم محبة الله سبحانه
- الخطوة الثالثة: تعليمهم محبة النبي ﷺ، وسيرته
- الخطوة الرابعة: ربطهم بكتاب الله
- ١٦- البناء العاطفي في نفوس الأبناء وأهميته ١٢١**

أربعة نماذج للنبي ﷺ كيف استطاع أن يشبع عاطفة أبنائه وأحفاده
 النموذج الأول: كان ﷺ يملأ نفوس أبنائه وأحفاده بالرأفة والرحمة
 النموذج الثاني: كان ﷺ يداعب أبناءه وأحفاده
 النموذج الثالث: كان رسول الله ﷺ يهدي الأبناء ويُعطيهم
 النموذج الرابع: جعل النبي ﷺ هذا النموذج خاصة مع البناتِ

١٧ - أهمية البناء الأخلاقي في نفوس أبنائنا ١٢٨

أهمية غرس القيم والآداب في نفوس النَّشء
 أربعة حقول ينبغي أن نركّز عليها ونحن نربي أبنائنا على الأدب والقيم:
 الحقل الأول: أن يُعلّم الأبناء ويؤدّبوا على برِّ الوالدين
 الحقل الثاني: أن يُعلّم الأبناء قيمة العلماء
 الحقل الثالث: الأدب مع الكبار
 الحقل الرابع: الأدب مع الأحكام الشرعية

١٨ - القدوة الصالحة وصفاته ١٣٦

حاجة أولادنا إلى قُدواتٍ صالحة
 شرع الله تبارك وتعالى الاقتداء وجعله مطلوباً
 بعض صفات القدوة الصالحة:
 الصفة الأولى: لا بُدَّ من قولٍ يوافق الفعل
 الصفة الثانية: أن يكون مُخلصاً في قوله وفعله
 الصفة الثالثة: الثبات على المبادئ
 الصفة الرابعة: ألا يكون في مواضع وأماكن الريب والشبهات

١٩ - بشارات وتحذيرات في زكاة المال ١٤٤

بشارات للمُزَكِّين:

البشارة الأولى: الزكاة برهانٌ على صدق الإيمان

البشارة الثانية: بالزكاة والصدقات تنزل البركات من الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**

البشارة الثالثة: الفوز بالجنة

البشارة الرابعة: بالزكاة تكفر السيئات

البشارة الخامسة: كل امرئ في ظل صدقته حتى يفصل بين الناس

البشارة السادسة: هي الكنز المدخر في حسابك

البشارة السابعة: الزكوات والصدقات تقي من الآفات والنكبات

ثلاثة نصوص في التحذير من منع الزكاة:

النص الأول: قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾**

النص الثاني: «مانع الزكاة يوم القيامة في النار»

النص الثالث: «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع»

٢٠ - بشارات وتحذيرات في زكاة المال ١٤٤

أربع مسائل تتعلق بالزكاة:

المسألة الأولى: الزكاة عبادة في الأمم السابقة

المسألة الثانية: مانع الزكاة يتسبب في ضرر الأفراد والجماعات

المسألة الثالثة: الزكاة واجبة على الجميع

المسألة الرابعة: اجعل زكاتك لله

٢١- وصايا بين يدي رمضان ١٦٠

- الوصية الأولى: أجب النداء فأقبل
- الوصية الثانية: حقق التقوى
- الوصية الثالثة: احذر سراق رمضان
- الوصية الرابعة: في هذا الشهر المبارك كن من أوتاد المساجد
- الوصية الخامسة: عليكم بالشافع المشفع
- الوصية السادسة: احرض على حسناتك من لسانك

٢٢- أسباب العتق من النار ١٦٨

- العتق من النار خاصية في شهر رمضان
- أسباب ستة للعتق من النار:
- السبب الأول: التوحيد الخالص
- السبب الثاني: التبكير إلى الصلوات
- السبب الثالث: البكاء من خشية الله
- السبب الرابع: حسن الخلق وحسن التعامل مع الآخرين
- السبب الخامس: ذكر الله تعالى
- السبب السادس: ذب عن عرض أخيك

٢٣- وسائل تحصيل البركة ١٧٥

- الوسيلة الأولى: تحقيق الإيمان والتقوى
- الوسيلة الثانية: الدعاء بالبركة
- الوسيلة الثالثة: الصدق في المعاملة والوضوح فيها

الوسيلة الرابعة: ارض بما قسم الله لك.....
 الوسيلة الخامسة: أن تكون في الموضع الذي دعا النبي ﷺ لأهله بالبركة.....
 الوسيلة السادسة: الاجتماع على الطعام وذكر اسم الله عليه.....
 الوسيلة السابعة: وجود الأكارب من بيننا.....

٢٤ - فتح أبواب السماء..... ١٨٣

الأوقات التي تُفتح فيها أبواب السموات:.....
 الوقت الأول: حينما يُؤذن المؤذنُ وحينما يُقيم الصلاة.....
 الوقت الثاني: عند منتصف الليل في كل ليلة.....
 الوقت الثالث: يوما الاثنين والخميس.....
 دعوات تُفتح فيها أبواب السماء:.....
 الدعوة الأولى: «الله أكبرُ كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرةً وأصيلاً».....
 الدعوة الثانية: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد».....
 الدعوة الثالثة: دعوة المظلوم.....
 أعمال تُفتح عندها أبواب السماء:.....
 العمل الأول: حينما يُؤذن المؤذنُ لصلاة الظهر.....
 العمل الثاني: انتظار الصلاة بعد الصلاة.....
 بعض من تُغلق أبواب السماء في وجهه:.....
 العبد إذا لعن شيئاً.....
 من أغلق بابه عن حوائج الناس.....

٢٥ - وصايا في وداع رمضان..... ١٩٠

..... الوصية الأولى: عليك بالرجاء والوجلِ
 الوصية الثانية: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾
 الوصية الثالثة: اختم بخيرِ

٢٦- التقوى ١٩٧

..... فضيلة التقوى
 من أسباب التقوى:
 أولاً: الفوز بمحبة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى
 ثانياً: الفوز بالجنة
 ثالثاً: تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب والخطايا
 رابعاً: تيسير الأمور وتفريج الهموم
 خامساً: لحظى برحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى

٢٧- الطريق إلى التقوى ٢٠٤

..... الطريق إلى التقوى يمرُّ عبر أربع محطات:
 المحطة الأولى: محبة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى
 المحطة الثانية: استشعار رقاية الله
 المحطة الثالثة: محاسبة النفس
 المحطة الرابعة: الحذر من حبائل الشيطان

٢٨- الحذر من حبائل الشيطان ٢١١

..... بداية عداوة الشيطان للإنسان
 عداوة الشيطان مستمرة حتى الموت

أهداف الشيطان من كَيْده للإنسان:
 أولاً: الدعوة إلى الكُفْرِ
 ثانياً: الصدُّ عن الطاعة
 ثالثاً: يُفسدُ على الإنسان طاعته
 من وسائل الشيطان لإضلال بني آدم تزيينُ الباطل

٢١٨ ٢٩- صاحبُ السوءِ

تأثر الإنسان بمن يُصادقُ سلباً وإيجاباً
 الحذر من صاحبِ السوءِ
 من أخطار مصاحبة قرين السوء:
 التأثيرُ العقديُّ
 التطبعُ بهم، والتأثرُ بهم تقليداً
 قُرْءاءُ السوءِ أولُ مَنْ يَنْصَرِفُ عَنْكَ عِنْدَ النَّكِيةِ

٢٢٧ ٣٠- العناية بتربية الأولاد

أربع قواعد يحتاجها المربي وهو يربي أبناءه:
 القاعدةُ الأولى: كل ما تبذله في تربية أبنائك تؤجر عليه
 القاعدةُ الثانية: أنك لا تهدي من أحببت
 القاعدةُ الثالثة: المال الحلال سببُ رئيس في صلاح الأبناء
 القاعدةُ الرابعة: ادعُ لأبنائك

٢٣٥ ٣١- قيمة العمل ومواصفات العامل الجاد

قيمةُ العمل

..... ثلاثُ صفاتٍ للعاملِ الجادِّ:
 الصِّفَةُ الأُولَى: العملُ الدائمُ
 الصِّفَةُ الثَّانِيَةُ: الصَّبْرُ وعدمُ الاستِعْجالِ
 الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ: تقديمُ المصلَحةِ العامَّةِ على المصلَحةِ الشَّخصِيَّةِ
 أنموذجٌ للعاملِ الجادِّ (مؤسِّسُ حلقاتِ تحفيظِ القرآنِ الكَرِيمِ)

٣٢- رسالة إلى حجاج بيت الله ٢٤٤

..... الرَّسَالَةُ الأُولَى: اجْعَلْ حَجَّكَ اللهُ
 الرَّسَالَةُ الثَّانِيَةُ: أَكْثِرْ مِنَ الدَّعَاءِ فِي هَذَا الْمَسْكِ الْعَظِيمِ
 الرَّسَالَةُ الثَّالِثَةُ: اسْتَحْضِرْ أَجْرَ الْحَجِّ
 الرَّسَالَةُ الرَّابِعَةُ: احْذَرْ أَنْ تَقَعَ فِي ظُلْمِ الآخِرِينَ

٣٣- استثمار الأوقات المباركة ٢٥١

..... فَضْلُ العَمَلِ الصَّالِحِ فِي أَيَّامِ العَشْرِ مِنْ ذِي الحِجَّةِ
 نِهَازُجٌ مِنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فِي أَيَّامِ العَشْرِ:
 الصَّدَقَاتُ
 لَا تُفَوِّتِ الصَّلَوَاتِ
 الذُّكْرُ
 الصِّيَامُ
 الأُضْحِيَّةُ

٣٤- أعمال إذا أتى بها المسلم رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه ٢٥٩

..... فَضْلُ يَوْمِ عَرَفَةَ

أعمال إذا أتى بها المسلم رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه:

العمل الأول: انتظار الصلاة بعد الصلاة في المسجد

العمل الثاني: الخشوع في الصلاة

العمل الثالث: الصلاة في المسجد الأقصى

العمل الرابع: الرضا والحمد عند الابتلاء

العمل الخامس: ذكر الله عند التعار من الليل

أعمال من أتى بها نال أجر الحاج:

أولاً: من خرج من بيته متطهراً إلى صلاة مكتوبة

ثانياً: من عدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيراً أو يعلمه

ثالثاً: من صلى الفجر في جماعة، ثم قعد يذكر الله

رابعاً: العمرة في رمضان

٣٥- مزايا أمة الإسلام

من مزايا وفضائل أمة الإسلام

ثلاثة أركان متى ما توفرت عاد للأمة مجدها:

١- إذا عادت إلى خالقها

٢- إذا اعتز المسلم بهويته

٣- أن تُنظف المجتمعات من الفساد والظلم

٣٦- رسالة إلى مسوف

«سوف» من أقوى جنود الشيطان

أربعة أسباب تجعل من الإنسان مسوفاً:

..... السببُ الأوَّلُ: التنشئةُ في أسرةٍ مسوِّفةٍ

..... السببُ الثاني: مصاحبةُ المسوِّفين

..... السببُ الثالثُ: عدمُ ترويضِ النفسِ على معانقةِ القممِ

..... السببُ الرابعُ: طولُ الأملِ

٣٧- محطات على طريق العز ٢٧٩

..... ستُّ محطاتٍ من أخذٍ بها نالَ العزَّ:

..... المحطةُ الأولى: الإيمانُ باللهِ المقرونُ بالعملِ الصالحِ

..... المحطةُ الثانية: إحياءُ الثقافةِ الصحيحةِ للجهادِ في سبيلِ اللهِ

..... المحطةُ الثالثة: التواضعُ

..... المحطةُ الرابعة: العلمُ

..... المحطةُ الخامسة: العفوُ والغفرانُ معَ المقدرةِ

..... المحطةُ السادسة: اليقينُ أنَّ المستقبلَ لهذا الدِّينِ

٣٨- بقدرِ ذكركَ اللهُ يكونُ اللهُ معكَ ٢٨٧

..... فَضْلٌ مَنْ مَلَأَ عُمْرَهُ بِذِكْرِ اللهِ

..... مِنْ فَضَائِلِ ذِكْرِ اللهِ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**

..... فَضْلُ مَجَالِسِ الذِّكْرِ

٣٩- عقوبة بعض الذنوب تعجل في الدنيا ٢٩٤

..... أمثلةٌ للعُقوباتِ الَّتِي تُعَجَّلُ عَلَى الْعَبْدِ فِي الدُّنْيَا:

..... المثلُ الأوَّلُ: الحرصُ على الدنيا والغفلةُ عن الآخرةِ

..... المثلُ الثاني: تركُ الأمرِ المعروفِ والنهيِّ عن المنكرِ

- المثالُ الثالثُ: العقوقُ وقطيعةُ الرحمِ
- ٤٠- الصدق ٣٠٢
- الصدقُ منجاةٌ للعبدِ في الدنيا وفي الآخرة
- أحاديثُ في أهميةِ الصدقِ وفضيلتهِ
- صورُ الصدقِ المذمومِ
- الصورةُ الأولى: الغيبةُ
- الصورةُ الثانية: ذكرُ الرجلِ الرَّجلِ على سبيلِ الاحتقارِ والانتقاصِ
- الصورةُ الثالثة: الذي يصدقُ الكهنةَ والعرافينَ
- الصورةُ الرابعة: أن الإنسانَ يَجاهرُ بفعلِ سيئاتِهِ وذنوبِهِ
- فهرسُ الموضوعاتِ ٣٠٩